

26.2.2022

جون هال

مذكرات العمى

رحلة عبر الظلام



ترجمة

د. شريف بقرنه

مذکرات العمی

رحلة عبر الظلام

جون إم هال

ترجمة

د. شریف بقره



مذكرات العمى

رحلة عبر الظلام

© دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ

مهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هال، جون

مذكرات العمى. / جون هال؛ شريف بقرنه. - الرياض،

١٤٤٢ هـ

٣٨٨ ص؛ المقاس ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٦١٨-٧-٥

١- القصص أ. بقرنه، شريف (مترجم) ب. العنوان

ديوي ٨٣، ٨٠٨ ١٤٤٣ / ١٢٠٧

رقم الإيداع: ١٤٤٣ / ١٢٠٧

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٦١٨-٧-٥

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ = ٢٠٢١ م

Copyright © 2021 by ADAB

جميع حقوق الترجمة العربية

محفوظة حصرياً لـ:

دار أدب للنشر والتوزيع



info@adab.com • adab.com • @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

هذا الكتاب صادر عن مشروع
«مد» للترجمة الذي تقوم عليه دار
أدب للنشر والتوزيع ضمن مبادرة
إثراء المحتوى إحدى مبادرات
مركز الملك عبد العزيز الثقافي
العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن
الإنجليزية لكتاب:

Notes on Blindness

A Journey through the Dark

By

John huli

تنشر هذه الترجمة عن النسخة
الأصلية للكتاب:

Copyright © John M. huli 1990,
2013, 2017

بموجب اتفاق حصري مع:

PROFILE BOOKS, Wellcome
collection

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

المحتويات

٧	ملاحظة للقارئ
٩	مقدمة، كاثي ريتزبرينك
١٧	تمهيد، جون إم هال
٢١	إلى القارئ الكفيف
٢٣	١- غرق، صيف ١٩٨٣
٥٧	٢- في النفق، خريف ١٩٨٣
٨١	٣- ما وراء النور والظلام، شتاء ١٩٨٣
١١٩	٤- الزمان والمكان والحب، ربيع ١٩٨٤
١٤٧	٥- البحر والريح، صيف ١٩٨٤
١٩٣	٦- حوّل المنعطف، خريف ١٩٨٤
٢١٩	٧- ما وراء المشاعر، شتاء ١٩٨٤
٢٥٥	٨- مازلت أبحث، ربيع ١٩٨٥
٢٦٩	٩- استيقاظ الأعمى، صيف ١٩٨٥
٢٩١	١٠- أطفال مفقودون، خريف ١٩٨٥
٣٠٩	١١- الهدية، شتاء ١٩٨٥ / ربيع ١٩٨٦
٣٢٣	١٢- أمسكْ بطرف الخيط، صيف ١٩٨٦

الخاتمة، مارلين هال، أكتوبر ٢٠١٦	٣٣٩
تمهيد، أمسيكُ بطرف الخيط، أوليفر ساكس	٣٥٩
مقدمة لـ «أمسيكُ بطرف الخيط»، جون م هال	٣٦٧
شكر وتقدير	٣٨٧

ملاحظة للقارئ

نُشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٩٠ عن دار إس بي سي ك^(١)، وأعيد إصداره في طبعة جديدة عام ٢٠١٣. هذا الإصدار هو طبعة ٢٠١٧، والتي نشرتها ويلكم كولكشن^(٢)، على إثر نجاح: مذكرات العمى ٢٠١٦^(٣)، الفيلم الوثائقي الحائز على عدة جوائز، والمبني على كتاب: «أميسك بطرف الخيط»^(٤).

(1) Touching the rock by John M. Hull, SPCK Publishing 1990

(2) Notes on Blindness: A Journey through the Dark by John M. Hull, Wellcome Collection and Profile Books 2017

(3) Notes on Blindness 2016

(٤) «أميسك بطرف الخيط: تجربة العمى» عنوان الكتاب عند صدوره لأول مرة، سيتكرر ذكر العنوان عدة مرات في الكتاب، وفي سياقات مختلفة؛ لذلك أحببت التنويه بأن العنوان بالإنجليزية touching the rock من التعابير Idioms أو الاصطلاحات الاستعارية التي لا تُترجم ترجمة حرفية، وعند ترجمتها حرفياً لا تنقل المعنى المراد للقارئ العربي، المعنى المقصود هو فعلتها، أو استطعت فعل الحد الأدنى من المهمة رغم صعوبتها؛ أجد أن «أميسك بطرف الخيط» تعبير استعاري قريب ومكافئ في العربية المترجم

مقدمة

كاثي رينتزنبرينك^(١)

لماذا نقرأ؟ أحياناً أنشد الراحة، العزاء، الإلهاء أو الترفيه. في أوقاتٍ أخرى أسعى إلى تعلّم أشياء جديدة، ووضع نفسي في منزلة الآخر. ربّما وخاصة عندما أقرأ المذكرات، أريد أن أعرف وأستوعب الإنسان الآخر باستدعاء عالمه. في حالاتٍ نادرة، يجتمع كل ما سبق وأشعر بارتياحٍ عميق، ليس فقط لأنّي قضيت وقت قراءةٍ جيّد، وإنّما لشعوري أنّي تغيّرت بطريقةٍ أو بأخرى، وأن ما تعلّمته ألقى ضوءاً على رحلتي خلال هذه الحياة العجيبة. «مذكرات العمى» يستوفي كل هذه الرغبات القرائيّة، وهو نموذجٌ جميل لكيف يمكن أن تكون الكتب نوعيّةً ومحدّدةً بشكل مكثّف وفي ذات اللحظة تحمل معنىً كلّياً.

كان جون هال أكاديميّاً، ولاهوتيّاً، مسجّلاً ككفيفٍ في

(١) كاثي رينتزنبرينك Cathy Rentzenbrink كاتبة مذكراتٍ وروائية إنجليزية معاصرة.

عام ١٩٨٠، تقريبًا في نفس وقت ولادة طفله الثاني. في البداية كان منشغلًا بحلّ المشكلة واستكشافها وكل ما صاحب ذلك من مفاجأة وتعلّم لكيفية العيش والعمل. لم تمض سوى ثلاث سنوات حتّى تلاشى الضوء الأخير من عينيه وسافر بعيدًا إلى ما يسمّيه: «العمى العميق»، وبدأ بتسجيل ملاحظاتٍ حول حياته على الكاسيت، والتي شكّلت مادة هذا الكتاب، راسمًا خطّ التدرّج من كونه: «الشخص المبصر الذي لا يمكنه أن يرى إلى أن يصبح الشخص الأعمى».

إنّها رحلة عمليّة ومجازيّة. يمكن لهال التنقّل بين المنزل والعمل بنجاح كبير باستخدام عكّازه، وفي معظم الأحيان تكون المخاطر التي يواجهها مرتبطة بالبشر أكثر من الأشياء. يلاحظ كم هو عويص على الشخص المبصر استيعاب أن العصا مجرد أداة لتوسيع مجال إحساسه بالأشياء المحيطة، وليست شيئًا يريد أن يتكلّى عليه. إنّها عصا الرؤية، وليست عصا المشي، غير أنّ الراغبين في المساعدة والطموحين حوله يلتقونها ويؤشرون له بها، ولا يلتقون فكرة أنّه لا يمكنه رؤية ما يفعلون. ليس كل شخصٍ حسن النية. ثمة

رجالٌ مجهولون يتهكمون في الشارع ويصرخون متبهمين عن سياراتٍ وهمية، أو آخرون يتهمونه بأنه محتال. ما يُشعرُ بالضدّة أكثر من هذه القسوة العشوائية، هو عندما يغيظه معارفه ويختبرون مدى قدرته في التعرّف على أصواتهم، عوضًا عند تقديم أنفسهم على الطريقة الملائمة. هذه الألعاب السخيفة تجعل هال يشعر وكأنه في منتصف لعبة بوف الرجل الأعمى^(١).

يعتمد الاتصال البشري على مبدأ المعاملة بالمثل، ولكن بالطبع لا يزال هال يرغب بأن يُرى بأكمل صورة على الرغم من أنه لم يعد يرى. إنه يخبرنا عن كونه أصبح معاقًا، وبشعوره فقدان جزء من رجولته، وجزء آخر من إنسانيته. كثيرًا ما يجد نفسه في موقف الطفل الذي يتجاهله الناس، ويسألون غيره (زوجته) عما يريد أن يفعله.

كيف تكون المشاعر عندما لا يمكن رؤية ما تفعله الأيام

(١) دفعة الرجل الأعمى Blind Man's Buff، وهي لعبة قديمة تعود أصولها إلى اليونان القديم قبل ٢٠٠٠ سنة، يكون فيها أحد اللاعبين معصوب العينين ويحاول لمس المشاركين المتفرقين حوله والبحث عنهم.

في ملامح المرء بعد الآن، أو ملامح محييه؟ يشعر هال بالكمَد عندما لا يستطيع أن يستحضر صورة زوجته أو ولده الأكبر في مخيلته، هو الذي لم ير أطفاله الصغار من قبل، يستوعب هال وهو محاط بالأطفال من حوله أنه لا يعرف ما إذا كان الطفل يتحرك في حضنه بسعادة، ولا يعرف كيف يمكن أن يسأل عن ذلك.

بينما يستمر هال في تأمل الطبيعة الغريبة لحياته الجديدة، تبرز شخصية دافئة وذكية ومعبرة عن رجل يحاول أن يتفهم ويصنع شيئاً ليس من حالة عماه فقط، وإنما أيضاً من مفهوم العمى بأكمله. العمل والتأمل أمران أساسيان لرفاهية هال، لدرجة أن الابتعاد ولو ليوم واحد من الدراسة يجعله أقل قدرة على التعامل والسيطرة على اليأس. يخبرنا أنه لا يستطيع أن يكتب كتابة روائية أو كتاب حقائق، لكن سفيه للفهم سيحافظ على إبقائه مترنًا.

ملاحظات هال على السؤال الأساسي لموقفه تجاه العمى له أهميته الكبرى في التعامل مع أنواع المجن التي قد تواجهنا في الواقع ونود رفضها. يطرح المعضلة هنا: «إذا قبلت هذا الشيء، وإذا أذعنت، فسأموت. سيكون الأمر كما

لو أن قدرتي على المقاومة، وإرادتي في المقاومة محطمة من ناحية أخرى، يبدو أن رفض الإذعان، رفض القبول، أمر عديم الجدوى. ما أحاول أن أرفض قبوله هو مخض الحقيقة».

قرب نهاية الكتاب يجد هال حلاً وسطاً بين ثنائيات القبول والرفض البحتة يستقي ذلك بـ «التكامل»، ويأخذه إلى مرحلة أخرى في الرحلة: «كلما تعمق المرء أكثر فأكثر في العمى، فإن الأشياء التي اعتُبرت ذات يوم أمراً مفروغاً منه، والتي أثارت الحزن لاختفائها، والتي حاول المرء بشتى الطرق تعويضها، في لحظة ما وبطريقة ما تقل أهمية، لم يعد شكل الناس أو ما تبدو عليه المدن ذات أهمية... يبدأ المرء من جديد ويقيم في عالم آخر».

حيث كان هال قد تذوق الجمال بمشاهدة كنيسة ذات مرة، الآن تغمره البهجة لسماع أجراسها. يمكنه أن يعرف ما إذا كان الضوء يضيء بتوجيه وجهه ناحيته، يلاحظ أن بشرته أصبحت أكثر حساسية لتغيرات الريح والشمس. يبدأ في اعتبار نفسه الرائي بكامل الجسد: «الشخص الأعمى هو ببساطة شخص تكمن الوظيفة المتخصصة للبصر على كامل

جسده، ليس هناك عضو محدد يتخصص في ذلك».

هل ثقة معنى يُمكن استخلاصه من العمى؟ في كثيرٍ من الأحيان يسأل الناس هال عن أعمال العناية الإلهية^(١) وهو مستبشر بالطبيعة العرضية لحالته. لقد وُلِدَ في وقتٍ مضى وقُدِّرَ له وأن فقد بصره، ربّما يمكن تلافي ما حدث لو قُدِّرَ له وأن وُلِدَ في المستقبل، ولكن يمكننا تغيير الأحداث العرضية من حياتنا لجعلها تحمل هدفًا: «السعادة ليست أهم شيءٍ في الحياة، بل المعنى. السعادة هي نتيجةٌ لسلسلةٍ من الأحداث التي تبعث على غبطتنا. العمى لا يسعدني. لم أختره، ولم ينزله أحدٌ على عاتقي. ومع ذلك كحدثٍ عرضي يمكن أن يصبح ذا مغزى».

توفي جون هال في عام ٢٠١٥. نجا مع أطفاله الخمسة وزوجته (أرملته) مارلين التي كتبت خاتمةً لهذه الطبعة الجديدة من الكتاب. هناك حكمةٌ في كل صفحةٍ من هذا الاستنطاق الذاتي المشغول بدقّة والذي تركه وراءه. هذه البرقيات المُرسلة من الظلام، ولكن أيضًا من النور، ستبقى

(١) providence ويجوز ترجمة المفردة إلى الحيلة أو التبصر في العواقب.

معي لفترة طويلة من الزمن. يا لها من هدية للبشرية جمعاء
أن يكتب شخصٌ واحدٌ بصراحةٍ ووضوحٍ عن الطريقة التي
يواجه بها المكفوفون عالمهم.

تمهيد

جون إم هال

ربما أنك ترغب في فهم العمى بشكل أفضل، بقراءة هذا الكتاب. تريد أن تعرف ما الذي يعنيه أن تصبح أعمى، أن تكون أعمى. بعد عدة أعوام من فقدان بصري؛ أصبحت مهتماً بالعمى، وقرأت أكثر من عشرين سيرة ذاتية لأشخاص فقدوا البصر.

أذهلتني هذه القصص؛ كانت الفكاهة والشجاعة والألمعية تُفعم حياتهم. حكى بعضهم كيف أصبحوا أبطال جولف، وخبراء تزلج، وممارسين للطب، ورجال أعمال ناجحين. كُتِبَ البعض منهم عن إيمانهم المُعلن، وآخرون تحلّوا بروح القبول الرواقي. كان معظمهم قصصاً ملهمةً للانتصار والمصالحة، لكنني لم أجد ما كنت أبحث عنه: سرُّ للعمى كما عرفته. ربما لم أنظر بجديّة بما يكفي، أو لم أقرأ المزيد على نطاق يتسع، كل ما يمكنني قوله هو أن

الكتب التي قرأتها لم تصف لي جوانب العمى التي كانت أكثر أهمية بالنسبة لي. العديد منها كانت سرديات أدبية: لها بداية، ومتصف، ونهاية. كانت أشبه بالروايات، بأسلوب مثير للاهتمام، متصاعد أو تقريرى. هذا الكتاب ليس كذلك.

في يونيو من عام ١٩٨٣، بعد عامين ونصف من تسجيلي كشخص كفيف، بدأت في تسجيل تجربتي ويومياتي على شريط كاسيت، كان ذلك عندما بدأت تحاصرني حقيقة أنني أعمى. قد تتساءل: لماذا استغرق الأمر وقتًا طويلاً؟ لكن السنوات القليلة الأولى كانت مليئة بالمشاكل العويصة، والتي كان يتعين علي أن أجدها حلاً. بعد ذلك فقط بدأت أشعر بالتغيير والتحول من شخص مبصر لا يرى إلى شخص أعمى. أحياناً كنت أضيف شيئاً إلى الكاسيت كل يوم، يوماً بعد يوم، وفي أحيان أخرى تمر الأسابيع بلا أي إضافة. لقد سجلت أشياء شعرت بها بشدة؛ أشياء حيرتني حينها أو بعثت في داخلي البهجة. قلتُ ما كان علي أن أقوله لمساعدة نفسي، والتعامل مع ما كان يدور حولي. ظللتُ على هذه الحالة لثلاث سنوات، وتدرجياً بدت الحاجة للمزيد من

التسجيلات تقل. تحدّثت عن أطفالي، عملي، علاقاتي مع النساء والرجال، وسجّلت حتّى أحلامي.

هذا الكتاب هو النتيجة. كتابٌ ليس له نهاية معيّنة؛ لأن العمى ليس له نهاية. سيكون رائعاً أن أكون قادراً على قول إن النهاية كانت سعيدة، إن معجزةً حدثت، لكنّ ذلك لم يحدث. كيف سيكتشف أطفالي تدريجيّاً فقدانني البصر؟ كنت مهتماً بهذا السؤال، وما الذي يعنيه أن يكون لديهم أبٌ أعمى. كنت مهتماً بما سيحدث لأحلامي. سجّلت أحلامي في الغالب في اليوم التالي لحدوث الحلم، أحياناً بعد دقائق من استيقاظي. تشكّل الطبيعة السردية للحلم نوعاً من الحبكة الفرعية، إن كان يمكن تسميتها حبكة؛ لأن المحتوى الواعي يكشف كيف عانى العقل اللاواعي مع المشكلة. العلاقة بين الحلم واليقظة وطبيعة الوعي بحدّ ذاته هو إحدى الثيمات المتكرّرة في الكتاب. تشمل الثيمات الأخرى الإدراك المتغير للطبيعة، التحوّل في فهم ما يعنيه الفرد، ومشكلة تفهّم واستيعاب هذه الخسارة الفادحة.

الكتاب ليس منظّماً بشكلٍ مُحكّم. ثمة أجزاء متناثرة في ثنايا الكتاب. هناك أوقات تبدو الحلول فيها محصورةً في

البصر، إذا جاز التعبير، ولكن هناك انتكاسات مستمرة، خاصة عندما لا أشعر بتعلّم أو اكتساب أي شيء. إذا كان هناك تكرار؛ فذلك لأنّ ذات المشاكل والتجارب صالت وجات، وجرى تأويلها من جوانب عدّة.

إلى القارئ الكفيف

يختلف المكفوفون عن بعضهم البعض تمامًا مثل اختلاف المبصرين. لا أدعي أنني أتحدث بالنيابة عنك، ولكنني أتحدث عن نفسي فقط. لست بحاجة لمعرفة كيف يبدو العمى؛ لأنك أعمى. ربما أنك تقرأ هذا الكتاب بحثًا عن رفقة شخص آخر عبر في ذات الطريق .. أتمنى أن تجده هنا.

غَرْق

صيف ١٩٨٣

١ يونيو

كم من الوقت عليك أن تصبح أعمى قبل أن تفقد أحلامك ألوانها؟ هل نطلّ نحلم بالصور إلى الأبد؟ سُجّلت كفيّاً منذ ما يقرب من ثلاث سنوات. في الأشهر القليلة الماضية، خبا الأثر الأخير للضوء من عيني. الآن أنا أعمى تماماً. لا أستطيع التمييز بين النهار والليل. أستطيع التحديق في الشمس دون أن أرى بصيصَ نورٍ منها.

خلال هذا الوقت؛ بقيت أحلامي التصويريّة. في الواقع؛ أصبحت الأحلام ممتعة بشكلٍ خاص؛ لشعور الحرّيّة الملوّنة التي أمارسها عندما أحلم. تُرى هل أثر العمى على أحلامي من الأساس؟

منذ حوالي ستة أشهر حلمت أنّ بصري تحسّن، ورأيت ابني
توماس. كان هناك؛ ممتلئ الخدين مبهجاً، طفلاً صغيراً مفعماً
بالحيوية، يبلغ من العمر عامين ونصف جالساً في حضني.

أجريت عملية عيني الأخيرة في ١ أغسطس، وُلد توماس
في ٢٢ أغسطس. عندما لا أستطيع أن أذكّر كم من الوقت مضى
منذ أن أصبحت أعمى، أسأل نفسي كم عمر توماس.

كان تواجدي وقت الولادة أمراً مرعباً، ولكنها كانت تجربة
بديعة. قاموا عندها بتشغيل ميكروفون جهاز مراقبة نبضات
الطفل، واستطعت سماعها بوضوح عند جلوسي بالقرب من
السّرير. تزوّجنا أنا ومارلين منذ أقل من عام. كانت نبضات قلب
الطفل سريعة بشكلٍ لا يصدّق، تأتي كموجاتٍ صغيرة تتسارع
بالتزامن مع الانقباضات. في كثير من الأحيان لم أكن أعرف ما
الذي كان يحدث. كانت مارلين تبكي، ويبدو أن السّرير كان
محاطاً بالقابلات والأطباء. كانت هناك لحظات من الهدوء تبعها
بكاء طفل.

لعدة ثمانية عشر شهراً، واصلت تخيل بعض الانطباعات
البصرية عنه. على بُعد بضعة أقدام منّي، كنت أستطيع معرفة
مكانه وما اللون الذي يرتديه. أستطيع أن أحدد الخطوط العريضة

لملامح وجهه عندما كان يتشاءب أو يُلوح. بقية التفاصيل الدقيقة ظلت مفقودة، التعبيرات الصغيرة حول العينين، الأحاسيس المبكرة في المراحل الأولى. في صيف عام ١٩٨١، على الشاطئ في ويلز، كنت أقوم بربط خيط حول كاحله، حتى أتمكن من إيجاده لو زحف بعيدًا عني. عندما كُبر، واستطاع المشي؛ أصبحت ألعب معه على درجات مكتبة الجامعة. كنت أترك له زمام الأمور أحيانًا، فإذا اختفى أنصتُ وأتبع صوتَ حذائه وهو يركض على الأرضية الحجرية في صباحات السبت الشتائية تلك، كان حرم الجامعة وقتها شبه مهجور. كنت أركض وراءه في حالة من الذعر أحيانًا، خوفًا من أن يصل حافة شيء ما قبل أن أتمكن من الإمساك به. كان بصري أكثر ضعفًا عندما أصبح توماس أكثر قدرة على الحركة، وأصبحت هذه النزعات أكثر صعوبة.

٣ يونيو

منذ حوالي أسبوعٍ حلمت أنني أعود بالقطار إلى بلدةٍ في نورماندي. كنت على موعدٍ للقاء مارلين في مطعمٍ كنا قد زُزناه في رحلةٍ إلى نورماندي قبل عامٍ أو نحوه من زفافنا. غادرتُ

المحطة وتوقفت لتفحص الخريطة والتعرف على مكان المحطة؛ لأدرك لحظتها أنني تركت عصاي البيضاء في القطار. لم تكن كيفية التنقل بدون العصا ما بعث في داخلي القلق، ولكن حقيقة أنني فقدت قطعة من ممتلكاتي. وجدت نفسي حينها ممسكاً بأنبوب معدني طويل، من النوع الذي يُستخدم في علاقات الملابس المتنقلة. كنت استخدم الأنبوب لاستكشاف طريقي، ولاحظت أن الناس كانوا ينظرون إليّ بفضول في المنطقة المحيطة بالمحطة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أحلم فيها بأنني أعمى، وثمة الكثير من التناقضات التي لم تُحل هنا. من المستحيل على شخصٍ أعمى يعتمد على العصا أن ينسى أن يُخضرها معه. أردت الحرية والاستقلالية في الحركة، التي من شأنها أن تسمح لي بالتزام مواعيدي مع مارلين في المطعم، لكن العمى سينزع مني هذه الحرية بالضرورة؛ لذلك كان لدي العصا البيضاء، لكنها لم تكن لدي. لا أستطيع التحرك بدون بديلٍ من نوع ما للعصا، ومع ذلك استطعت أن أشاهد ردود أفعال الناس من حولي. فقدت شيئاً كنت أحتاجه عندما التقيت مارلين. فقدان العصا لم يكن فقدان قدرتي على العثور عليها فقط، بل كان

خسارةً لشيءٍ أعمق وأكثر سطوة؛ فقدان مقدرتي على حبها.

بدأت بحمل عصا بيضاء قصيرة في وقت مبكر من عام ١٩٨٠؛ لغرض استخدامها إشارةً للمرور عند عبور الشارع. عندما ضعف بصري أكثر؛ اشتريت عصا أطول قليلًا، ثم أطول. أخيرًا؛ اشتريت عصا كاملة الطول، بطول خمسة أقدام، لها عقفه مُدوّرة على المقبض. لم يكن لدي الوقت للتمرين على التنقل، مع ذلك فإنني أنساءل في بعض الأوقات ما إذا كنت قد اكتسبت عادات سيئة في أسلوبِي، والتي كان من الممكن تلافيها ببعض التعليمات والتدريب.

على العموم؛ تلك كانت تجربتي، ولو كان لدي عادات سيئة، تُسبب لي بعض الثقل، والقصور في حركتي؛ فسيتم تصحيحها تلقائيًا في محاولتي التحرك بحرية أكثر. بعبارة أخرى؛ العمى نفسه يفرض قانونًا حديدًا على مستخدم العصا البيضاء. أعمدة الإنارة، حواف الأرصفة والسلالم أفضل المعلمين.

٥ يونيو

أحياناً عندما أحيي أحدهم بقول: «يومك جميل!»؛ لا يستجيب أو يبدو متفاجئًا. فكرة اليوم الجميل بالضرورة بصرية

إلى حدٍ كبير. يحدث اليوم الجميل عندما تكون هناك سماء زرقاء
وصافية. تكون الشمس مشرقة وقد تكون دافئة بشكل معقول،
على الرغم من أن اليوم الصافي في منتصف الشتاء يطلق عليه:
«يوم جميل، لكنّه قارس بعض الشيء». لن يسميه الشخص
المبصر يومًا جميلًا، بل يوم حلو فحسب؛ لأنه ملبّد بالغيوم.

بالنسبة لي أخذت الريح منزلة الشمس، واليوم الجميل هو
يومٌ فيه النسيم معتدل. الريح تحضر كل الأصوات حيّة في بيّتي.
أوراق الشجر وحفيفها، ورق الجرائد وهو يرقص طول الرصيف
ويصادم الجدران وزوايا المباني الكبيرة التي لا ترضخ للريح.
مُجَرّد أن يكون اليوم دافئًا، اعتبره يومًا جميلًا، لكن الرّعد يجعله
أكثر إثارة؛ لأنه يُشعِرني فجأةً بالمكان والمسافة. يَضَع الرّعد
سقفًا فوق رأسي، سقفًا عاليًا بعيدًا، سماءَ مقبّبة من الصوت
الهادر. أدرك أنني في مكانٍ كبير، لم يكن فيه شيء على الإطلاق
من قبل. الشخص المبصر لديه سقف فوق رأسه، على شكل
سماء زرقاء أو غيوم أو نجوم في الليل. ينطبق الشيء نفسه بالنسبة
للأعمى، نوح الريح حول الأشجار، يخلُق الأشجار بالنسبة لي
ويصوّرها من العدم.

ينشأ سوء الفهم بيني وبين المبصرين عندما يكون اليوم
معتدلًا، أو حتى دافئًا، مع نسيم خفيف، ولكنّ سماء ملبّدة

بالغيوم. بالنسبة للمبصرين، لن يكون ذلك يومًا جميلًا؛ لأن السماء ليست زرقاء.

أضطر إلى إبداء تعليقات أكثر تحديدًا حول الطقس. عليّ أن أتذكر وأقول إنه يومٌ جميل ومعتدل، أو ذلك نسيمٌ لطيف.

٨ يونيو

الليلة الماضية حلمت حلمًا منعشًا وجميلًا، كنت أسير على طول وادٍ نهري. كانت هناك منازل جميلة، أكواخ عطلات بُنيت على طول ضفة النهر. كنت في عطلة، أتزّه مشيًا على الأقدام. شعرتُ أنني كنت أنظر هنا وهناك، لمعرفة ما إذا كان لدي نطاق رؤية كافٍ لتغطية الوادي بأكمله وما يحيط به. على الرغم من أن الأمر لم يكن مثاليًا، إلا أنني تعزفت على المكان بشكل جيّد وتمكّنت من التنقل بحريّة والاستمتاع بالمناظر الطبيعية. كنت أقول لنفسِي: «ها أنت ذا، الضوء جيّد ويمكنك الرؤية! في ظل هذه الظروف يمكنك تدبّر الأمر بشكلٍ جيّد».

في عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧ كنت لا أزال أرى جيّدًا بما يكفي لاستمتع بالمشي منفردًا لمسافاتٍ طويلة في ريف ورشستر

وشروبشاير^(١). مكاني المفضل للمشى كان وادي سيفيرن^(٢). اعتدت على الذهاب بالحافلة أو القطار. ركوب الحافلة الصحيحة كان بمثابة مشكلة. كان عليّ الذهاب إلى محطة الحافلات في وسط المدينة للبحث عن الموقف والمسار الصحيح للحافلة التي أريد، وأحيانًا أَقِفْتُ عند محطة الحافلات بالقرب من منزلي وأقوم بإيقاف كل حافلة قادمة؛ لأسأل السائق ما إذا كان ذاهبًا في طريقي.

حاولت معرفة أرقام الحافلات باستخدام منظار صغير، لكن في كثير من الأحيان تتعدّاني الحافلة قبل أن أتمكن من ذلك. كانت قراءة الخرائط لا تزال ممكنة بالعدسة المكبرة. أحببت المشي على ضفة النهر؛ لأنه يكاد من المستحيل أن أضيع، ولكن كان من الضروري الانتباه للأرض من تحتي وأنا أمشي. غالبًا ما أقول لنفسني «شريطة أن لا يزداد الوضع سوءًا، لا يزال بإمكانني تدبّر الأمر».

بقيت معي هذه الفكرة لمدة عشر سنوات على الأقل. لا يزال بإمكانني تدبّر الأمر، شريطة أن لا يزداد سوءًا. حتى بعد أن سُجِّلَت كافيًا، كان بإمكانني السير في طريقي من المكتب إلى

(1) Worcestershire and Shropshire

(2) The Severn Valley

منزلي باتباع خطوط وقوف السيارات الصفراء المزدوجة الساطعة المطبوعة على حواف شوارع الجامعة.

سأظل على ما يرام، إذا بقيتُ على هذا النحو. عندما ساءت الأمور، كان بإمكانني العودة إلى المنزل ليلاً باتباع مصابيح الشوارع، واحدًا تلو الآخر. شعرت وكأنني بخار من أقاصي المحيط، في ليلة سوداء جبرية ودليلي نجمٌ وحيد. كلما وصلت إلى عمود إنارة، بالكاد يمكنني رؤية الضوء الصغير الخافت للعمود الذي يليه. لا يزال بإمكانني تدبّر الأمر، شريطة أن لا يزداد سوءًا.

يبدو أن أحلامي تخلفت عن الواقع بحوالي ست سنوات.

٢١ يونيو

في أوّل أعوام الإصابة بالعمى، فكّرت في الأشخاص الذين أعرفهم وقسمتهم إلى مجموعتين. أولئك الذين لديهم وجوه، وأولئك الذين ليس لديهم وجوه. كان الأمر أشبه بالتجوّل في معرض الصّور الوطنية. هنا تقع صفوفٌ من الصور، لكن هناك مجرد إطارات فارغة. يمكنك معرفة مكان تعليقها من خلاصة المعلومات عنها، وتحت كلّ خلاصة ملصقٌ صغير عليه الاسم. ربما تكون هذه الصورة مُعارة في مكانٍ آخر، أو في طور الإصلاح في الوقت الحالي.

الأشخاص الذين عرفتهم قبل فقداني بصري كان لديهم وجوه، ولكن أولئك الذين التقيت بهم بعد ذلك لم يكن لديهم وجوه. اعتدت العثور على خطّ التضاد الفاضل بين مجموعتي بشر، وكان ذلك يزعجني. لا يمكنني خلط مجموعةٍ بأخرى. استطعت التعرّف على المجموعة الأولى بوجوههم، لكن كيف يمكنني التعرّف على المجموعة الثانية؟

مع مرور الوقت، زاد عدد الأشخاص الذين لا أعرف وجوههم. غرّف كاملة من الإطارات الفارغة، أو الصور المطمورة بالغبار. من الوارد أن يأتي اليوم الذي أزور فيه المعرض لأجد الباب مغلقاً، مع إشعار يقول: «هذا المعرض مغلق للأبد!».

لقد مرّت ثلاث سنوات منذ أن رأيت أي شخص. الأمر الغريب، أن في ذهني صوراً واضحةً إلى حدّ ما لكثير من الأشخاص ممن لم ألتق بهم مرة أخرى خلال هذه السنوات الثلاث، ولكن صور الأشخاص الذين ألتقي بهم كل يوم أصبحت مغبّشة؛ لماذا يحصل كل ذلك؟

في حالة الأشخاص الذين ألتقي بهم كل يوم، استمرّت علاقتي بهم وتعدّدت مسألة فقدان البصر؛ لذلك أفكاري عن هؤلاء الأشخاص مرتبطة بآخر تطوّرات علاقاتنا. ذلك يجعل

محلّ الإطار الفارغ جزئياً، ويجعله أقلّ أهميّة. في حالة الأشخاص الذين أعرفهم جيّداً، ولكن لم يحدث وأن التفتيتهم منذ سنين، لم يحدث شيء ليحلّ محلّ الصورة، وكلّما تذكّرت أحدهم تبادرت صورته إلى ذهني.

انزعجت كثيراً عندما أدركت أنني بدأت نسيان ملامح مارلين وإيموجين. كانت لدي إرادة لتحديّ العمى. لقد أقسمت لنفسي أنني سأحمل وجه زوجتي وابنتي مخبأً في قلبي، حتى لو سُرق كل شيء آخر في المعرض.

إذا رغبتُ في استعادة وجه شخص قريب جداً مني، فإني أفعل ذلك بتخيّل صورة بعينها. صورة حقيقية يمكنني تذكرها بوضوح وصفاء من أيامي المبصرة. عندما أحاول استحضار ذكرى وجه محبوب، لا أستطيع القبض عليه، لكن يبدو أن الحواف المستقيمة للصورة تُعيد تثبيت المعالم في ذهني؛ لأنّني لا أتمكن من تخيّل نفسي وأنا أحرق في الصورة. يقول لي بعض الناس إن هذا وضعٌ سعيد؛ لأنني سأظل دائماً أتذكر وجه مارلين الصغيرة. ليس عليها أن تقلق أبداً من فكرة أنني سأراها تكبّر. لستُ متأكّداً من هذا؛ لأنني أجد صعوبةً في تصديق أن الجهل يمكن أن يكون يوماً أفضل من المعرفة.

الفرق بين من لهم وجوه ومن ليس لهم وجوه يصبح أقل تأثيراً وأهمية كلما فُكرت في أطفالِي. لدي الكثير من الذكريات البصرية لإيموجين، البالغة من العمر الآن ١٠ سنوات، تستند في الغالب على صور فوتوغرافية، وأتذكرها مفعمة بحياة نابضة وزاهية في بعض الأحيان. ليس لدي سوى القليل من الانطباعات المُشوَّشة عن وجه توماس، عُمره الآن ثلاث سنوات، تستند إلى الأشهر الست أو التسع الأولى من حياته، وقتها كان لا يزال لدي القليل من الرؤية المتبقية. أما إليزابيث، عمرها الآن ستة عشر شهراً، ليس لدي أي صورة بصرية لها على الإطلاق. الإطار الذي يجب أن يحمل صورتها على الحائط فارغ تماماً.

ما الفرق الذي يحدثه ذلك؟ لست على علم بأي اختلاف في علاقاتي الحالية مع هؤلاء الأطفال الثلاثة والتي يمكن أن تتأثر بأي شكلٍ من الأشكال بحقيقة أن صورهم في ذهني مختلفة وكذلك علاقاتهم مع عمائي. كلهم متشابهون الآن.

٢٣ يونيو

بعد حوالي عام من تسجيلي كفيفاً، بدأت صورُ الناس تتهياً لي، وتملكني شيءٌ أشبه بالهلوسة. استمر ذلك لسته أو اثني عشر شهراً. أكون جالساً في غرفةٍ مع شخصٍ ما، وجهي مواجهةً له،

وأستمع إليه. فجأة، تومض صورةٌ حيةٌ في مخيلتي، وكأنني أنظر في شاشة التلفزيون. آه، أظنّ أنه هو، بنظاراته، ولحيته الصغيرة، شعره المموج وبدلتته الزرقاء المقلّمة، ياقته البيضاء وربطة العنق الزرقاء. ذاك حذاؤه الملمّع، وحقيبة يده مركونة بجانب كرسيه. تتلاشى هذه الصورة ويحلّ محلّها أخرى. رفيقي الآن يصبح سميناً، ينحسر شعره ويرشح عرقاً. لديه ربطة عنق حمراء وصدرية وبعض أسنانه مفقودة. هذا بدوره يتلاشى.

أحياناً أنغمسُ في التحديق في هذه الصور التي بدّت وكأنها تجيء وتذهب دون أي تدخل مني؛ لأفقد تماماً خيطَ الحديث الذي كان يدور بيني وبين من يجالسني. أعود مصدوماً حينها، مدركاً أنه لم يكن هناك ما يشير إلى أن أيّاً من هذه الصور قريب من الواقع. ببساطة لم يكن هناك شيءٌ على الإطلاق. عاد صوت المتحدث، وشعرت كما لو أنني كنت قد غفوت لبعض دقائق أمام الراديو.

كان وجودي في مستشفى العيون من المرات القليلة في حياتي التي فقدت فيها بصري مؤقتاً. هناك مررت بهذه التجربة الغريبة التي حاولت فيها التعرّف على الممرضات بأصواتهن، وبالتأكيد تشكّلت في ذهني صورٌ بصريةٌ عنهن؛ لأكتشف بعد

انتهاء العملية وعودة بصري أنني كنت مخطئًا تمامًا. لذلك لدي سبب وجيه لأعتقد أن الصور التي قمت بتشكيلها للأشخاص الذين التقيتهم وأنا أعمى ربما تكون خاطئة تمامًا. علاوة على ذلك، لن تُتاح لي الفرصة لتصحيح الصورة واكتشاف الحقيقة بنفسني. على كل حال فإن هذا الميل لتشكيل الصور في ذهني يتلاشى تدريجيًا.

إحدى نتائج عدم معرفة كيف تبدو أشكال الناس هي تضال عامل التوقع والحدس عند محاولة تكوين علاقة جديدة. عندما يُكوّن الشخص المبصر معارف جُدد، يكفيه النظر وحده لتكوين انطباعات معينة، وتهيئته لمقابلة نوع معين من الأشخاص. قد تخلق هذه المعرفة الجديدة صورة شخص حكيم، ودود، غريب، كريم، مرتبك، وما إلى ذلك. أما الأعمى فلا يعرف من سيلتقي. ذلك بالضرورة يلغي إمكانية أن تصبح الانطباعات الأولى سليمة، ولكنها في الحقيقة سليمة. الانطباعات الأولى التي تحصل للأعمى عند لقائه معرفة جديدة، تحصل من الصوت أو من لمسة اليد وما إلى ذلك، قد تكون مضللة بنفس القدر، إذا ما اتبع المرء منطقًا غريبًا يُعطي عليه أفضلية أن لا يعرف شيئًا عن أي شخص يلتقيه لأن ذلك مضلل، يمكننا أن نستنتج أننا سنكون بحال أفضل بدون أي توقع أو معلومات على الإطلاق. إننا باستمرار نُكوّن

فرضياتٍ عن المعارف الجُدد، ليس خلال اللحظات الأولى من اللقاء فقط، ولكن ذلك يستمر طوال سنوات تلك العلاقة. الأعمى ببساطة لديه معلومات أقل بكثير لتكوين مثل هذه الفرضيات. إحدى النتائج هي أن الشخص الأعمى يستغرق وقتًا أطول ليتعرف بشكل جيد على أحد ما. هذه هي تجربتي على أي حال، قد يكون أنني لست الأعمى والماهر في الوقت نفسه.

حقيقة أن الشخص الأعمى لديه بيانات أقل تقترح أن رأيه وفرضيته عن الشخص الجديد تحتل خطأ أكبر. بالرغم من افتقاده للانطباعات البصرية، إلا أنه عليه أن يتعامل مع الحقائق القليلة. سواء كانت انطباعاتي الأولى عن الناس أقل موثوقة الآن مما كنت عليه عندما كنت أبصر، لست متأكدًا. كثيرًا ما أقوم بمقابلة المرشحين للالتحاق بالجامعة مع واحدٍ أو اثنين من الزملاء. بعد المقابلة نقارن الملاحظات. أشعر بالارتياح وأتفاجأ قليلًا عندما أجد أن رأيي في المرشح لم يكن أقل دقة، أو كان يماثل آراء زملائي. يمكن أن يضيف المحاورون المبصرون تفاصيل معينة. يمكنهم ملاحظة ما إذا كان المرشح مخادعًا أو كان مظهره غير ملائم. دائمًا ما تكون هذه التفاصيل مُسقة مع الانطباعات الأخرى التي كوّنتها من الحديث فقط عن الشخصية.

خاصيةً أخرى غريبة تنشأ في عدم معرفة أشكال الناس هو تأثير ذلك على الكلام وطريقة تبليغه. عندما أَصِفُ لقاء مع شخصٍ ما، قد أرغب بقول: «لقد نظر إليّ نظرة فارغة». أشعر ببعض الحساسية تجاه هذا الأمر؛ لأنني لا أستطيع تصوّر أن الشخص المبصر الذي أتحدث إليه قد يعرف أنني ربما لا أستطيع معرفة كيف نظر إليّ صديقي. أن قول: «لقد رد بطريقة فارغة» قولٌ سخيّف ومتحدلق. أحاول أن أَصِفُ الوقفة التي لاحظتها قبل أن يجيب صديقي: «إحساسي بأنه تفاجأ وكان في حيرة من أمره لفترة وجيزة، لم يعرف ما الذي عليه قوله». أن هناك انقطاعاً قصيراً في المحادثة. قد أقول: «صمت قليلاً قبل الردّ وبدأ أنّه في حيرة من أمره» يبدو لي وضفاً مثاليّاً، ولكن استخدام المصطلحات المختصرة والمحددة التي تستخدم عادةً في وصف التبادل البصري تبدو لي طبيعية جدّاً ونابضة بالحياة. ما الذي عليّ أن أفعله؟

نتيجةً أخرى لكل هذا هي أن الوجه لم يُعدّ له مكانة رئيسية بالنسبة لي، مقارنةً بما يحتلّه في العلاقات الإنسانية العادية. الوجه مجرد مكان يخرج منه الصوت. أنظرُ إلى الوجه بجهدٍ واعي ولا يوجد سبب حقيقي يدفعني للقيام بذلك. في الغالب يمكنني معرفة متى ينظر الناس إليّ؛ لأن أصواتهم تبدو مختلفة

متى ما كان الحديث موجّه بشكل مباشر إليّ، وغالبًا ما أكون قادرًا على إلقاء نظرة على شخص ما في مجموعة عندما ينظر إليّ ويتحدّث. ومع ذلك، فأنا أفعل هذا فقط لمجرّد التأثير، لإظهار أنني أستمع. لم يعد لدي أي شعور طبيعي يُشغرنِي بحاجة توجيه وجهي للآخر. أحيانًا أطلب من أحد أصدقائي المبصرين أن يعطيني انطباعًا سريعًا عن شكل الشخص الآخر، يهتسي أن أتخيّل رسمًا تقريبيًا (سكيتش) لأي معرفة جديدة، خاصّة إذا كانت معرفتي الجديدة امرأة. ما لون شعرها؟ ماذا ترتدي؟ هل هي جميلة؟ في بعض الأوقات أتوق لمعرفة ذلك. ما زلتُ، بعد كل شيء، رجل نشأ في مجتمع معيّن وثقافة مُبصرة، مشروطة بتوقعات معيّنة من الذكور. ربّما عليّ أن أتغير، وأكون أقلّ تأثرًا في حكمي على النساء بذكوريتي المشروطة، لكن من الموحج أن يُفرض عليّ هذا التغير لمجرّد العمى.

يحدث فرق في الطريقة التي أشعر بها تجاه امرأة للتو ألتقيها إذا ما علّق زميلٌ على جمالها أو رزانتها. أعلم أن ثمة لاعقلايّة مزدوجة هنا. أولاً، لا ينبغي أن تعتمد مشاعري على مظهر المرأة. أعلم ذلك، وأعتذر عنه، لكن ما زلتُ أشعر به. الأمر الثاني، من المؤسف افتقادي للاستقلالية لدرجة تأثري بمعياري ليس ذا أهميّة بالنسبة لي.

ما الذي يهمني في حكم الرجال المبصرين على المرأة،
عندما يتعين عليّ، كرجلٍ أعمى، أن أحكمَ على المرأة بوسائل
مختلفة تمامًا؟ ومع ذلك، فأنا أهتم بما يراه المبصرون فيها، ولا
يبدو أنني قادر على التخلص من هذا التحيز.

الشيء الفاصل في أي معرفة جديدة هو جرسُ الصوت.
لازلت أتعلّم المزيد والمزيد عن القوة المذهلة للصوت البشري
في الكشف عن الشخص. في حالة الأشخاص الذين أعرفهم
جيدًا، أجد أن كل المشاعر التي يتم التعبير عنها عادةً في ملامح
الوجه موجودة في الصوت: التعب والقلق والإثارة المكبوتة وما
إلى ذلك. يبدو أن انطباعاتي القائمة على الصوت دقيقة، مثلها
مثل انطباعات المبصرين. لكن هناك عيب، على الشخص أن
يتكلم لأتمكّن من التواصل مع مشاعره. لو كنت مبصرًا، فإن
بإمكانني الوصول إلى خصوصيّة معيّنة، كنت سألتقط اتصالاً غير
مقصود من خلال التعبيرات الخاطفة للوجه، وخاصة الشفاه
والعينين. بصفتي أعمى، يمكنني الوصول إلى الفروق الدقيقة
غير المقصودة في الصوت، ويمكنني في الغالب سماع الكثير من
الأشياء التي قد لا يعرف المتحدث بوجودها، ولكنها دائمًا ما
تكون في سياق شيء كان مقصودًا في الحديث. لذلك فأنا أعتمد
على الأشخاص الآخرين والذين يكشفون لي عن أنفسهم.

إن قدرة الصوت على كشف الذات مذهشة حقًا. هل الصوت ذكي؟ هل هو مُلوّن؟ هل يوجد فيه ضوء وظل؟ هل فيه لحن، دعابة، رقة أو دقة؟ هل هو لطيف، ممتع أم متنوع؟ في المقابل هل الصوت كسول؟ هل يبدو مائقًا ولا مباليًا؟ هل يبدو خافتًا، رتيبًا ومُملًا؟ هل نطاق المفردات محدود ولا يستخدم بدقة وحساسية؟ هذه هي الأشياء التي تهمني الآن. على نحو متزايد، لم أعد أحاول تخيل شكل الناس. معرفتي بك تستند على ما مررنا به سوياً، وليس على ما تبدو عليه.

هناك مزيد من التطورات. أنا لا أعرف أو أهتم فقط بالشكل الذي تبدو عليه (على الرغم من أنه لا يزال لدي بعض الهواجس والشكوك في حالة المرأة)، لقد بدأت أفقد تصنيف الأشكال. أجد صعوبة متزايدة في إدراك أن الناس تشبه أي شيء، لأضع أي معنى يرتبط بمظهر الناس. في الأسابيع الأخيرة وجدت نفسي ممارساً لفكرة أن للناس مظهراً. أجرب ذلك بسرود الأنواع المختلفة للمظهر في ذهني، والتي قد تكون لدى شخص ما. هذا يختلف تمامًا عن الإسقاطات الحية والقهرية التي كانت لدي في فترة سابقة. أحاول الآن أن أذكر نفسي أن هناك شيئاً ما عن هذا الشخص، شيءٌ يعني الكثير أو القليل بالنسبة لي، وليس لدي وسيلة مُستقلة للوصول إليه، ومع ذلك فإنه شيء حقيقي

عن هذا الشخص مثل أي شيء آخر. هذا الشخص يبدو مثل شيء ما، ولديه ما يسمونه: «مظهر» من نوع ما.

٢٥ يونيو

عندما كنت في السابعة عشرة من عمري فقدت البصر في عيني اليسرى. أتذكر أنني كنت أحتق في كتفي الأيسر وأقول: «حسنًا، هذه هي المرة الأخيرة التي أراك فيها دون النظر في المرأة!». فقدان كتف شيء بحد ذاته، لكن فقدان المرء لوجهه يطرح مشكلة جديدة. وجدت أنني أحاول أن أتذكر صورًا قديمة لي، فقط لأتذكر كيف أبدو. صدمت عندما وجدت أنني لا أتذكرها. هل سأصبح في إطار فارغ على حائط معرض الصُّور الخاص بي؟

إلى أي مدى يرتبط فقدان صورة الوجه بفقدان صورة الذات؟ هل هذا هو أحد الأسباب التي تجعلني أشعر في كثير من الأحيان أنني لست أكثر من روح، شبح، ذكرى؟ أصبح أناس آخرون أصواتًا مُنسلخة من أجسادها، يتحدثون من اللامكان، يذهبون إلى اللامكان هل أصبحت الآن كذلك بعد أن فقدت جسدي؟

مررتُ بلحظاتٍ من تجربة سبق وأن نوقشت كثيراً منذ أن فقدت بصرَ عيني اليسرى في عامي السابع عشر أو الثامن عشر. حصل ذلك على شكل إدراك مفاجئ وواضح لوجود شيء ما على الجهة التي لا أراها، على بعد بضع بوصات من رأسي عند عبوري الطريق، ما جعلني أراجع بعيداً عن ذلك الشيء عن يساري مباشرة. عند إلقاء نظرة خاطفة، كانت هناك شاحنة متوقفة ومجموعة من السلالم تمتد من السقف، والتي لم ألاحظها. اكتشفت منذ ذلك أن هذه الظاهرة تسمى الآن: «موقع الصدى»^(١). بعد الأشهر القليلة الأولى من العمى الكامل أدركت ذلك. لم أكن على دراية بتجربة: «موقع الصدى» عندما كان بصري ضعيفاً. كنت ألاحظ أنه عند عودتي إلى المنزل وأنا أسير في الحرم الجامعي والمساء هادئ، يتتابني إحساسٌ بالحضور، إدراكٌ يتهني بوجود عائقٍ ما في الطريق. اكتشفت أنني إذا توقفت عند شعوري بهذا الإحساس، ولوحت بعصاي البيضاء، فستلمس جذع شجرة، لن تكون أبعد من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أقدام مني. هذا الإدراك، مهما كان، لا يبدو أنه يتعدى

(1) echo location

هذا النطاق، وفي بعض الأحيان تكون الشجرة على بُعد قدمين. من خلال الإحساس بهذه الأشجار، والتحقق من موقعها الدقيق بعصاي، أدركتُ تدريجياً أنني كنت أطوّر نوعاً غريباً من الاستشعار. كان بإمكانني حساب عدد هذه الأشجار التي أمرّ بها على طول الطريق المؤدي إلى بوابات الجامعة. لا يبدو أن ذلك يعمل على الأشياء النخيفة مثل أعمدة الإنارة. يجب أن يكون شيئاً أأخذ مثل جذع شجرة أو جسم بشري لأستطيع الإحساس به.

مع مرور الأشهر، يبدو أن حساسيتي تحسّنت. وجدتُ أنني في أوقاتٍ كثيرة أصبحت على درايةٍ من اقتراب عمود إنارة، صحيح أنني كنت أتوقّع واحداً، لكن ذلك يجعل الأمر أسهل. أمشي أحياناً بالقرب من أعمدة إنارة في مسارٍ جديدٍ كلياً. أشعرُ بموقع الصدى ولا يُخطئ، بمعنى أنني لا أتذكر أنني مررت بالتجربة من قبل ولم يكن هناك شيء ما. لسوء الحظ، لا تحدث التجربة نفسها دائماً؛ لذلك لا يُمكنني استخدامها إلا كنوعٍ من الضوء الأحمر. يجب عليّ أن أتوقّف متى ما أحسست بشيء ما، لكن انعدام إحساسي بشيء لا يعني بالضرورة أنه يُمكنني العبور.

أصبحت أكثر حساسيةً للأجسام الأنحف بمرور الوقت وزاد نطاق استشعاري للأشياء. عند عودتي إلى المنزل، كنتُ معتادًا على اكتشاف السيارات المتوقفة بلمسها فقط بالعصا. في هذه الأيام، لستُ بحاجة لللمس السيارات المتوقفة في طريقي. أدرك دائمًا أن هناك عقبة في طريقي دون أن تمسها عصاي. يحدث ذلك على الرغم أنني أحملُ الآن عصا طويلة جدًا. أعتقد أن نطاق اكتشافي للسيارات المتوقفة أصبح من ستة إلى ثمانية أقدام تقريبًا. ميزة أخرى لهذه التجربة، أنها تمنحني ما يشبه الحاسة الكليّة لما يحيطني. هناك جزءٌ من طريقي اعتدت على الابتعاد عنه لتجنب العبور من درجّات صاعدة فيه. أتوقع ذلك بالطبع لأنني أمرُّ من هناك كل يوم. مع ذلك، فأنا الآن على درايةٍ من طريقة التعامل مع هذه الحاسة، ليس فقط للدَرَجات السفلية التي أعرفها، ولكن كلّ الأجسام الكبيرة والبعيدة التي تلوح في الأفق. يبدو أن هذه الظاهرة تعتمد جزئيًا على الانتباه، حيث يمكنني المشي بسهولة في المنزل حتى حافة الأبواب، دون أن أشعر بتحذيرٍ يتبهنني بقربها مني. ربما أنّ الصوت يُكثّم في المنزل بالسّجاد والستائر، ما يجعل إدراك الصدى أكثر صعوبة؟

التجربة بحد ذاتها عجيبة للغاية، ولا يُمكنني مقارنتها بأي

شيء آخر عرفته على الإطلاق. إنها تشبه الشعور بضغط جسدي. يرغب المرء أن يمدّ يده ليحمي نفسه، يزداد التركيز، ينسحب المرء مما اقترب منه. يبدو أنها تتصف أيضًا بسكون مُعَيّن في الهواء المُحيط، حيث على المرء أن يستشعر حركة الهواء والرحابة المحيطة، بطريقة ما، عليه أن يشعر بالسكون، بالكثافة عوضًا عن الفراغ، بإحساس الصلابة الغامضة. من الصعب تحديد المصدر الدقيق للإحساس. يبدو أنه الرأس، ولكن غالبًا ما يمتد إلى الكتفين وحتى الذراعين. يزداد وعيي بالإحساس أكثر كلما كانت البيئة أقل تلوثًا بالصوت، وقت مسيري الهادئ في مساء متأخر إلى المنزل، أكون أكثر وعيًا به. في شارع مزدحم صاخب، تكون التجربة ملحوظة بشكل أقل، وإذا كنت أسير ومرفقي بمرفق شخص ما، لا يبدو أنني ألاحظ التجربة على الإطلاق. قد يكون من المحتمل أنني أغلق أنيًا يكون ذلك الشيء.

إنه نوع من نظام توجيه يتم تشغيله عند الضرورة القصوى، وعندما يكون هنا إيعاز من نوع ما، ولكن ليس من السهل دائمًا تمييزه عن تجارب أخرى. عندما أصل إلى نهاية مرتع سكني، أستطيع أن أميز ذلك. هل يحصل ذلك بسبب حركة الهواء، التسييم الذي يشعر به المرء في كثير من الأحيان في ركن المبنى

أم أن الأمر مجرد انعكاس للحضور؟ هل كنت على دراية بوجود الجدران والأسوار دون أدرك، وتفاعأت بشعور الغياب مجرد ما انتهت؟

في إحدى نزعات المشي، مررت بجانب سياج ارتفاعه خمسة أقدام مصنوع من قضبان معدنية عمودية، وينتهي، في نقطة معينة، بجدار صلب من الطوب. وجدت أنني إذا انتبهت سأستطيع معرفة متى انتهى السياج وبدأ الجدار. هناك، بطريقة ما، إحساسٌ بحضورٍ أكثر ضخامة. ألخص من كل هذا الحديث أن هذه التجربة صوتية في الأساس وتقوم على الوعي بالصدى. هذا بالتأكيد يلائم تجربتي، ولكن في نفس الوقت من المهم توضيح أن الأمر ليس متعلقًا بالاستماع. يدرك المرء ببساطة أنه أصبح مدركًا فقط. إنه شعورٌ بنوع من الضغط على جلد الوجه وليس على الأذنين أو داخلهما. قد يكون ذلك السبب في التسمية القديمة للتجربة وهي: «إبصار الوجه»⁽¹⁾.

١ سبتمبر

«حسنًا، سأراك في الجوار».

«من الجيد رؤيتك مرة أخرى».

(1) facial vision

«أرى ما تعنيه».

عندما استخدم تعبيرات مثل هذه، يتفاجأ بعض أصدقائي المبصرين. يضحكون، وربما يغيظونني ويقولون: «أنت لا تعني ذلك حقًا، أليس كذلك يا جون؟». أشرح لهم، عندما أقول إنني مسرورٌ برؤيتك، ما أعنيه هو أنني مسرور بلقائك، يسعدني أن أكون معك، ويسعدني أن أكون في حضرتك. ذلك بالتأكيد ما يقصده أي شخص، أعمى كان أم مبصرًا، بهذا التعبير. أشرح لهم، عندما أقول إنني أرى ما تعنيه، ما قصدته هو أنني أفهمك. كلماتك منطقية ومفهومة بالنسبة لي. هذا ما يقصده أي شخص بهذا التعبير؛ لأن المعنى بحد ذاته غير مرئي.

عندما تصبح أعمى، تدرك مدى اعتماد لغتنا على الصور المرسومة. من الطبيعي أيضًا أن يدرك المبصرون هذا الأمر عند حديثهم مع شخصٍ كفيف. «ما هي وجهة نظرك؟»، «هل لديك أية ملاحظات؟»، «أنا لا أفهم الطريقة التي تنظر بها إلى هذا»، «الآن انظر هنا يا صديقي!»، «لقد بحثت في كل مكان عن ذلك»، «سأرى ما إذا كان بإمكانني مساعدتك»، تعبيراتٌ مثل هذه، المواقف والنوايا، المطالب والمقاصد المرتبطة بالفهم والمعرفة يتم الإشارة إليها جميعًا بمجازاتٍ بصرية. هناك علاقة حميمة بين ما نراه وما نفهمه. العمى يشير إلى الجهل.

هل على المُعاقين أن يمتنعوا عن استخدام ذلك الجزء من اللغة الذي يتناول إعاقَتهم تناولًا مجازيًا؟ كم سيكون هذا سخيفًا. سيفرضُ إعاقةٌ لغويةٌ جديدةٌ على أناسٍ معاقين بالفعل. عندما يقول شخصٌ ما على كرسيٍّ متحرك أنه يفكر في الوقوف في البرلمان، لا ألفت الانتباه إلى الإعاقة حين أعلّق بظرافة: «تقصد أنك ستذهب على كرسيٍّ متحرك إلى البرلمان». إذا قالت إحدى صديقاتي أنها اصطدمت بكذا وكذا في أحد الأيام عند عبورها الشارع الرئيسي، فلا يجبُ عليّ، كقاعدة عامة، أن أهزأ وأسأل: «هل أصيب أحد؟».

صحيحٌ، مع ذلك، لعل هناك مشكلة حقيقية تكمن وراء هذا الإغاطة الحاصلة في التواصل بين المكفوفين وأصدقائهم المبصرين. الهيكل الكامل لمحادثاتنا اليومية العادية يفترضُ سلفًا وجود عالمٍ مبصر. يمكن ملاحظة ذلك بسهولة إذا قارنت محادثات الراديو مع تلك الموجودة على التلفزيون. لذلك عندما يلفت شخصٌ مُبصر الانتباه إلى غرابة استخدام المعجاز البصري من قِبَل شخصٍ أعمى، يكمن تحت ذلك تحوّل طفيف في طبيعة الاتصال الكامل بين المبصر والمكفوفين. هناك تقع لغةُ العمى.

هذا المساء، في حوالي الساعة التاسعة صباحًا، كنت أستعد لمغادرة المنزل. فتحت الباب الأمامي وكان المطر يتساقط. وقفت لبضع دقائق، مستغرقة في جماله. المطر وسيلة لإبراز ملامح الأشياء؛ يُلقي بغطاء مُلَوّن على الأشياء التي لم تكن مرتبة من قبل؛ عوضًا عن عالم متقطع ومُشَتّت، فإن المطر المتساقط المُطَرَّد يخلق ديمومةً للتجربة الصوتية. أسمعُ حسيّسَ المطر على السطح فوقِي، وهو يقطر على الجدران عن يميني ويساري، يتناثر من الميزاب صوب الأرض عن يساري، بينما يوجد قريبًا من ذلك شيء أكثر خِفّة حيث يسقط المطر بشكل غير مسموع تقريبًا على شجيرة مورقة كبيرة. عن يميني، يقرع المطر، بصوت أعمق وأكثر ثباتًا على مَهْدَة العشب. يمكنني حتى تحديد معالم العشب، حيث ينمو على تَلّة صغيرة. صوت المطر متنوع ويشكّل الانحناءات بالنسبة لي. على الجهة اليمنى أيضًا، أسمع صوت المطر يدق السياج الذي يفصل بيننا وبين جيراننا. أستطيع تحديد معالم مسار خطواتي أمامي وصولاً إلى بوابة الحديقة. هناك يسقطُ المطر على الخرسانة ويتناثر مكوّنًا بِرَكًا ضَحْلَة. هنا وهناك شلالات صغيرة حيث ينسكب الماء المتجمّع من درّجة إلى أخرى. يختلف صوتُ المطر على

المسار عن الصّوت الساقط على العشب عن يميني، وهذا يختلف مرّة أخرى عن الصوت المغطّي، الثقيل والمُبْتَلّ الساقط على الأجمّة الكبيرة على اليسار. علاوةً على ذلك، تُعتبر الأصوات أقلّ تفصيلاً. يمكنني سماع هطول المطر على الطريق، وهدير السيارات التي تمرّ أمامي وخلفي. يمكنني سماع اندفاع الماء في القنوات الصغيرة المغمورة على حوافّ الطريق. لكنّ المشهد بأكمله أكثر تمايزاً وتفصيلاً مما أستطيع وصفه؛ لأنه في كل ناحية توجد فواصل صغيرة من الأنماط والعوائق والمطبّات، وتُعطي هذه الانقطاعات الطفيفة أو الاختلافات في القوام والصّدى تفاصيلٍ إضافيةً وبُعداً أعمق للمشهد. بعد كل هذا، وكما يسقط الضوء في الطبيعة، كذلك هي الخلفية الجميلة لوقع المطر، تجتمع في جلجلةٍ واحدةٍ ومستمرّة.

أعتقد أن تجربة فتح الباب على حديقةٍ ممطرةٍ تُماثل تلك التي يشعر بها الشخص المبصر عند فتح الستائر ورؤية العالم في الخارج. عادةً، عندما أفتح الباب الأمامي، هناك أصوات متكرّرة ومتفرّقة تنتشر عبر العدم. أعلم أنّه عندما أقوم بالخطوة التالية سألقى المسار أمامي، وأنّ حذائي على اليمين سيقابل العشب، وإذا خطوت أكثر، ستلمس رأسي سعة الشجيرة

المتدلية عن يساري، وسأصل بعد ذلك إلى الدرجات، والبوابة
الأمامية، وممر المشاة، والقناة، والطريق. أعرف أن كل هذه
الأشياء موجودة، ولكنني أعرفها بالذاكرة. إنها أشياء لا تُقدّم
أي دليل فوري على وجودها، أعرفها فقط في هيئة تنبؤ، أشياء
سألقاها في الثواني القليلة القادمة. يقدّم المطر وفرة الموقف
بأكمله دفعةً واحدة، ليس بالتذكّر أو التوقع، ولكن بالواقع في
هذه اللحظة. يعطي المطر إحساسًا بالمنظور والعلاقات القائمة
بين جزء من العالم وآخر.

لو كان المطر يسقط داخل الغرفة فقط، فسيساعدني ذلك
على معرفة مكان وجود الأشياء في تلك الغرفة، وسيمنحني
إحساسًا بالتواجد في الغرفة، عوضًا عن مجرد الجلوس على
الكرسي.

إنها تجربة فائقة الجمال. أشعر كما لو أن العالم المحجوب
حتى ألمسه قد كشف نفسه لي فجأة. أشعر أن المطر مبارك،
وقد وهبني الهدية، هدية العالم أجمع. لم أعد منعزلًا، مشغولًا
بأفكاري وما الذي عليّ فعله بعد ذلك. عوضًا عن القلق بشأن
مكان وجود جسدي وما الذي سيلتقي به ويمسه، مُنحت هدية
كلية، عالمٌ يتحدث إلي.

هل فهمت لماذا هي فائقة الجمال؟ عندما يكون ما يجب معرفته في حدّ ذاته متنوعًا ومعقدًا ومنسجمًا، فإن معرفة ذلك الواقع يعكسُ في داخلي كلّ تلك الخصائص. يشتااق داخلي لشعورِ التنوّع والتعقيد والانسجام. المعرفة ذاتها جميلة؛ لأنها تخلق في داخلي مرآة لما يمكن معرفته. وأنا أستمع إلى المطر، أصبح صورة المطر، وأستحيل واحدًا معه.

١٦ سبتمبر

حلمت أننا كنّا على متن سفينة في المحيط. كنا نكافح من أجل النجاة في مؤخرة السفينة. كنت مع شخصٍ ما، لم أستطع تمييزه؛ ربما كانت مارلين. كنا نهرع ونصارع لإيجاد طريق عبر الحانات، وصالات المشروبات، وعلى امتداد معرّات صغيرة، صعودًا وهبوطًا على السلالم، مرورًا بكبائن النوم، حتى طلّعنا على السطح في آخر السفينة. كنّا هناك، في الهواء الطلق، نُشاهد محيطًا هائلًا يتنفخ ويتورّم. لم تكن هناك أمواج، بل انتفاخ يتزايد لكثّل وكثّل من الماء، والبحر، والسماء، والرياح. كانت السفينة تُزيد من سرعتها والجميع يهرع. بطريقة ما، انتقلت من السفينة ووجدت نفسي مع امرأتين على متن سفينة أخرى. لم أكن أعرف، أو لا أذكر المرأتين اللتين كانتا معي، لكننا كنا

ثلاثة. كانت السفينة الأخرى تفرق. أم أنها لا تزال نفس السفينة؟ فجأة أصبح السطح عمودياً وأصبحت السفينة تنزلق إلى أسفل. ثلاثة أرباع هيكل السفينة غرق تحت الماء. كنا نتشبث بالجزء العلوي منه. أما السفينة الأخرى فكانت تبتعد أكثر وأكثر. من الواضح حينها أن السبل تقطعت بنا وحدنا. بعد ذلك، شعرت بثقل السفينة الهائلة، المُشربة بالماء، ورأيتها تهبط تحت الماء، تضيع في أعماق خضراء قاتمة وعميقة، أخذت تزداد قتامة وبرودة وهدوء. لم تكن هناك عاصفة، لم يكن البحر هائجاً. كان هناك انتفاخٌ مترامي الأطراف، متجهّم، وسفينةٌ ثقيلةٌ تفرق. في كل مرة يحدث فيها انتفاخ كبير جديد في المحيط، تصبح السفينة أكثر تشبّعاً بالمياه، وأثقل قليلاً، وتستقر في قاع المحيط أكثر. حتى أصبح الانتفاخ على مستوى أعيننا إلى حد ما، وكان السؤال؛ في أي لحظة سيبتلعنا؟ يا له من شعور رهيب بالفزع واليأس.

كان ذهني مُنشغلاً بذلك الوزن الذي لا يُقاوم، الذي سحب كل شيء معه إلى الأسفل والأسفل، بينما كانت الحرية والنور وسرعة السفينة وكل شيء آخر ينحسر أكثر وأكثر. كانت الفجوة تتسع طوال الوقت ولا يمكن للمرء سوى النظر للبحر الأخضر

الصامت بينما الثقل يسحبنا إلى الأسفل. استيقظت وأنا أشعر
بالرعب وكأنني قد تلقيت نذير شؤم هدد كل حياتي.

السفينة التي ابتعدت بسرعة بضوئها هي عالم المبصرين.
كُنَّا أنا وعائلتي وأحبائي نشق طريقنا من أجل النجاة. كُنَّا عالقين
ومعزولين ومغمورين في الماء. بلا حيلة ولا يمكننا الجراك.
كُنْتُ أُجَرَّ وأُسْحَب إلى أسفل وأسفل، إلى شيء لا يمكن
تصوّره ولا يمكن التراجع عنه. كان العالم يختفي، وعالم آخر
يبتلعني مع من أحب. لم تكن هناك فرصة للعودة. العمى أبدي
ولا رجعة فيه. أعلم الآن أنّ أناي الحالمة، بعد كل شيء، لم
تنخدع وأن حياتي في أزمة.

في النفق

خريف ١٩٨٣

١٧ سبتمبر

في كل مرة أبتسمُ فيها تقريبًا، أعني ذلك. أنا على علمٍ
بالمجهود العضلي الذي أبدله. لا يعني ذلك أن ابتساماتي
أصبحت مُتكلّفة، كما لو كنت أُنظّاهر، لكن الأمر أصبح مجهودًا
إراديًا واعيًا إلى حدٍّ ما. لماذا يحصل ذلك؟ لا بد أن ذلك بسبب
انعدام التعزيز المُتبادل. بمعنى أنّه لا توجد ابتسامة عائدة إلَيَّ. لم
أعد أملك القدرة على الانبهار بابتسامة رائعة. لم أعد أجد وجه
شخصٍ غريب يعتريه الجمال والمودة فجأة، ولا يبدو أنني
أحصل على أي شيءٍ مقابل مجهودي. معظم الابتسامات مجرد
استجابة عفوية. أنت تبسم بشكلٍ عفوي عندما تتلقّى ابتسامة.
بالنسبة لي، الأمر أشبه بإرسال رسائلٍ مِتّة، هل يا ترى تم
استلامها أو الإقرار بها؟ هل كنت أبتسم في الاتجاه الصحيح؟

على أي حال، كيف يمكن لصديقي المبصر الإقرار بابتسامتي؟
يمكنك أن تبسم بصوتك، لكن عليك أن تجد شيئًا لتقوله.

يمكنني أن أشعر بنفسى عند التوقف عن الابتسام. حسنًا،
أعتقد أنني أستطيع أن أشعر بذلك. عليّ أن أسأل شخصًا قريبًا
مني ما إذا كان ذلك صحيحًا أم لا.

٢١ سبتمبر

بلغ توماس ثلاث سنوات من العمر قبل شهر، يعلم الآن أن
عليه أن يعاملني بشكل مختلف. منذ أن كان صغيرًا، قمت بتدريبه
على تعبير: «دَع بابا يرى». يعلم أن هذا لا يعني ما تعنيه: «أعطه
لبابا»، وهو ما يعني التخلي عن الشيء. على النقيض من ذلك،
فإن: «دَع بابا يرى» تعني: «ضع كل ما في يدك في يدي، واستعدده
بعد ذلك». منذ الأيام الأولى، قمت بتدريبه، حتى إذا نقرت برفق
على ظهر يده، فسيضع ما كان يمسكه في يدي على الفور،
وسأعيده بعد ذلك. إذا كان شيئًا ليس عليه أن يمسكه، فسأعيده
إليه أيضًا، فقط وبعد فاصل زمني سأقول له: «أعطه لبابا». فمنا
بعد ذلك باستخدام ذات المهارة على الكتب. كنت أقول له:
«هل هناك سيارة؟» لو أجاب بنعم، فسأقول: «دَع بابا يراها»،
فيأخذ إصبعي الممدودة، ويضعها على صورة السيارة.

في وقت مبكر جدًا، تعلم أيضًا نسخة أخرى للمهارة، حيث لا يكتفي بإصبعي فقط، ولكن يأخذ ذراعي بالكامل لإرشادي إلى شيء يريد. إذا أراد لعبة من رف عالٍ، أرفعه على ذراعي أو على كتفي. ثم يمسك بذراعي، مستخدمًا إياها كأداة، ويوجهها نحو اللعبة المرغوبة. هكذا كانت النسخة الجديدة.

تعلم أيضًا أن يقول: «انظر، يا أبي!»، ثم يأخذ بيدي أو إصبعي ويضعها على ما يريد مني معاينته. وهكذا فهم أنني أرى بأصابعي. يعرف توماس ما هي طريقة برايل⁽¹⁾. يعلم أن كتبي مكتوبة بطريقة برايل، وأن وجود علامة برايل هو علامة على أنه كتاب لي. لقد تعلم أن يكرّر بعدي: «لا يمكن لأبي قراءة هذا الكتاب؛ لأنه ليس مكتوبًا ببرائيل»، و«يمكن لأبي أن يقرأ هذا؛ لأنه مكتوب بطريقة برايل». وهو الآن يُدلي بهذه الملاحظات حول الكتب بشكل عفوي.

منذ عدة أشهر، أشار إلى أحد كتبه، وقال: «لا يمكن لأبي قراءة هذا»، ثم أشار إلى ملصق برايل في كتاب مصوّر وقال: «توماس لا يستطيع قراءة ذاك».

في وقت سابق من الصيف، سألتني: «أبي، هل أتيت هكذا؟»،

(1) Braille

كان ينكز بإصبعه في الهواء يمينًا ويسارًا. سألته ما الذي تقصده:
«هل أتيت هكذا؟» أجابك «بعصاك؟» أدركت لحظتها أنه كان
ينكز بإصبعه واصفًا حركات عصاي البيضاء.

لست متأكدًا ما إذا كان سؤاله وسلوكه مرتبطًا ببصري، أم
كان سؤالٌ مُجرّد من طفلٍ لأبيه. عندما كان صغيرًا وقبل أن يبلغ
عامه الأول، كان يجلس على كرسيه المرتفع، ويُظهر وجوها
مرحة ومضحكة للجالسين، واحدًا تلو الآخر وهكذا، كان ينتقل
من شخصٍ لآخر ليرى تأثير حركاته. أخبرتني مارلين أنه كان
ينظر إليّ بوجهه المضحك، وبعد بضع ثوانٍ يتعد ببساطة عني.
هل استنتج من هذه التجربة أن سبب عدم تأثير وجهه المضحك
عليّ هو أنني لم أستطع رؤيته؟ أشك في هذا كثيرًا. تقول لي
مارلين إنه حتى اليوم، وفي سياق الحياة الأسرية العادية، يوجه
إليّ ذات النظرات والملامح والابتسامات التي يوجهها لأي
شخص آخر. من ناحيةٍ أخرى، فإن البالغ المُبصر يفعل ذلك معي
أيضًا. لا يتحوّل وجهُ المرء إلى وجهٍ كتوم في محادثة مع شخص
أعمى لمجرّد أنه لا يستطيع رؤيته. لا يتوقّف عن الابتسام
لشخصٍ أعمى لمجرّد أنه لا يستطيع رؤية ابتسامته. الابتسامة
تُشعّر المرء بالرضا.

حتى لو أدرك توماس أنني لا أستطيع رؤية حركاته المضحكة، فلست متأكدًا من أنه سيعتّم ذلك. يعلم أنني لا أستطيع قراءة كتبه، ولا أستطيع رؤية الصور، ولا أستطيع تركيب أحجية قطع الصورة، لكن هل يعلم أنني لا أستطيع رؤيته؟

منذ أن كان طفلاً صغيراً، قبل أن يتمكن من المشي بوقت طويل، كان يلتقط الأشياء من أجلي. عندما كان على حجري، وإذا أسقطت شيئاً ما؛ كنت أنزله على السجادة ليلتقطه، يزحف إليه إذا لزم الأمر، ويعيده إلي. لا يزال يفعل هذا. أقول: «أين جواربك؟»؛ فيمزرها لي، على الرغم أنها كانت تبعد عني ست بوصات فقط. من ناحية أخرى، عندما أسافر معه في السيارة، يصرخ: «انظر يا أبي!» مشيراً إلى شيء خارج السيارة. عليّ أن أحاول تذكيره أنه لا يستطيع أن يُريني شيئاً خارج السيارة.

٢٥ سبتمبر

كم هو غريب أن يستوعب المبصرون أن استخدامي للعصا امتداد لإدراكي! ليس من السهل عليهم إدراك ما تتضمنه حقيقة أن إدراك الأعمى للعالم محصورٌ فيما يتناوله جسده، وفي الامتداد الذي يمكن لجسده أن يضيفه، مثل العصا. يتضح من هذا، كما أعتقد، الصعوبة الكبيرة التي يواجهها معظم المبصرين

عند مساعدة شخصٍ أعمى تائه على تعديل اتجاهه. عادةً ما تكون علامات ودلالات المكان التي يقدمها المبصرون عامة جدًا، أو تفترض مسبقًا أن الشخصَ الأعمى لديه معرفة أكبر ببيئته مما قد يكون لديه بالفعل.

من السهل والطبعي أن يفترض الناس أن رأسك هو ما تستخدمه للنظر. إذا قابلت مخلوقًا من المريخ، فلن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً لتكتشف أنه كان يراك بمجساتٍ معينة، كانت موجهةً تجاهك، أو أنه كان يراك من خلال مؤخرته، والتي كانت دائمًا تلاحقك أينما تحركت. عندما يقترب المبصرون من شخصٍ أعمى، تبدأ توقعاتهم بأنهم يتعاملون مع مخلوقٍ يشبههم، ويصعب عليهم استيعاب ما تعنيه حقيقة أن هذا الشخص في الواقع: «بري» من خلال عصاه البيضاء. أحيانًا، عندما يقودني شخصٌ مبصر، يأخذني من ذراعي ويرفعه فلا تصلُ عصاي إلى الأرض تمامًا. تمكّنت من تجنّب هذه المشكلة باستخدام عصا أطول. من الشائع أيضًا، أن يرشدني الناس بإمساك العصا نفسها، والإشارة بها إلى الأشياء، والنقر بها هنا هناك.

يميل الناس إلى استخدام عصاي وكأنها سيكين عند الاقتراب من الدرج وتوجيهي. أشيرُ إليهم بلطفٍ، أنه ما لم أكن أحمل العصا بنفسِي، فلا يمكنني أن أتلقّى منها المعلومات التي

أحتاجها. «من فضلك أترك العصا»، وأضيف: «فقط دعني أمسك بذراعك».

من الطبيعي أن ينظرَ الناس لعصاي البيضاء، ويعتبرونها عكاز مشي. يُنظر إليها باعتبارها شيء يُستخدم للدعم والمساعدة. لا يُنظر إليها باعتبارها أداة للإدراك الحسي، أو طريقة لجمع المعلومات عن العالم.

٢٦ سبتمبر

الليلة الماضية، في طريق عودتي إلى المنزل، كنت قد غادرت لتوي بوابات الجامعة وعلى وشك الالتفاف عند الزاوية إلى طريق بريستول، عندما خاطبني رجلٌ يتحدث بلهجة شرق أوسطية.

قال: «توقف، هناك سيارة على الرصيف».

قلت: «شكرًا، هل هي متوقفة هناك؟».

أجاب: «لا، لا، هناك حادث وأخي مُصاب في سيارته».

سألته: «وَأنت، هل تأذيت؟».

قال: «لا، لم يحدث هذا الشيء لي أبدًا؛ لأنني دائمًا أعنتني بأشخاصٍ مثلك».

«حسنًا، هل إصابة أخيك شديدة؟».

«لا، سيكون بخير، اسمح لي أن آخذك عبر الطريق».

«متى حصل هذا؟».

«للتو، قبل لحظات. أشكر الله أنني بخير، وأن الأمر ليس أسوأ مما هو عليه، الآن يمكنني أن أراك تعبر الطريق».

لم يأخذني إلى إشارة المشاة فحسب، بل أصرّ على مرافقتي بكل عناية ورفق عبر الطريق إلى الرصيف المُقابل، أوصلني حتى السياج المعدني في الجهة الأخرى، تمنّى لي حظًا سعيدًا ودعا لي. عاد بعد ذلك لينضمّ إلى أخيه المُصاب في السيارة التي اعتلت الرصيف.

يبدو أنه رَحّب بوصولي عند الزاوية في تلك اللحظة بالذات، اعتبرها إشارة من السماء. كانت تحذيرًا بالنسبة له. هذه الأشياء لم تحدث له قط لأنه دائمًا ما يعتني بأمثالي. كنتُ إشارة العناية الإلهية التي تجسّدت في ضميره. ظهر فجأة عند الزاوية، بينما كانت سيارة أخيه تعتلي الرصيف.

٦ أكتوبر

حلمت أنني كنت في بيتٍ ديني، أشبه بمكان اعتكاف رוחي

في أعالي الجبال. نوافذٌ كبيرة مفتوحة على شلالاتٍ عديدة وبحارٍ وأنهار. صعدنا إلى مكانٍ أكثر ارتفاعاً، مكان علوي من البيت، فيه معبد شاهق يملؤه الوفار. تم تصميمه بشكلٍ جميل، مجهزٌ بآماكن للدراسة، وغرف صغيرة للاجتماعات والمناقشة، كان للمعبد نافذة زجاجية عريضة تشرف على شلالٍ مهيب. كان حصناً عاليًا يطلُّ على كل شيء. عند النظر بعيداً، يمكن للمرء أن يرى ضفةً بحرٍ عالية تنهال منها مياهٌ بيّنة مُحمرّة، كما لو أن فيضاً ناخلاً بالطمى. على الرّغم من أن المياه كانت تنهال بانديفاع هائل، إلا أنها لم تكن تهديداً، بل بدت جميلة ورائعة. الحركة المتناغمة والسلسة لما يحيط بالمكان تبعث على الطمأنينة والوقار، والمكان مليء بجو الصفاء وطقس العبادة. ناقشت أنا ومارلين إمكانيّة قضاء وقتٍ أطول هناك، أو حتى العيش هناك. ذهبنا في نزهة بجانب البحر. كانت الأمواج البنية الهائلة تسقط في خندقٍ تم حفره بجانب جدار البحر، على طول الممشى. على الرّغم من أن الأمواج العاتية كانت تدكّ الخندق وتتجاوزته، إلا أنها تتكسّر وتنفرد عائداً إلى الحفرة العميقة. كان بالإمكان الاقتراب من حافة الأمواج العارمة المتساقطة دون الشعور بالخطر.

أجواء هذا الحلم كانت مفعمةً بالسلام والانتعاش. استيقظت

وكأنني تلقيت وحيًا، كنت أشعرُ بحضورِ بيعث الزّوعة في النفس. هل أفسدَ هذا الحلم شؤمَ السفينة الغارقة في الحلم السابق؟ هناك، كانت المياه متجهمة وثقيلة. هنا، وعلى الرغم من أنها ليست أقل قوة، إلا أن لها حركة وطاقمة متناغمة ومُحكّمة. كنتُ مغمورًا في حلم، وفي الحلم الآخر كنتُ أسمو وأنجدد. أشعر أن هذه أحلام كبيرة.

٢٧ أكتوبر

لا أشعر براحة البال منذ أن شردت في حلم يقظة، كنت عائدًا فيه إلى المنزل ذات يوم، لأجد توماس مُلقعًا ومكفّنًا في سحابة داكنة السّواد، تُحيط به من كل ناحية، وكأنّه عمودٌ مُسَخَّم بالدخان.

أيّما ذهب، ذهب مع هذه السحابة. كان يتنقل في أرجاء المنزل كما لو أنّه ذلك العمود الصّغير من الدّخان. كنت أسمع صوته، وعندما أضعُ يدي في السحابة، أستطيع تحسّس وجهه وجسده وشعره، إنّهُ بخير هناك. أستطيع تحسّس سُترته ومعرفة ما يرتدي. عندما أسحبُ يدي، يختفي توماس ولا أستطيع لمسه، لكنّ يمكنني سماع صوته وصوت كل ما يفعله.

رأيت بعد ذلك ليزي في سحابة هي الأخرى. بدت وكأنّها

عمودٌ أصغر من الدخان. عندما تجلس مع أخيها، يندمجان في سحابةٍ وبقعة سوداء واحدة. أستطيع سماع حركة وصلصلة الألعاب التي يلعبان بها، ولكن لكي أقول ما يفعلانه حقًا، كان عليّ أن أمدّ يدي إلى السواد. رأيتني أيضًا أنفخ في السحابة، وأحاول نفثها بعيدًا، لكن لا شيء يتغير.

عادت مارلين إلى المنزل في وقتٍ لاحق من اليوم، وكانت مُحاطةً أيضًا بسحابة سوداء. شعرتُ بالفرح لحظتها، وتوجب عليّ الوصول بيدي إلى السحابة لمعرفة ما إذا كانت قد صفقت شعرها، أو ارتدت أقراطها. يصلُّ الأصدقاء بعد ذلك، لاكتشف أن بإمكانهم الرؤية من خلال هذه الغيوم السوداء. الغيوم السوداء كانت بداخلي. لم يكن الأطفال من تلقفتهم لعنةً غامضة، ولكن كنت أنا.

رأيتني أعود من العمل إلى المنزل في مساءٍ متأخر، لأجده بأكمله محاطًا بسحابة سوداء. دخلت من الباب. مخضٌ سواد دامس بالداخل، لا شيء يمكن أن يبدده. سواء كانت الأنوار مُضاءةً أو مُطفأة، كل شيء هناك غارقٌ في الظلمة، ولكن لي فقط، وليس لأي شخصٍ آخر. في اليوم التالي، غمّرت السحابة العالم بأسره.

هذا الخيال يكذّرني. كنت أعتقد أنني لستُ بأعمى، وإنما مبصر لا يستطيع الرؤية. أدركت بعد ذلك أن العمى في داخلي وأن السحابة السوداء في ذهني، تحاصر وعيي.

٢٢ نوفمبر

كنت أنا وتوماس نلعب بسلحفاة بلاستيكية صغيرة، قُطرها حوالي ثلاث بوصات. أمسكَ بها وجعلها تنزلق خلف نظارتي، غطى عيني اليسرى وقال مازحاً: «الآن أبي لا يستطيع الرؤية بتلك العين. يمكن لأبي أن يرى فقط بتلك العين» مشيراً إلى العين اليمنى. ثم أزال السلحفاة من عيني اليسرى، ضحك وقال: «الآن يستطيع أبي أن يرى مرةً أخرى».

في جميع علاقاتنا البشرية، هناك افتراضٌ طبيعي بالمعاملة بالمثل. أنا أتحدّث وأتوقّع منك أن تتحدّث. أمُدّ يدي وأتوقع منك أن تمدّ يدك. أبتسم، وأتوقّع منك أن تعيد ابتسامتي. كذلك الحال مع النظر. أنظرُ إليك، أتوقع منك أن تنظر إليّ.

طالما لاحظت مارلين أنني أميل إلى اللعب مع الأطفال في غرفةٍ مظلمة متناسياً إضاءة الأنوار. غالباً ما يدهشنا حقيقة أن الأطفال يتقبّلون هذا دون أي تعليق، كما لو أنّه أمرٌ طبيعيّ تماماً. ليلة الاثنين الماضي، اصطحبت توماس إلى غرفة دراستي في

الطابق العلوي للاستماع إلى شريط كاسيت. دخلنا الغرفة وأغلقت الباب. كانت الستائر مسحوبة، وكانت، على أي حال، ليلة مظلمة في الخارج. جلس على حجري دون تعليق وأخرجنا الأشرطة، وضعتُ شريطاً أو اثنين على الطاولة لتحديد المقطع الذي أريده. بعد أن عثرت عليه، اقترحت على توماس أن يجد الصور المطابقة في الكتاب المصاحب للكاسيت. نزل من حجري وتوجه نحو رف الكتب، ثم تردد، وتوجه نحو مفتاح الضوء عند الباب، قائلاً: «توماس يريد الضوء. لا يستطيع توماس الرؤية بدون الضوء».

خطر في بالي عندها، أن توماس يعتقد أنني أستطيع رؤيته في الظلام. هو لا يستطيع الرؤية بدون الأضواء، بينما أنا أستطيع أن أرى سواء كان المكان مضيئاً أو مُظلمًا.

لا أفترض أنه كَوّن بالفعل هذه الفكرة في ذهنه كجملة، أن بإمكانني الرؤية في الظلام، ولكن قد يكون الاعتقاد المُسلم به، باعتبار سلوكه معي. فهو، بعد كل شيء، معتادٌ على فكرة أن البالغين يمكنهم القيام بأشياء لا يستطيع القيام بها. أنا، كأب، يمكنني رفع أشياء ثقيلة جدًا بالنسبة له، بالتالي يبدو من الطبيعي أن أتمكن من الرؤية في ظروف لا يستطيع فيها الرؤية. بعد كل شيء، يمكن القول إنني أنصَرَف تمامًا كما لو أنني حقًا أستطيع

أن أرى في الظلام. لا أطلب أبدًا إضاءة الغرفة، ولا أنزعج أبدًا
ما إذا كان المكان مضاءً أم لا.

كيف إذن يُفسر توماس علاقته معي؟ إنه يفترض المعاملة
بالمثل. كما هو بالنسبة لي، أنا كذلك. كما أنه يفترض دائمًا
تفوقي. أي شيء يمكنه القيام به يمكنني القيام به بشكل أفضل.
يبدو أن إيموجين، التي تبلغ من العمر حوالي عشر سنوات
ونصف، قد نسيّت أنني فقدت البصر مؤخرًا. أشارت إلى حقيقة
أنني كنت مُبصرًا عندما كنت طفلًا صغيرًا. بدت متفاجئة عندما
ضحكنا أنا ومارلين وصطحنا معلومتها. ذكّرتها مارلين أنني
كنت مُبصرًا عندما كنت رجلًا بالغًا كذلك. قبل أيام قليلة فقط
كنت أنا وإيموجين نسترجع ذكريات عن شيء قمنا به معًا،
تضمن بوضوح قدرتي على الرؤية.

٣٠ نوفمبر

حلمت أنني عضو في أوركسترا صغيرة. كنت أعزف بآلة
الريكورد^(١). كنا على وشك العزف، ربما للتمرن، أو لأداء

(١) الريكورد recorder آلة موسيقية شبيهة بالناي أو المزمار الشرقي،
ولكن لها سلّم موسيقي مختلف.

أغنية عيد الميلاد، أمزوجة أو ترنيمة من تأليف سيمون راتل^(١)، قائد أوركسترا مدينة برمنغهام السيمفونية. كنا جميعًا على خشبة المسرح والآلات الموسيقية أمامنا. كنت في حالة رهبة؛ لأنني لم أستطع قراءة النوتة. كنتُ أعمى. لم يكن لدي أي فكرة عما يجب أن أعزفه. كان هناك جزء مخصص للعزف الفردي للريكوردر، ما جعلني في غاية التوتر بشأن ما يمكن أن أفعله عندما يحين وقت هذا الجزء من المقطوعة. قررت إخبار شخص آخر في الأوركسترا عن مشكلتي. ما أن بدأنا للتو في مناقشة ما سأفعله، وما إذا كنت سأتمكن من التحايل على المشكلة، حتى انتهى الحلم.

التناقضات في هذا الحلم ملحوظة للغاية. على الرغم من أنني لم أستطع عزف أي موسيقى على الإطلاق، إلا أن انطباعًا بصريًا مميزًا للغاية كان لدي، عن نسخة مكتوبة بخط اليد من الكلمات والأغاني التي كان على شخص ما أن يغنيها. تمكنت حتى من قراءة بعض الكلمات. كان الحلم بحد ذاته بصريًا للغاية. حلمت حلمًا آخر في وقت لاحق من ذات الليلة، كنت أقوم فيه بتجهيز توماس للنزهة. كنت أمشط شعره، ورأيت ملامحه بمنتهى الوضوح.

(1) Simon Rattle

على الرغم من تناقضاته، فإن الحلم الموسيقى يمثل خطوة مهمة. للمرة الأولى، أكون في موقفٍ وأدرك أن العمى هو سبب الأزمة. في الحلم، كنت أعلم أن الحرج وقع بسبب العمى. لقد كانت حالة اجتماعية، كانت مسألة كفاءة وأهلية، كان خوفاً من الشعور بالخزي أمام الجميع وخذلان الأصدقاء، كان لدي شعورٌ مروعٌ ورهيب بالعجز. هل هذا حلم جنسي^(١)؟

دعونا نُفَرِّق بين الطريقة التي يؤثر بها العمى على عملية الحلم، والطريقة التي يؤثر بها على محتويات الحلم. بالإشارة إلى العملية، كيف يمكن للمرء أن يحلم بأشخاص لا توجد لهم صورة بصرية في ذهنه؟ هل يستمر المرء في رؤية أحلام ملونة؟ كيف يحلم المرء بآماكن عندما لا توجد صورٌ تحدّد هيئة تلك الأماكن؟ أمّا محتويات الحلم فأقصد بها: الطريقة التي تتعرّف بها الفضة الفعلية للحلم على العمى، ما إذا كنت أواجه مشاكل العمى في الحلم، أو أعرف نفسي كأعمى أو أفعل أشياء يمكن للشخص الأعمى فقط أن يفعلها، مثل وضع يدي على رأس شخصٍ ما لمعرفة طوله.

(١) حلمٌ قضيبى phallic dream هي الترجمة الحرفية. إشارة إلى العجز وفقدان السلطة، وهو المعنى التي قد تُفسّر به الأحلام الجنسية الذكورية.

حلمت أنني كنتُ في مكتبة عامة، ربما في ملبورن. كنت أعمى لأنني كنت أعاني من مشاكل كثيرة في فرز كتيبي، وكان أمين المكتبة يساعطني. ظهر رجلٌ أعمى آخر. استطعت أن أقول إنه أعمى لأنه كان يحملُ كراتين متراصّة لما يبدو أنها كتبٌ على أشرطة مسموعة. كانت الكراتين على صينية خشبيّة كبيرة، وبما أن كلتا يديه كانتا تمسكان الصينيّة، فقد شقَّ طريقه بصعوبة بين المكاتب والطاولات، كان يرتطم ويتقل من شخصٍ لآخر، في طريقه إلى مكتبه. بقيت الكتب ثابتة وواضحة من فوق الصينية، مغلفة بورق كرتوني مقوّى. ربّما كانت أشرطة بكرّة كبيرة الحجم. كانت كعوب الأغلفة الأصلية للكتب مقصوصة وملصقة على أغلفة الأشرطة من الخارج، بحيث بدّت تمامًا مثل الكتب الفعلية. كانت ملوّنة بشكلٍ مبهج، باللون الأزرق، والأخضر، والأصفر، والأحمر. شعرت بالبهجة لوجود عددٍ كبيرٍ من الكتب المرجعية، بما في ذلك قاموس أوكسفورد المختصر، ومجلّد، أو مجلدين آخرين من هذا القبيل. تساءلت ما إذا كان سيسمح لي بنسخ أشرطةه، حتى أتمكن من استخدامها. في تلك الأثناء، وجدت طريقي إلى مكتبي، وقمت ببعض الأعمال المتعلقة بأدب الأطفال.

إستعرضتُ عددًا من كتب الأطفال، ثم جلست لمراجعة دراسة نقدية. انتهيت من الفصل الأول بشيء من الصعوبة؛ لأنني كنت أعمى. لم أكن أستخدم أية أدوات مساعدة أو مُعينات بصرية، مع ذلك، صُوِّرَ مشهد المكتبة بأكمله من حولي بوضوح.

هل يمكن أنني كنت ذلك الأعمى بأشرطته؟ مع ذلك، أنا أيضًا، قارئ أعمى آخر، يراقبه.

٦ يناير

أول تجربة هَلَعٍ ودُعُرٍ مررت بها وكانت مرتبطة بالعمى، حصلت في منتصف ديسمبر ١٩٨١. كنت على وشك مغادرة برمنغهام للدراسة لمدة أسبوعين في كامبريدج، وكانت ظهيرة شتاءٍ قارس البرودة، ومن المتوقع تساقط الثلوج. وجدت أنه من الأفضل أن أخرج من المنزل وأمضي في طريقي قبل نزول الثلج. كانت الثلوج قادمةً من الغرب، وبقليلٍ من الحظ، قد أصل إلى كامبريدج قبل ذلك.

غادرت المنزل، لكنني لم أنخط سوى مئة ياردة عندما أحسستُ بشعورٍ متزايدٍ من القلق. أصبحت مدركًا تمامًا لحقيقة أنني أسير في العدم. لقد كان شيئًا مثيرًا للاهتمام، كان عديمًا باردًا. شَقَقْتُ طريقي على طول الأسوار، أردت أن أخلع قفازي

حتى أتمكن من الشعور بها بشكل أفضل، لكنني تراجعت
لمعرفتي أنها ستكون باردة جدًا. أخذَ الشعور بأنني ذاهبٌ
صوبَ العدم يزداد في داخلي. كنت وحدي، أدخل نفقًا مظلمًا
قارسَ البرودة ولا ينتهي. علمت أنه بمجرد دخولي فلن أتمكن
من العودة، سأصبح تائها. إعتراني شعورٌ بالهلاك الوشيك. في
لحظةٍ ما، كنت بالقرب من إشارة مرور المشاة، ولا بُدَّ لي من
عبور الطريق. اتكأت للحظةٍ على السياج الحديدي بجوار ممر
المشاة. كان كل شيء ساكنًا. غالبتُ شعورَ الخوف، لكنني لم
أستطع الاستمرار.

استدرتُ وعدتُ أدراجي إلى المنزل، محاولًا أن لا
أركض، عارفاً أنني لا أستطيع الركض. عند عودتي إلى المنزل،
أخبرت مارلين أنني شعرت بتوَعَك، وأنني سأستلقي قليلًا.
حاولت مرةً أخرى في وقتٍ لاحقٍ المغادرة إلى كامبريدج،
ونجحت في ذلك.

اعتدت على إحساس الهلع والذعر لشهورٍ في عام ١٩٨٢،
عندما كنت أستحمّ بحمامات زيتٍ دافئة. كل مرة كان يعتريني
شعورٌ بأنني مُحاصر، وأنني لا شيء غير جسدٍ يطفو في الفضاء.
كان من المفترض أن يستمرّ الحمام لعشرين دقيقة، لكن ذلك
كان يتطلب جهدًا رهيبًا وإرادةً قويّة. كنتُ أعُدُّ في داخلي

الثواني، ثم الدقائق، ولا أسمح ليدي الوصول إلى الساعة الناطقة حتى أعلم أنني قضيت على الأقل نصف الوقت المطلوب. كانت الدقائق الخمس الأخيرة دائماً الأسوأ.

النوع الثالث من تجارب الذعر والتي عانيت منه في الأشهر الأخيرة كان مرتبطاً بضيق التنفس الناتج عن الربو. هذا أمر نادر، ولكنه مخيف إلى حد ما. قبل عيد الميلاد بيوم أو يومين، كنت أعاني من ضيق في التنفس لمدة ساعة أو نحو ذلك أثناء المساء. صعدت إلى الطابق العلوي حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً وهذا ما أصابني بصفير خفيف وأزيز في صدري. عند وصولي إلى غرفة النوم، جلست على حافة السرير. أحسست فجأة يدي وجهتي وجسدي كله يتصبّب عرقاً. أحسستُ بأنني مُحاصر، وأتني في أمس الحاجة للخروج. كان عليّ أن أخرج. شعرت وكأنني أضربُ برأسي وجسدي كله بجدار العمى. عليّ أن أفلت من هذا الستار الأسود، هذا الحجاب الداكن الذي أحاط بي. في مكان ما، هناك، ثمة عالم من النور، عليّ أن أخرج إليه. في نفس الوقت، إعتراني شعور بالحق والغضب. كيف حصل هذا لي؟ كيف يُعقل أن يحصل؟ من له الحق أن يطلب مني العبور بهكذا تجربة؟ من له الحق في حرمانني من رؤية أطفالي في عيد الميلاد؟

كنت مُنفصِّمًا عن العالم الخارجي. الشيء الوحيد الحقيقي كان جسدي القابع على حافة السرير. من المفترض أن يكون هناك منزل في مكان ما. أعلم ذلك، إذا ما قمت بتحريك جسدي، فسوف أشعر بأجزاء ذلك المنزل، شيئًا فشيئًا، وأنا أتحرك في أرجائه. سيكون هناك زوايا وجدران وورق حائط وأسطح، لكن لا شيء من ذلك هنا الآن. كل الأشخاص في المنزل، والثروة، وصوت البيانو الذي يُعزَف في الطابق السفلي، كل شيء يطفو كما لو كان قادمًا من عالم آخر، كوكب آخر. كنت هناك فقط. كنت حقيقيًا، لكن كل ما حولي يُجَرَف بعيدًا.

الصعوبة التي كنت أعانيها في التنفس بسبب الربو، جعلتني أشعر وكأنني كنت أتعرَّض لهجوم ما، كنت أختنق، أختنق بالسواد. كنت في صندوقٍ ساخنٍ مُظلم، لم يكن فيه ضوء أو هواء. كل ذلك زاد من رغبتني في الخروج والابتعاد من هذا المكان الضيق الصغير.

هناك صورةٌ مُلازمة ظَلَّت تلاحقني وتضايقني خلال الأشهر والسنوات الأولى من العمى. عادت الآن بشدة وأشعر أنها ترهقني. أجد نفسي في عربةٍ فخمةٍ صغيرة تتصلُّ بعرباتٍ أخرى في نفقٍ منجمٍ محفورٍ في جانب التلّ. كنت أندحرج

بالعربة عميقًا نحو سفح التلّ. كلما نظرت إلى الوراء، استطعت رؤية الضوء، رؤية مدخل النفق. كان هناك نافذة ضوء مستديرة كذلك في نهاية النفق. كنا نتدحرج إلى العمق في جوف الجبل حتى وصلنا سطحًا مستويًا، لم نعد نزل بعده إلى الأسفل وإنما ننسحب أبعد وأبعد، وتصبح دائرة الضوء الصغيرة أصغر وأصغر. كنت أقول في نفسي: أعلم أن من يقود قطار العربات سيتوقف قريبًا. لا يمكن له أن يستمرّ على هذا المنوال. لا بُدّ وأن تتباطأ العربات في أي لحظة وتتوقف وربما تعكس مسارها. ستسبح بثر الضوء الصغيرة في النهاية. لكن لا، لا شيء يحدث من هذا. هل فقدنا السيطرة؟ هل يوجد أحد يقود القطار؟ ألا يوجد أحد يمكنه إيقافنا؟ عليّ أن أخرج. لا بد لي من القفز. لا بدّ أن أركض للخلف. كل ذلك لم يكن ممكنًا. وظلّت العربات الصغيرة تحملني معها بلا شفقة، أعمق وأعمق. الآن أشعرُ بثقل الجبال فوق رأسي. جبال تُخفي الضوء والنهار والهواء. مازلت أتدحرج أعمق وأعمق في هذا الثقل، في هذه الصلابة. ليس هناك ثقب إبري من نور يأخذ بيدي. أعلم الآن أن جبلًا صخريًا يحول بيني وبين العالم، كتلة وستارة دخانية لا يمكن اختراقها، ثقيلة وساخنة مثل الصخرة ذاتها. أنا محاصر في مكانٍ مخبأ لا يُطاق.

تختفي نوبات الهلع والدُّعْر في غضون بضعة دقائق،
بالتنفس الثابت والمنتظم وبإمساك شيءٍ صغيرٍ في يدي. أظنّ
بعد ذلك على حافة البكاء مرتعشًا.

ما وراء النور والظلام

شتاء ١٩٨٣

٧ يناير

تعلّم في وقتٍ مبكر من الطفولة ربط رغباتنا بالصّور المرئية للأشياء التي تليها وتبعث على الرضى. يصعب التمييز بين الشعور بالرغبة واكتشاف الرغبة عند رؤيتها، على سبيل المثال: «أشعر بالجوع»، و«أريد أن أكل ذلك الطعام الذي أراه هناك». يشعر المرء بالجوع، بالطبع، حتى عندما لا يكون هناك طعام مرئي في الأفق، ولكن بمجرد رؤية الطعام، تحلّ الرغبة في الطعام محل الشعور بالجوع، أو تختلط مع الشعور، بحيث تكون شهية المرء، واهتمامه، وحواس الشم والذوق مشغولة بترقب الطعام المرئي. يرتبط الإحساس الداخلي بالجوع بمرجعية موضوعية خارج الجسم، وتصبح الرغبة محددة. في الواقع، يمكن لرؤية

الطعام أن تُشعرك بالجوع، أو تجعلك تدرك أنك جائع.

هذا الارتباط الوثيق بين الصورة والرغبة يذكرنا بأن البصر هو حاسة استباقية. إن ترقّب إشباع الجوع يحل محل الإحساس بالجوع. عندما يتم التركيز على استيفاء رغبة الأكل بمجرد رؤية الطعام، تحصل ردّة فعل. أمّذ يدي للطعام، أدخل المطعم، أشتري العنب. بطبيعة الحال، البصر ليس الحاسة الوحيدة التي تشارك في هذا. رائحة الطعام مهمة جدّا، في الواقع، قد تكون رائحة الطعام أكثر أهمية من البصر بالنسبة لأشخاص مُبصرين. كما هو الحال دائماً، فإن البصر هو الأساس الذي تقوم عليه الحواسّ الأخرى. تجذبك رائحة الطهي اللذيذة إلى المطبخ وتُشعرك بالجوع، لكن رؤية الطعام تخبرك بما ستتناوله في وجبة العشاء. المرائحة الذكيّة، على الرغم من أنها مثيرة بشكل مُذهل، غالباً ما تكتسب صفةً عموميّة إلى حدّ ما. تقول: «تلك رائحتها شهية. ما هي؟». علاوةً على ذلك، هنالك العديد من الأطعمة التي غالباً ما يكون منظرها أكثر إثارة من الرائحة. منظر التفاحة المتورّدة اللامعة أكثر جاذبية من رائحة التفاحة الجميلة الغامضة، والتي يمكن ملاحظتها عند فتح صندوق كامل من التفاح أو الصعود إلى العلّة حيث يتم تخزينها، قد

لا تكون الرائحة ملحوظة لو كانت تفاحة واحدة، خاصةً عندما تكون في طبقٍ مع أنواع أخرى من الفاكهة.

يُخلِخل العمى ذلك الاتحاد الأزلي بين الرغبة والصورة. طالما شعرتُ بالملل من الطعام، أشعر أنني أفقدُ الاهتمام به أو لا يهتمني تناوله. في الوقت نفسه، أشعر بعضّة الجوع الطبيعيّة. حتى أثناء شعوري بالجوع، لا أحبّدُ الاقتراب من الطعام. أعلم أنّه موجود؛ لأن أحدهم أخبرني بذلك، قائلاً: «لقد جاء طبقُ الحساء»، أو «لا تبدأ بعد؛ النادل قادمٌ بطبق الخضروات إلى الطاولة»، أسأله «ولكن ما هو؟»؛ فيجيب: «إنه كستلاتة لحم العجل». الآن أعرف. ولكن ماذا أعرف؟ أعرف هذه الجملة، وأنا أوّمن بها، لكنّ الإشارات المرئية التي تثير الرغبة الفعلية وتحولّها إلى الخارج مفقودة.

يبدو أن شيئاً مشابهاً إلى حدّ ما يحدث في حالة الرغبة الجنسية. هناك، في اعتقادي، ذات الصّلة بين الإحساس العام والمُزبِك للجوع الجنسي والصورة المعيّنة للشخص الذي يمكنه إشباع الرغبة. الصورة التي يُمكنها أن تُشبع وتلبي لا يمكن فصلها تماماً عن تحقيق الرغبة ذاتها. ما الذي يمكن أن نتخيّله عن مشاعر آدم الجنسيّة قبل أن يلتقي حواء؟ كان يعلم أنّه يريد شيئاً، لكن لم يكن يعرف ما هو. عندما رأى حواء،

استحالة القلق الناتج عن شوقٍ ليس له شكلٌ بائن إلى مطاردةٍ شغوفة لشخصٍ بعينه.

لذلك من الممكن، على ما أعتقد أن يشعر رجل أعمى (متباين الجنس^(١)) بالملل من النساء، ومع ذلك يدرك في سريره الجوع الجنسي. إن أثر عطر امرأة، ودرجة اختلاف صوته عوامل ليست ذات قيمة في التأثير الكامل على المُبصر؛ عند رؤيته لامرأة الجذابة. يستغرق الرجل الذي فقد بصره في شبابه وقتًا طويلاً لتحويل إشارات الإثارة الجنسية من الصورة البصرية إلى الحواس الأخرى. لا بُدَّ وأن هناك العديد من الرجال في هذا الموقف يتساءلون عمّا إذا كانوا قادرين مرةً أخرى على الشعور بإثارة جنسية حقيقية. إن تفكيك الرغبة عن الصورة أمرٌ غريب ومقلق للغاية.

٨ يناير

إذا قبلت هذا الشيء، وإذا أدعنت، فسأموت. سيكون الأمر كما لو أن قدرتي على المقاومة، وإرادتي في المقاومة محطمة. من ناحية أخرى، يبدو أن رفض الإذعان، رفض القبول، أمرٌ عديم الجدوى. ما أحاول أن أرفض قبوله هو مخضُّ الحقيقة.

(١) مغاير الجنس أو محبٌ للجنس الآخر heterosexual

هذه إذن هي المُعضلة. أنا في حضرة واقع لا يمكن تقبّله. يجب أن أكون مكتفياً بالقليل من الإجابات. هذا يتطلب تخطيطاً دقيقاً لكل يوم، واليوم يتطلب تقسيمه إلى أجزاء. يجب أن يكونَ لكلّ ساعةٍ مهاراتها الخاصة، وتكنيكاتها المختلفة، وروتينها المحدّد الذي يمكن من إنجاز شيء ما بنجاح. خلاف ذلك، سيكون لدي شعور بالاستيحاش الذي لا طائل منه، شعورٌ أحمل في داخله أعماق وأعمق، بلا حول ولا قوة. يزداد هذا الشعور بمرور الوقت ويُصبح حاداً لدرجةٍ أشعر فيها أنني مغلوبٌ مُضطهد. مُضطهدٌ يتقلّ خفيّ باطني، أنصوّر فيه حلمَ السفينة الضخمة التي تفرق وتُجرّ إلى الأعماق. وأنصوّر حلم اليقظة، عندما كنتُ في عربةٍ فحمٍ صغيرة تُجرّ بلا رحمةٍ، أعماق وأعمق في جوفِ جبل لا متناهي. السمة المشتركة هي الثقل الذي لا يمكنُ مقاومته.

يصارع المرء هذه الأشياء بخطواتٍ دقيقة. يتبنّى تكنيكات صغيرة تساعد على القيام بأشياءٍ صغيرة خطوة تلو أخرى. لن أحاول العودة إلى المنزل. ذلك بعيد جداً. لكنني سأصلُ إلى نهاية المربع السكّني. لا يُمكنني استعادة ما قبضت عليه من معانٍ في القواميس والموسوعات. ومع ذلك، سأجد معنى هذه الكلمة فقط. لقراءة هذا الكتاب كاملاً بهذه السرعة، سيستغرق

الأمر عُمُرًا. حسنًا، لن أحاول ذلك. لكنني سأصل إلى نهاية هذه الصفحة، حتى لو قتلني ذلك.

عليّ أن أقاومَ بفِعْلِ التقصّي عن الظروف التي تُحدِثُ الهلع والدَّعر في داخلي. اسمحوا لي أن أسرد شيئًا من ذلك في ذهني. لم أشعر أبدًا بالدَّعر في مكنتي. أشعر دائمًا بأنني في بيئة منظمة، أعرف أين توجد الأشياء، ولدي ما يشغل وقتي. قد أشعر أحيانًا بالنعاس والكآبة، لكن ذلك لا يبعث على القلق، ولا يُشعرني بالدَّعر أبدًا.

يجب أن أفكر مليًا في تداعيات ترتيبات عيد الميلاد في المنزل. بسبب الازدحام وحاجة الأقارب للمبيت في مكنتي، اضطررت على التخلّي عن الدراسة، وهو ما فعلته بكل سرور. ولكن بعد ذلك، لم يكن هناك مكان لأذهب إليه، ولا مكان أستكمل فيه بعض الأعمال الصغيرة التي من شأنها أن تقدح شرارة في عقلي. لا بد أنني تأثرت أيضًا بحقيقة أن المنزل بأكمله، من أعلاه إلى أسفله، كان مُكتظًا بأشياء غير مألوفة، لعب أطفال متناثرة في الأرض، وحقائب سفر في الممرات، وأقارب تصطدم بهم. العددُ غير المعتاد من الناس في المنزل يفاقم المشكلة. لا بد لي من تركيز أكبر لتمييز ما يحيط بي. كل هذا يجعلني أشعر أنني في بيئة تخرج عن نطاق السيطرة، وأن

كل ما حولي يسبح، ولا يمكن التنبؤ بما قد يواجهني في كل خطوة. يجعلني أستوعب المرونة التي يفتقدها المكفوفون، أو يجب أن أقول نوع الحياة غير المرنة التي يفرضها العمى على المكفوفين. الألفة، القدرة على التنبؤ، الأشياء المعتادة، الأشخاص، الطرُق، حركة اليد المعتادة على تحديد موقع هذا أو ذاك: كل هذا يؤخذ بعيداً، ويُنقلُ الأعمى مرةً أخرى إلى حالة الطفولة حيث لا يعرف ببساطة كيف يتعامل مع العالم، كيف يدخلُ إليه ويتحكّم فيه، كيف يجد نفسه ويكونَ علاقةً مع ذلك العالم، حيث يُهدّد التوازن الذي تم تحقيقه بشقّ الأنفس، بالثقة والخوف، ويُثقلُ المرءُ بفكرة أن العالم الذي يسعى إلى الاتصال به لا يمكن تكوين صلّةٍ معه؛ لأنه إما غير واقعي أو يتعذّر وجوده. يسكنه كائنات تنتمي إليه، يسكنه المبصرون. العالم الذي يبقى حينئذٍ هو جسده، الوعي الاستبطاني. ذلك عالم لا يستطيع المبصرون اختراقه، مكانٌ يمكن فيه تأسيس نوع من السيطرة الجوانية. حيث العودة إلى ما وراء الطفولة، إلى حالة ما قبل الولادة، حيث يطفو المرء بحرية دون تفريق، مكتفياً نهاية النفق، دون عالم وأخيراً بدون نفس.

البديل عن ذلك هو إنشاء بيئة خاصّة، دراسة، غرفة، طريق، ممر، إقليم معيّن. أنساءل عمّا إذا كان يمكن التفكير في هذا الأمر برمته من حيث الحقوق الإقليمية.

العمى يسلب المرء حقوقه الإقليمية. يخسر المرء أرضه. يتراجع مدى الانتباه والمعرفة بحيث يعيش المرء في عالم صغير. تقريبًا كل الأراضي تصبح عدوًا محتملًا. فقط المنطقة التي يمكن أن يمتسها الجسد أو تنقرها العصا تصبح مساحة يمكن للمرء أن يعيش فيها. غير ذلك يظل مجهولًا.

كما أنني مسكونٌ بفكرة أنه لا بد وأن يكون الأمر أكثر فظاعةً بالنسبة لأولئك الذين فقدوا بصرهم وفقدوا سمعهم أيضًا.

١١ يناير

يسألني الناس أحيانًا ما إذا كنت أرغب في تحسّس وجوههم، لكن الوجه عند لئسه يختلف تمامًا عن الوجه عند رؤيته. من أهم سمات الوجه، العيون والتي لا يمكن لمسها بسهولة. علاوة على ذلك، فإن أهمية وضعية المواجهة (وجهًا لوجه) في هذه الحالة تصبح مُبْهَمة. رؤية الوجه هي التي تتطلب أن يكون لها وضعية معينة. في عالم المبصرين، يعتبر توجيه المرء لوجهه نحو الشخص الذي يتحدث، علامةً على الكياسة والاهتمام، ولكن في العالم الأعمى لا شيء من ذلك يهم. فالشخص الأعمى، في النهاية، يعرف أنك كنت تستمع إليه

عندما تردّ عليه فقط، وليس بمعرفة ما إذا كنت تنظر إليه أثناء مخاطبته لك. بعبارة أخرى، لم يعد هناك رمزية للوضعية المتبادلة للوجوه. يتعامل البصر مع المساحات، مع المناطق، وبالتالي مع الوضعيات.

ما هو المغزى الجنسي لهذا؟ وضعية المواجهة مهمة في ممارسة الحب عند المبصرين، لأنها تُشير إلى اهتمام أحدهم عندما يستلقي بالكامل على الآخر. إنها تمثل الشراكة والطبيعة الشخصية للتبادل الجنسي. هناك فيلم عن شعب ما قبل التاريخ. أحد أكثر المشاهد الدرامية كان عندما استبدل زوجان يمارسان الحب الوضعية التي يكون فيها الشريك الذكر خلف الأنثى، والتي يُظهرها الفيلم على أنها ممارسة عالمية، إلى وضعية المواجهة.

يُصوّر هذا على أنه تطوّر الاتصال الجنسي إلى فعل الشراكة بين شخصين. ومع ذلك، بالنسبة للعاشق الأعمى، لم تعد وضعية المواجهة بذات أهمية الشراكة الشخصية كما هو الأمر للشريك المبصر. لا أعتقد أن المبصر يمكن أن يتقبّل هذا بسهولة. إنه انتهاك للميثاق القوي حول العلاقة بين الشخصية والجسد. كيف يؤثر العمى على ممارسة الحب؟ هل يصبح العاشق الأعمى أكثر بدائية؟ هل يتراجع، إذا جاز التعبير، إلى

الوضع الموصوف في الفيلم، إلى ما قبل الشراكة الشخصية؟ من ناحية أخرى، بما أن الشخصَ الأعمى يعتمد بشكل كبير على اللمس والشم والتذوق، أليس من الممكن أن يكتسب دماثة وحساسيةً جديدة في هذه الحالة التي تعتمد على اللمس بشكل أساسي؟

جانب آخر أيضاً، هو فظاعة أن تكونَ بلا وجه، ونسيان المرء لشكله ومظهره. الوجهُ مرآةُ النفس وصورتها.

هل هذا مرتبطٌ برغبتني في إخفاء وجهي عن الآخرين أحياناً؟ رغبتني في أن أمسك ذقني وأُعطيَ فمي وأضغط على أنفي بيدي، كما لو كنتُ أرتمي قناعاً. هل هذه رغبةٌ بدائية في تحقيق نوعٍ من المساواة؟ بما أن وجهك غير متاح لي، فلماذا يكون وجهي متاحاً لك؟ أم أنها تنبع من شعوري بفقدان الوجه؟ أم أن الأمر مجرد حداد بطريقةٍ ما على فقدان وجهي؟ هل أحاول استعادة الثقة في أنني حصلت على وجهٍ من خلال لمسه بيدي؟ أريد أن أمس شفتي أثناء حديثي. تأتي أصوات الآخرين من العدم. هل يأتي صوتي أيضاً من العدم؟

غالبًا ما أرغب في الإشارة إلى ذقني بأحد أصابعي، وذلك لتذكير نفسي دائماً بتوجيه وجهي في الاتجاه الذي يأتي منه

الكلام أو الصوت. أحتاج إلى القيام بذلك عندما أكون في حديث عميق مع شخصٍ واحد. هل أخشى أن يتمايل رأسي مثل الأعمى وتظهر عليه تلك الخِضلة المعروفة؟

اختفاء الوجه ليس إلّا أكثر الأمثلة الموجعة في انتزاع الطابع المادي من الجسد كله. تصبح الناس مجرد أصوات. هذا يقود إلى شيء آخر. فقط لأنه لا يوجد شيء يتوسط بين الأصوات غير الملموسة والاتصال المباشر للأجساد، يصبح الاتصال الجسدي أكثر إثارة للفرع. وتصبح المصافحة أو العناق نوعًا من الصدمة؛ لأن الجسد يخرج من العدم إلى الواقع المفاجئ.

يحصل هذا بشكلٍ واضحٍ في تجربة شرب ماءٍ شديد البرودة من الصنبور. التأثير فوريّ جدًّا. فجأة، هناك ماء! يصفع الشفتين ويغمر الوجه ويفيض في الفم والمعدة، يؤكّد حضوره الحادّ دون سابق إنذارٍ أو تحضير. إنه يأتي فقط، يصفع. كذلك هو تحوّل الكلام إلى اتصال جسدي في العلاقات الإنسانية للمكفوفين. لذلك؛ بالنسبة للمكفوفين، يصبح الأشخاص الآخرون أكثر تجريّدًا وأكثر واقعية، بالانتقال الفُجائي من حالة إلى الأخرى. هذا يعيدنا إلى مشكلة العلاقات الجنسيّة

للمكفوفين. ربّما يكون العاشق الأعمى أكثر تجريدًا وأكثر واقعية، ربّما يكون أكثر بدائيّة وأكثر تعقيدًا في نفس الوقت، وبطريقٍ مختلفة. ربّما هذا ما يقصدونه عندما يقولون إن الحب الحقيقي أعمى.

٢ فبراير

الليلة الماضية حلمتُ بكابوسٍ، كان واضحًا وحقيقيًا لدرجةٍ أنّه أيقظني. حلمتُ أنّ إليزابيث، التي ستبلغ من العمر عامين في ٢٣ فبراير، لم تكن في تختها. عوضًا عن ذلك، كان التخت ممتلئًا بالورود والزهور الجميلة. كانت الزهور منسقة بهيئةٍ رسمية، كأنّها أكاليلٌ على شاهدٍ قبر. ذهبت إلى مارلين وقلت: «أين ليزي؟».

قالت مارلين: «إنّها ميتة».

شعرت بالزّوْع والفرْع وانهمرت دموعي وصرخت: «ماذا حدث؟ لم أكن أعرف. أخبريني!».

كانت مارلين هادئةً للغاية. قالت: «ليس من الجيد إحداث ضجة. لقد دُفنت».

استشطت غضبًا. أمسكت بها من كتفيها، وأنا أرتعش

وأصرخ: «ماذا تقصدين؟ كيف تجرئين! لم تُمُت فقط، بل دُفِنْتُ ولم يخبرني أحد؟».

أشارت مارلين من النافذة. كانت هناك قطعة أرضٍ خضراء، كأنها حديقة كاتدرائية أو دير، يسير عليها موكبٌ بخطى بطيئة. قالت مارلين: «ها هم ذاهبون، هناك موكب الجنازة». عندها استيقظت.

كان الحلم بصرياً للغاية. كان المنظر مهيباً ورائعاً؛ ملابس الناس، وخضرة العُشب، والألوان الزاهية للأزهار. لم يكن هناك أثر للعمى. من يُعيل أسرتي وأطفالي؟ كيف لي أن أعرف؟ هل أخطأ الحالِمُ في الأسماء؟ ربما لم تكن ليزي ومارلين، ولكن أشخاصاً آخرين فقدتهم أيضاً؟ هل كانت إيموجين الميتة. فقدت أولاً بالطلاق^(١) وبُعْد المسافة، وفُقدت مرةً أخرى بتأثير العمى الانعزالي؟ وجوه الفقدان كثيرةٌ ومرعبة.

٤ فبراير

اليوم ذهبت العائلة إلى كاتدرائية كوفتري^(٢). ذهبت مارلين مع توماس لشراء تذاكر للمعرض الخاص، بينما بقيت

(١) إشارةً لزواجه الأول والذي انتهى بالطلاق.

(2) Coventry Cathedral

في المقهى. سألت مارلين ما إذا كان هناك امتياز للأشخاص المعاقين، مضيفة: «زوجي أعمى». بعد حصولها على التذاكر، قال لها توماس: «لماذا زوجك أعمى؟». أخبرتني مارلين، في حديثها لي لاحقًا، وأنها فوجئت كثيرًا بهذا السؤال، لم تستطع الإجابة، وتساءلت ما إذا كان من المفترض أن تقول ما قالتة وهو يسمعها. مع ذلك، أجابت: «لأن أباك لا يستطيع الرؤية».

ثم سألت: «هل أبي زوجك؟».

«نعم».

«لماذا لا يرى؟».

«حدثت مشكلة في عينية».

لم يتابع توماس أكثر من ذلك في الحديث حول هذا الأمر، ولكن لاحقًا، بينما كنا نتجول في الكاتدرائية ذاتها، جاء إليّ. كانت هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها بمفردي معه، على الرغم من أن مارلين قد أخبرتني بما حدث. سألتني: «أبي، هل أنت أعمى؟»؛ حملته بين ذراعي وقلت: «من أخبرك بذلك؟».

كانت هذه إجابة حمقاء ومراوغة ولا أعرف تمامًا لماذا قلتها. بطريقة غامضة لا أستطيع فهمها تمامًا، شعرت بالخجل. كنت أخشى أن يُحدث الأمر بعض التغيير في علاقتي معه. على

أي حال، هو يعرف الآن أنني أعمى. لكن، هل يعرف ما هو العمى؟ ما الاستنتاجات التي سيتمكن من استخلاصها من معرفته أنني أعمى؟

٩ فبراير

أخبرتني مارلين أنه بالأمس وبينما كان توماس يلعب مع ليزي، أغلق جفنيه بشدة، قائلاً لها: «عندما أغمض عيني لا يمكنك رؤيتي». أبقى على عينيه مغلقتين لبضع ثوانٍ، بينما كانت ليزي تحدق به، بعيون واسعة ومندهشة. أخيراً فتح عينيه وقال متباهياً: «هناك!». هذا مثال حي لفرضية المعاملة بالمثل. يفترض المرء أن الآخر يُشبهه. إن كنت لا ترى، فأنت لا تُرى. تُعاد ترتيب صيغ الكلام الإيجابية والسلبية. وبالتالي، إن كنت لا ترى فلا يمكن لأحد ملاحظتك. الأعمى شخص غير مرئي. من يغلِق عينيه شخص غير مرئي أيضاً، لا أحد يستطيع رؤيته. إذا لم يستخدم المرء بصره، فلن يكون متاحاً للمُبصر. الحُجّة في مبدأ المعاملة بالمثل تعمل كالتالي: أستطيع أن أرى أبي؛ لذلك فإن أبي مرئي؛ لذلك فإن أبي يرى.

سيكون من السهل جداً تجاهل هذا باعتباره جزءاً من الاستدلال المنطقي الطفولي. يجب أن نتذكر ما يُسمى ك «وهم

الخصوصية^(١)، وهي إحدى السمات السلوكية للكثير من البالغين المكفوفين. إنها تشير إلى صعوبة التذكر طوال الوقت؛ كونك أعمى، ولا تزال مرثياً للآخر. من الصعب دائماً أن تضع في اعتبارك النطاق المذهل لهذه المقدرة التي يُقال إنها عند الآخرين. يجب على الأعمى أن يُذكر نفسه طوال الوقت، حتى عندما يتشوق إلى حكا مؤخرته، أنه مرثي.

هذه ليست الحالة عند فقدان السمع. لم أسمع قط عن طفل وضع أصابعه في أذنيه وصرخ: «لا يمكنك سماعي». وأعتقد أن أحد أسباب ذلك هو أن عضو السمع وعضو الكلام يقعان بشكل منفصل في الرأس. العضو الذي يسمع به المرء: (الأذنان)، والأعضاء التي يُسمع بواسطتها المرء: (الحنجرة والفم)، ليس هناك تطابق. بينما العضو الذي يرى به المرء والعضو الذي يرى به متطابقان. البصر مُتبادل لكن السمع متسلسل.

وبالتالي، ترتبط العين بشكل فاعلي ولا فاعلي مع عين الآخر، وهذه ليست الحالة مع الأذن، فهي عضو مُستقبل فقط. اللمس متبادل في ظل الظروف العادية. إذا كان بإمكانني

(1) illusion of privacy

لنفسك والشعور بك، يمكنك عادةً أن تشعرَ بلمسِي. إذا لم
أستطع لمسك، فمن المحتمل أنك لا تستطيع الشعور بي.
الفرق بين اللمس والبصر هو أن المعاملة بالمثل يمكن تعطيلها
بسهولة. هناك طرقٌ لتعطيل المعاملة بالمثل عند اللمس
المتبادل. أستطيع لنفسيك والشعور بك وأنت نائم، أو يُمكنني
إمسالكَ خصلةً من شَعْرِكَ دون أن تدرك ذلك. يُمكنك تلقّي
القليل من المخدر على بشرتك ويصبح إحساسك خافتاً. أنا
في حالة البصر، فما عليك إلا أن تُغلق عينيك. إغلاقُ العينين
فعلٌ طبيعيٌ لحظةً بلحظة، في حين أن إغلاق حاسة اللمس
ليس بهذه البساطة.

الآثار المترتبة من مبدأ المعاملة بالمثل في حالة البصر تؤثر
بشكلٍ واسع النطاق على العلاقات بين المكفوفين والمبصرين.
لأنني لا أستطيع الرؤية، لا يمكن رؤيتي، يمكن تجاهلي،
والتعامل معي وكأنني غير موجود، والتحدث عني بصيغة
الغائب.

«هل ستعتني به؟ هل ستأخذ بيده إلى المصعد؟ أين تريد
أن تُجلِسه؟ هل ستعود به إلى مكتبه؟»، عندما يكون في عجلةٍ
من أمره، يمكن للمرء أن يهرع من أمام صديقٍ أعمى دون

التحرج والاضطرار إلى تحيته. لا يراك لذلك لا يعلم. لذلك يمكنك التظاهر بأنك لا تستطيع رؤيته أيضًا.

في أحد الأيام، كنتُ وزميلي مايكل جريميت نُجري مقابلة لإحدى الطالبات. أخبرني مايكل بعد ذلك أنها لم تنظر إلي ولو لمرة واحدة خلال المقابلة بأكملها. كل أسئلتها، ابتساماتها، جسدها كله كان موجهاً نحو مايكل. حتى عندما كنتُ أسألها مباشرة، كانت بالكاد تميل برأسها في اتجاهي.

نُراها لم نستطع تحمّل النظر إلي؟ هل اعتقدت أن مايكل سيعتقد أنها كانت غيبية لو ابتسمت إليّ، ونظرت إليّ؟ لأن مايكل يعرف أنني لا أستطيع رؤيتها؟ مهما كان السبب، النتيجة هي أنها لم تكن قادرة على رؤيتي؛ لأنني لستُ قادرًا على رؤيتها.

الشعور بأنك أصبحت غير مرئي مرتبط بفقدان صورة الجسد. تمامًا، كما فقد المرء وجوه الآخرين، فلا يهم إذا فقد وجهه. في صباحات الشتاء الباردة، أعاني من شعور غريب، يكاد يكون غير إنساني، أن بإمكانني التجوّل ليس فقط بالجزء السفلي من وجهي مُكمّمًا ضد الرياح، ولكن برأسي كلّ مكفّنًا. لن يكون هناك فرق لو اختفى وجهي بالكامل. كوني غير مرئي للآخرين، فأنا غير مرئي بالنسبة لنفسي. هذا يعني أنني أفترق إلى

معرفة ذاتي، أنني فاقدٌ للوعي. هذا ما يشير إليه النموذجُ البِدْئي من العمى، فقدان الوعي، السقوط في النوم، الشعور بالعدم، التحول إلى لا شيء. أن تكون مرثيًا، أن تكون موجودًا.

هذا يعطي نظرةً ثاقبةً عن شوقِ المُحبِّ المُبصرِ لأن يراه المحبوبُّ الأعمى. إنه الشوق المُتكوّن في نظرِ المُحبِّ، إنها رغبته في الاستثناس. هذا بالتأكيد ما يكمن وراء الفكرة التي أعربت عنها ابتي الكبرى، البالغة من العمر عشرة أعوام ونصف، في ذلك اليوم: «يا أبي، أتمنى أن تراني». هذه ليست مجرد رغبة في رؤيتها تقوم بأعمالٍ بارعة، كما يحصلُ مع الأطفال الأصغر سنًا، إنها الرغبة في أن تكون في حضرة شخصٍ ما (بصفته أحد الوالدين) يمنحك وجودًا، ولكنه الآن أعمى.

١١ فبراير

في ذلك اليوم، كنت أنا وتوماس نستمع إلى قصة رابونزيل^(١) على شريط كاسيت. عندما وصلنا إلى الجزء الذي يسقط فيه الأمير الشاب من البرج، ويخدش عينيه بالأشواك ويصبح أعمى، قاطع توماس واستدار إليّ وصرخ: «لماذا كان أعمى؟».

(١) رابونزيل Rapunzel هي قصة خيالية ألمانية للأطفال، سجلها الأخوان جريم ونُشرت لأول مرة في عام ١٨١٢ م.

أجبت: «لأن الأشواك أذت عينيه».

«لماذا أذت الأشواك عينيه؟».

«حصل ذلك عندما سقط من البرج. سقط على شجيرة من الأشواك».

صمت قليلاً محاولاً استيعاب الأمر. قررت أخذ زمام المبادرة.

«ما هو العمى، توماس؟».

صمت للحظات ثم أجاب بتمعن: «لا أعرف».

كان هناك رسمٌ توضيحي في الكتاب، يُظهرُ الأمير الشاب وهو يتجول في الغابة بعصا بيضاء أو عصا من نوع ما. سأل توماس عن الرسم: «هل الأمير أعمى؟».

أجبت: «نعم».

أضاف توماس «إنه يحمل عصا».

سألت: «هل هي عصا بيضاء؟».

«لا».

فسألت: «لماذا يحمل عصا؟».

مرة أخرى صمت للحظات، وقال: «لا أعرف».

لا يعرف توماس ما تعنيه كلمة «أعمى»، على الرغم من إدراكه أن الأمر يتعلق بعيني المرء. إنه يعلم أن هذا ليس طبيعياً، وأنه في الواقع نتيجة لحادثة ما، هو يعلم أن العمى مرتبطٌ بحمل العصا، على الرغم من أنه لا يعرف تمامًا الارتباط. لم يُشر إلى العمى الذي أعانيه، ولا إلى المحادثة التي أجريتها الأسبوع الماضي والتي أفزعته، عندما سمع مارلين وهي تقول إن زوجها أعمى. هل من الممكن أن يكون رفضي الأحق للإجابة على سؤاله المباشر حول ما إذا كنتُ فعلاً أعمى قد شوّش أفكاره الآن؟ ربما أنه الآن غير متأكد تمامًا ما إذا كنت أعمى أم لا. مع ذلك، فهو يدرك أن كلمة: «أعمى» هي كلمة بالغة الأهمية بالنسبة لنا جميعاً.

٢٤ فبراير

أشعر أحياناً بالاكئاب، وهذا يكون أكثر سوءاً عندما أشعر بالإحباط من اللعب مع الأطفال. أشعر كما لو أنني أصبحت لا شيء، غير قادرٍ على التصرف كأب، عاجز، غير قادرٍ على معاينة المكان، على الدهشة، على التمييز أو التفريق وممارسة سلطة الأب. لدي شعور غريب بأنني ميت.

استجابتي هي الانكفاء إلى الداخل أكثر وأكثر، صوب
موتٍ أعمق. أغرق في الهدوء والتسليّة. أجلس بلا حراكٍ على
كرسيٍّ بمفردي، أتَنَفَس ببطءٍ شديد، أغلي على نارٍ هادئة،
وتتضاءل الأشياء من حولي. أحاول أن لا أفكر في أي شيء،
وغالبًا ما أغفو وبأخذني النوم. أعطي نفسي بيطانيّة، أمتنع أيّ
أصواتٍ خافتة، وأفِرُّ نفسي تمامًا، أصبح الصّفر الذي يخبرني
عنه العمى. في هذه الحالة، يمكنني الاستمرار لساعات.

هذه التّكنيك لمحاربة الاكتئاب فعّال إلى حدٍّ ما. إنّه يوفر
ملاذًا معيّنًا، يوفر نوعًا من العزاء، مكانًا لأذهب إليه. أجدُ هذا
بالتأكيد، إذا دفعني لعبةً مبهجةً للأطفال إلى إحدى هذه
الحالات الكثيفة، وإذا كنت غير قادرٍ على الدّهاب إلى ملجأ
اللاشيء الخاصّ بي، ربّما لأنني مسؤولٌ عن الأطفال وعليّ أن
أبقى يقظًا، أو بسبب بعض الالتزامات الاجتماعية تجاه الزوّار
أو الأصدقاء، عندها يبدو أنني أنسحب بالتدريج. يتراكم في
داخلي توتر داخليّ، ويعتريني شعورٌ بالضيق، شعورٌ بأنني لن
أتمكّن من الاستمرار لفترة أطول. تكبُرُ صورةُ السّرير الصّغير
الهادئ في ركن غرفتي وتسيطر على ذهني، وأشعر أن متطلبات
العالم الخارجيّ والتي تمنعني من الانسحاب، تصبح أقلّ
قبولًا. يأتي كلّ صوتٍ، كما لو كان، قادمًا من مسافةٍ بعيدة،

أُخْجِمُ عن سماعه أكثر. تصبحُ أصوات العالم الخارجي موجعة، وكأنها تمنعني من الحصول على استراحة، عندها أجدُ، في تلك المرحلة، أنه من المستحيل البقاء مستيقظًا.

يجب أن أجدَ طريقة أخرى لمعالجة هذه المشكلة. أنا بحاجة إلى فهمها أكثر. لقد قيل إن العمى هو أحد أعظم الرمزيات أو النماذج البُذنية. في فنِّ وأساطير العديد من الشعوب، يرتبط العمى بالجهل والارتباك واللاوعي. ربما تأثر خيالي بقوة هذه الرمزيات. ربما نشط العمى الذي أعانيه النموذج البُذني للعمى بداخلي.

قد يكون هذا هو السبب الذي يجعلني أشعر في حالة الاكتئاب هذه وكأنني على حدود الحياة الواعية، ليس فقط بالمعنى الحرفي للغفوة أو الانزلاق في النوم، ولكن بمعنى أعمق وأكثر إثارة للفرع. أشعر كما لو أنني أريد التوقف عن التفكير، التوقف عن التجربة. كما أن الافتقار إلى صورة الجسد يزيد الأمر سوءًا: حقيقة أنه لا يمكن للمرء أن ينظر إلى الأسفل ويرى الاستمرارية المُطمئنة لوعيه في ملامح جسده، أن يخطو بقدمه إلى الأمام، فتلوح له (إذا جاز التعبير) قائلة: «نعم، أنا أسمعك. أنا هنا». لا يوجد امتداد للدراية والمشاعر في المكان.

لذا فأنا لست سوى وعي خالص، وإذا كان الأمر كذلك، فقد أكون في أي مكان، قد لا يخلو مكان مني؛ لم يعد يهم أين أنا. أشعر بالانحلال، لم أعد مركّزًا في مكان معين، والذي من شأنه أن يرمز إلى كينونة الجسد.

يمثل النموذج البدئي للعمى القدرة على طمس الفجوة بين ما هو معروف وما هو غير معروف، ما هو قريب وما هو بعيد، ما في الداخل والخارج، الخاص والعام. إنه يمثل الانحلال، أرض التخوم بين الوجود والعدم.

التكنيكات التي وصفتها لمحاربة الدّعر والاكتئاب لم تنجح إلا جزئيًا. في حالة تكنيك الانسحاب، فهو يشبه تأثير الخوف. لهذا السبب لا يمكن أن تكون استجابة فاعلة وحتمية، على الرغم من أنها قد تكون كذلك على المدى القصير فقط. أما بالنسبة لكّون العمى نموذجًا بدئيًا، فماذا أفعل حيال ذلك؟ أحتاج إلى إيجاد ترياق. هل يمكن أن يكون هناك نموذج بدئي مقاوم ومناهض؟ هل يمكن أن تكون هناك فكرة ضوء؟ الضوء بالتأكيد أحد الرمزيات السرمدية. يمنح الضوء التفاصيل، ويمحو الغمّة، ويسمح بالتفريق والتمييز، ويزيل الغموض، ويعطي مكانًا وسياقًا معينين.

سألني توماس عمّا إذا كان بإمكانه إضاءة الغرفة التي كنّا نلعب فيها. لم يخطر ببالي أنّ الظلام قد حلّ. علّل لي قائلاً: «توماس بحاجة إلى الضوء. أبي لا يحتاج الضوء».

فكرت في مقطع من سفر المزامير^(١) (١٣٩، ١٢): «الظلمة والنور متشابهان بالنسبة لك». هناك شعور غريب بأنني أصبحت إلهاً. ربما أنني لم أكتشف النموذج البدئي المقابل بقدر ما اكتشفت النموذج البديل، والذي يتجاوز ويتوحد إلى مستوى أعلى.

غالبًا ما أتفاجأ من أن أصدقائي المُبصرين يعرفون شيئًا ما، لا يزال بعيدًا وغير واضح. على الأعمى تذكّر أن المبصرين يعرفون، كما لو كانوا يتحتسون الوجوه طوال الوقت. يكتسب المبصرون معرفة ما يفكر فيه المكفوفون من خلال النظر إلى وجوههم فقط. كثيرًا ما يتأدي المبصرون، ويقولون لي إنّ هناك سيارة متوقفة على الرصيف. كثيرًا ما يخبرني الأصدقاء أنّهم

(١) سفر المزامير Psalm هو أحد أسفار التناخ اليهودي والعهد القديم من الكتاب المقدس المسيحي.

رأوني (من سياراتهم) أعبرُ الطريق. لقد زعموا لي، لكن لم يكن هناك طريقة لمعرفة ذلك قبل عبوري وتحرك سياراتهم. فوجئت ذلك اليوم بمعرفة أطفالي أنني كنت على مقربة منهم، ما أتاح الوقت لهم لإعداد شيء ما لي.

من بعض النواحي، تشبه معرفة الله بالعالم المعرفة التي يملكها المبصرون عن المكفوفين، ولكنها تذهب إلى أبعد من ذلك أيضًا. «افتح عينيك!» قالتها صديقة مُبصرة لزوجها. «لا يمكنني معرفة ما تفكر فيه عندما تجلس هناك وعيناك مغمضتان.» عيون المكفوفين لا يُدرَك كنهها. صحيح أن المبصرين يستطيعون التقاط المشاعر العابرة على وجه المكفوفين، لكن في كثير من الأحيان أجد أصدقائي يحسبون أنني نائم، في حين أنني في الحقيقة كنتُ مستغرقًا في التفكير ومهتمًا بهم عن كثب. يجب أن أتحدث لإشعارهم وتعريفهم بما يدور في داخلي. يصبح الكلام مهمًا للمكفوفين. لكن الله لا يعتمد على كلامي في معرفتي، حتى وأنا أعمى. في هذا الموضع ندرك أننا في حضرة شيء يتجاوز التمييز بين العمى والبصر والتفريق بين الظلام والنور.

بكونك شخصًا مبصرًا، تحدث عملية الإقرار والتعبير من قبل أصدقائك بابتسامة أو إيماءة أو غمزة أو حتى بمجرد تبادل

نظراتٍ عابرة. لكي يحدث ذات التعبير والإقرار لي من قبل أصدقائي، يجب التحدث إليّ أو لعمري. أجد أنني اكتسبت عادةً صغيرة، وأنا متأكد أنّ ذلك حدث بسبب العمى، وهي مصافحة الناس باستخدام كلتا يدي. أشعر بطريقة ما بالحاجة إلى تأكيد اعترافي وإقرار بي بوجودهم والذي يعوّض عدم قدرتي على تلقي ابتساماتهم. عندما أتحدث في أحد الاجتماعات، من المهم أن ألتفت وأصافح أكبر عدد ممكن من الأشخاص قبل ذلك، من المهم أن أتواصل معهم بالمعنى الحرفي.



أسقطتُ ملعقةً صغيرةً على الأرض. أنزلتُ طفلي البالغة من العمر اثني عشر شهرًا، ممسكًا بها من الخاصرة. انتظرتُ للحظة، حرّكتها إلى الأمام والخلف ببطءٍ وعنايةٍ وكأنها مكنسة كهربائية. ثم رفعتها مرةً أخرى. الملعقة في يديها. ذهبت، لقد التقطتها، بسلاسةٍ وسهولةٍ، دون الحاجة إلى كشط السجادة بيديها. ذهبت مباشرةً إلى الملعقة. كيف عرفتُ؟ هذه الطفلة لديها حاسة غريبة تجعلني أتذكرها دومًا. تملؤني معرفة الله بدهشة أكبر. «عجيبٌ هذه المعرفة، فوق ارتفعت، ولا أستطيع بلوغها» (سفر المزامير ٦: ١٣٩). ماذا تعني كلمة: «مرتفع»

للشخص الأعمى؟ ما ارتفاع المباني؟ ما ارتفاع الغيوم؟ أنا أعرف فقط أن الأشياء موجودة هناك؛ وأنها بعيدة المنال.

لا مفرّ من المعرفة الإلهية. إنها تحيط بي. إنها تملؤني. نجعل كل الأماكن على حدّ سواء؛ لأنّ كل الأماكن معروفة لله. «أين أذهب من روحك؟ أين أهرب من حضرتك؟» (الآية ٧). لا توجد درجات لحضرة الإله ولا توجد درجات من المعرفة الإلهية. «إن صعدت إلى السماوات فأنت هناك، وإن فرشت في شيول^(١) فهذا أنت». (الآية ٨). الله رب العالمين. عالم الجنة والنور له. عالم الجحيم والظلام والأغوار هو أيضًا له. لا يخفى عليه مكان وجودي، ولا في أي عالم أجد نفسي، ليس محصورًا في عالم التور السماوي، ولا يهزمه عالم الليل الذي لا يمكن اختراقه.

أتخيّل الآن أنني أطيّر. أتخيّل أنني حُرٌّ، مرّة أخرى، أذهب حيث أشاء، وأشعر أن الصّباح والمحيط سيُتاحان لي مرّة أخرى. «إذا أخذت أجنحة الصّباح وسكنت في أقصى أجزاء البحر...» (الآية ٩). قد أعيشُ تحت البحار، في عالم الأغوار اللاواعية. حتّى هناك، فإن ربّ تلك العوالم سيجعلني أتعرف

(١) شيول Sheol، تعرف في العربية بالهاوية أو الجحيم، وهو مكان مظلم يذهب إليه الموتى.

عليه بالطريقة التي تلائم حالتي. لن يُظهر لي ذاته. لن يظهر لي. لن يقدم لي رؤيا ولن يستحيل في هالة. سيتذكر عملي. ...
هناك أيضا تهديني يدك وتمسكني يمينك» (الآية ١٠).

أنا على يقين من أن كاتب سفر المزامير كان أعمى. لا يمكن لأحد آخر أن يصف التجربة الدينية للأعمى بهذه العظمة، أو يعتبر عن وقوف شخص أعمى أمام الله بهذا الكمال.



يمثل التقارب الجسدي بين شخصين يمارسان الحب مشكلة بالنسبة لصانع الأفلام الإباحية، لأن نقطة التماس الأكثر حميمية يصبح النظر فيها غير ذي أهمية، ويجب فيها على المصور الإباحي الحفاظ على مسافة معينة من أجل الحفاظ على الإثارة البصرية. إنه لمن دواعي السرور أن يعتقد الأعمى أنه لا يزال هناك شيء واحد يمكنه القيام به، وكثيرا ما يقال أنك لست بحاجة إلى الكلام ولا إلى البصر للقيام بذلك. مهما كانت المعرفة المشتركة التي يتبادلها العشاق مثيرة وعميقة، لا أحد يمكنه الحديث عن تجربة اللحظة التي يقترن فيها الحيوان المنوي بالبويضة وتولد حياة جديدة. لقد خلقت سرا وما زلت أنتخلق في أسرار العمى، لكن كل الأسرار مكشوفة لله. لم أعد أعرف تعاقب الأيام بتناوب النهار والليل، النور والظلام، وبهذا

المعنى، فإن معرفتي بأيامي هي إلى حدٍّ ما كمعرفة الله. الشيء المهم في الاستيقاظ ليس الصّباح وإنما الحضور. أَسْتَعِيدُ بِالْيَقَظَةِ حضورَ من أحبّ. لذلك على الرغم من أنني أُجَرَّبُ مفارقات إعادة اكتشاف البصر في الحياة اللاواعية للأحلام، وفقدانَ البصر مرةً أخرى في كل مرة أَسْتَيْقِظُ فيها، إلا أنني أتجاوز هذه المفارقات بالتواصل مع الواحد الذي يعرفني، سواء كنت نائمًا أو مستيقظًا؛ لأنني لازلت وسأظلّ معه.

٢٨ فبراير

كوني شخصًا أعمى، جلست على الشاطئ وسكبتُ حفنةً من الرمل على راحة يدي، ما سمح لها بالتسرّب من بين أصابعي. فركتُ حبات الرمل بين إصبعي وإبهامي، تعجّبت من تركيبها المُختلف. بعض الحبيبات خشنة وحادة، تتخذ حيزًا من راحتي وتبرز ككتلةٍ لوحدها. بعضها ناعمٌ وحريريٌّ لدرجة أنّه يكاد من المستحيل معرفة الحبيبات التي تختفي كما الماء. لو مددتُ يدي مرةً أخرى، فلا يزال بإمكانني الإمساك بالمزيد من الرّمْل، ولو مددتها أبعد سأقبض على المزيد وهكذا، أبعد وأبعد. أعلم أنني لو كنتُ مبصّرًا سأتمكن من تمشيّط هذا الشاطئ لأميالٍ حول الخليج. هذا الشاطئ ليس سوى واحدٍ من

آلاف الشواطئ المماثلة، وربما هناك العديد من البشر مثلي الآن، يفعلون ما أفعله، يمسكون بحبات الرمل بين أصابعهم ويتساءلون. كذلك هي الأفكار الإلهية؛ يحملها جسدي واحدة نلو الأخرى، بينما تحملني يدُ الله وكأنني حبة رمل.

أرحب بالمعرفة الإلهية وأمجدها. ما يُهم ليس أنني أعمى، وإنما أنني أعرف ذاتي وتقودني يداي، وأنّ حياتي، سواء كنت مبصراً أو أعمى، مُفعمة بالتسبيح.

٢ مارس

حلمت ليلة البارحة حلمًا مُروّعا ومثيرا. كنتُ على متن سفينة ضخمة، لم تكن عليها أي امرأة. كل من هنالك رجال. بدت الرحلة وكأنها حملة بحرية استكشافية. ظلت أمواج البحر الهائجة والعملاقة تتكسر على هيكل السفينة. ما أن رأينا أول هذه الأمواج قادمة نحونا، حتى ركض الجميع بحثًا مأوى. كان لدينا متسع من الوقت للفرار هربا إلى إحدى القواطع، والركض حتى نهايته، ثم صعود السلالم المعدنية. صعدنا وصعدنا إلى أعلى التجويف. تكسرت الموجة على طول جلال السفينة، على الكبائن والحواجز، وغمرت كامل الجزء الداخلي حيث كنا، تطايرت إلى الأعلى، لكنها لم تلمسنا تمامًا. تجمع الجميع

في الجزء العلوي من السفينة، في تلك القاعة الرّحبة الفاخرة. كانت تلك أول موجة من بين الكثير غيرها. أتذكّر واحدة، على وجه الخصوص، رأيتها قادمة. كانت جدارًا جبليًا متوعّدًا من المياه الخضراء الداكنة. ظلّت الأمواج تتكسّر مرارًا وتكرارًا فوق السفينة، حتى أصبح المكان كلّهُ مساويًا للماء. تمكّن بعضنا من الفرار، بينما جرّف البحر البقيّة. هنا استحالت السفينة غواصة، وهبطنا تحت الماء. كنّا في مهمّةٍ ما. كان ثلاثة رجال أقوياء مسؤولين عن المهمة، وهم القبطان وضابطان يساعداه. عُضنا بالمركبة إلى الأسفل. هنا أصبح لديّ منظر خارجي لهذه الغواصة. كانت حديثة جدًا كما المركبات الفضائية. لم تكن كبيرة، وكان على سطحها مصابيح ومعدّات أخرى. ظلّت تغوص إلى الأسفل بتمهّلٍ حتّى حطّت على سطح سفينةٍ أخرى، بعيدًا تحت الماء، بدا وأن هناك مهمّة ما يجب إنجازها. عُذنا بعد ذلك إلى داخل السفينة الكبيرة من جديد، حيث بدا وأن كارثةً ما قد حدثت، ثمة عقابٌ وقَعَ على أفراد الطاقم. رأيت زميلي، مايكل، ملفوفًا داخل بطانيةٍ أو كفنٍ، ومعلّقًا بحبلٍ من نافذة الكابينة. كان ذلك بمثابة عقاب، أو إشارة ما. عندما أنزل من النافذة، سمعت رنين الجرس. رأيت آخرين من زملائي يُعاقبون بذات الطريقة، ولم أكن أعرف لماذا يحدث كل هذا.

شعرت بالضيق والكرب الشديد. كنت متخوفاً من أن نخذل أنا وزملائي بطريقةٍ أو بأخرى الحملة، ونسبب الخزي والعار للجميع. اتضح بعد ذلك أن عقابنا المروّع والذي يتعدّر على الفهم قد وقع على أيدي أولئك الرجال المهيبين، على أيدي القباطنة. لقد كان حلمًا حيًا ومقنعًا ومثيرًا للغاية.

فوق وتحت العمى... هل ثقة لقاء مع شيءٍ ما في الأسفل؟
يا لها من خسارة! يا له من فشلٍ لا يمكن مقاومته! وكم يتعدّر فهمه.

٥ مارس

التقيت أنا ومارلين برجلٍ (سأدعوه السيد كريسويل) في العديد من المناسبات في إحدى كنائس وسط مدينة برمنغهام. في أحد أيام الأحد، اقترب السيد كريسويل منّي بعد الخدمة الصباحية، وصافحني بحرارة، وأخبرني أن الله أخبره أنّه كان ينوي شفائي من العمى. كان على السيد كريسويل أن ينتظر إشارة من الرب بأن الوقت قد حان، وبمجرد أن يعطيه الرب الكلمة سيصحبها معه لرؤيتي. هنأته على تلقّي هذه الرسالة، مضيفاً أنّه بمجرد أن يعطيه الرب الكلمة فلن يضيع أي وقتٍ سوى الخروج لرؤيتي على الفور.

اتّصل بالمنزل عدّة مرّاتٍ خلال الأسابيع التالية لكنني كنت في الخارج، ثم اتّصل مرّةً وتمّ تحديد موعدٍ عند الساعة الخامسة يوم الجمعة ٢ مارس. عندما وصلت إلى المنزل من المكتب، كان السيد كريسويل هناك بالفعل يتحدّث مع مارلين. كان توماس وليزي يلعبان ويُحدِثان جلبةً إلى حدٍّ ما، عندما أصبح من الواضح أنّنا على وشك البدء، عرضت مارلين مغادرة الغرفة واصطحاب الطفلين معها. مع ذلك، كان السيد كريسويل قلقاً وحبّذاً بقاءها معنا، لذلك بقينا جميعاً.

بدأ السيد كريسويل بإخباري أنني تعرّضت للسقوط عندما كنت صغيراً. لم ينكر صحّة ما قاله الأطباء عن انفصال الشبكية، وفقاً لفحوصاتهم، لكن الطريقة الأخرى للنظر إلى الأمر هي أنني تعرّضت لسقوطٍ ما تسبّب في فقدان بصري. أعربت عن اهتمامي في رأيهِ بطريقةٍ غير مُلزمةٍ إلى حدٍّ ما، وانتقلنا للحديث عن عدداً من المواضيع الفرعية الأخرى. أخبرني السيد كريسويل قليلاً عن عمله، وإدعائه أنّه معالجٌ، واتّسع كهنوته. أكّد أن لديه معرفة خاصّة، وضرب مثلاً على ذلك؛ بأنّه يعرف أنّ لدينا صديقة مريضة تعمل كمعلّمة. تحدّثت أنا ومارلين عن ذلك باختصار، وأن لدينا العشرات من الصديقات المعلّمت، ولكن على حدّ علمنا، لم يكن أيّ منهن مريضةً في ذلك الوقت.

لم يتابع السيد كريسويل هذا الخط من التحقيق، لكنه أخبرنا أننا نفتقد شخصاً ما بشكل كبير، وأنها نفتقد منزلاً. سأل عن المنزل الذي نفتقده. قلنا له أن هذا منزلنا ولا نفتقد أي مكان آخر. «ألا تشعر بحنين إلى والدك، إلى بيت والدك؟» كرّرنا بأن هذا كان منزلنا، وأن أحيانا بعضنا البعض كثيراً ونشعر بالسعادة سوية، وعلى الرغم من أننا أحيانا والدينا، إلا أننا لم نفتقد منزلهما. ثم طرح السيد كريسويل فكرة أن وطننا الحقيقي هو الجنة، وهذا هو المكان الذي يجب أن نفتقده.

بعد أن كانت هذه المحاولات الصغيرة للفراسة والاستبصار غير حاسمة إلى حد ما، طرح زائرنا تفسيراً آخر لفقداني البصر. أخبرني أنني توقفت عن قراءة الكتاب المقدس. أكدت له أنني لم أتوقف عن قراءة الكتاب المقدس، لكنه أصرّ بأنني لم أكن أقرأه كما اعتدت أن أفعل. أخبرته أنني كنت أقرأ الكتاب المقدس لمدة نصف ساعة فقط في اليوم، وبطريقة برايل، بينما في الماضي كنت أقرأ الكتاب المقدس لمدة تطول عن ذلك أحياناً أو تقصّر. يبدو أن السيد كريسويل اعتقد أن هذا اعتراف واضح بالذنب، وعلّق بأنه في اللحظة التي نتوقف فيها عن قراءة الكتاب المقدس، فإن هذه الأشياء ترتد علينا. أشارت إلى أن هناك العديد من المبصرين الذين توقفوا أو لم يقرأوا الكتاب

المقدس قط. لم يفقدوا بصرهم، لذا فإن الشيء الذي كان يصِفُه من الصَّعب أن يكون القاعدة العامة. أشار السيد كريسويل إلى أن الناس مختلفون، وربما مرة أخرى لم أكن أنا المُذنب وإنما والدي أو حتَّى أجدادي، ذلك أن الله يحاسب بخطاياهم الجيل الثالث والرابع. سلك السيد كريسويل وجهة نظرٍ تنكيليَّةٍ بامتياز تجاه المرضى والإعاقة.

بعد الانتهاء من هذه المُقدِّمات، طلب السيد كريسويل الكتاب المقدس. عرضت عليه مارلين كتابًا مقدسًا جديدًا باللغة الإنجليزية، لكنه لم يكن راضيًا عنه. مررنا له نسخة معتمدة ومُجازة. جلس هناك لبعض الوقت مُتأملًا فيما يجب أن يقرأ. أعطى انطباعًا بأنه كان ينتظر تلقِّي التعليمات لأنه تَمَّتْ بهدوء: «سِفْر التكوين؟ نعم؟ لا، ليس سِفْر التكوين. حسنًا. أعمال الرسل^(١)؟ نعم، سنأخذُ الفصل الأول من سِفْر أعمال الرسل.»

نظرًا لأنني لم أتمكن من قراءة النسخة المطبوعة، طُلب من مارلين القراءة. محاولةً مني لإقناعه بأنني لم أتوقف عن قراءة الكتاب المقدس، قاطعتُ القراءة في منتصف الفصل تقريبًا

(١) سِفْر أعمال الرسل Acts of the Apostles هو أحد كتب العهد الجديد والذي يروي قصة الكنيسة المسيحية الناشئة.

واستشهدت من ذاكرتي بالآيات الست أو الثماني التالية. كان السيد كريسويل مسرورًا بذلك، ثم أكملت مارلين الفصل. طلب زائرنا كوبًا من الماء البارد، ووقف، وطلب منّي خلع نظارتي، وضع إحدى يديه على جبهتي وعيني، ورشّ رأسي بالماء، وصلى، أولاً صلاة عامة، ثم صلاة الشفاء وصلاة الرب، ثم قرأ المزمور الثالث والعشرين من سفر المزامير. قام بعد ذلك بمسح عيني بالماء، فوق وتحت كل جفن، وطلب مني أن أشمر كم قميصي الأيمن. تفاجأ عندما اكتشف أن ذراعي كانت مضمّدة. سألتني ببيرة الدهشة والغضب عن سبب ذلك. شرحت له أنني كنت أعاني من الأكزيما وطلب منّي إزالة الضمادة على الفور وعدم ارتدائها مرّة أخرى. لم أكن متأكدًا ما إذا كانت تلك أوامر أم نبوءة من نوع ما، ولكن الأكيد أنه كان مستاءً من الضمادة، ربّما لأنني لم أخبره عنها من قبل، أو ربّما لأن معرفته الخاصة لم تكشف له عنها. أيّا كان السبب، فقد أمسك بذراعي العلوي وبدأ بتمسيدها من الأعلى إلى الأسفل حتّى أطراف أصابعي، مسّد كل إصبع على جذّة واحدًا تلو الآخر. تكرّر ذلك على ذراعي اليسرى ثم رأسي، لكنني لا أتذكر تمامًا ما إذا كانت الحركة على رأسي للأعلى أم للأسفل. بعد أن نُزعت عني التأثيرات الشريرة، قيل لي أن أتناول زيت كبد سمك القد

الممزوج بكمية مماثلة من العسل. لم يذكر لي؛ ما إذا كان علي تكرار الجرعة أو عدد المرات، ولم أستفسر.

تكررت هذه الطقوس بأكملها مرة أخرى على مارلين التي أمرت بعد ذلك بشرب القليل من الماء المتبقي وبنبذة شديدة أمرت بإنهاء الباقي. كانت تلك هي النهاية، غادرت مارلين الغرفة وأخذت الطفلين إلى الحمام. بقي السيد كريسويل لبعض الوقت، وأجرينا محادثة ودية للغاية حول عمله. شكرته على قدومه وشكرته على صلاته وقراءته. أخبرني أن الرب أراد أن يتليني بهذا الألم، لكن من المحتمل الآن أنه سيرفعه عني. كان حذرًا، وشدد على احتمالية الشفاء. تبادلنا التحايا والعناق الحار، وتواعدنا على تجديد اللقاء والمزيد من جلسات العلاج إذا أمره الرب بذلك، ثم رحل السيد كريسويل.

الزمان والمكان والحب

ربيع ١٩٨٤

٣١ مارس

كنا نستمع مرةً أخرى إلى شريط كاسيت قصة رابونزيل. عندما وصلنا إلى الجزء الذي تُلقى فيه السّاحرةُ بالأمير من نافذة البرج على الأشواك ما تسبّب في فقدان بصره، تجوّل الأمير بعد ذلك في الغابةِ بعصاهِ باحثًا عن رابونزيل، سأل توماس: «لماذا كان أعمى؟».

قلت: «لأن عينيّه كانتا ضعيفتين»، مضيفًا: «عيناى ضعيفتان».

سألني بنبرة جادة واستقصائية: «هل أنت أعمى؟».

أجبت: «نعم أنا كذلك».

استدار نحوي، وشعرت أنه كان يفحصني عن كثب: «عيناك مغمضتان».

أدركت أن ذلك كان صحيحًا. في بعض الأحيان تدفع
عيناى وأشعر بحكّةٍ شديدة، أميل حينها لإبقائها مغلقة. فتحت
عينيّ بآتساع، وقلت: «نعم، ولكن حتى عندما أفتح عينيّ، لا
أزال غير قادرٍ على الرؤية، لأن عينيّ ضعيفتان».

سأل: «ألا يمكنك رؤية الصور؟».

«لا».

«لكن يُمكنني رؤية الصور».

قلت: «عيناك ليستا ضعيفتين».

وضعت يدي برفقٍ على عينيّه، وأبقيتُ جفنيّه مغلقيّين
ياحكام. قلت: «الآن هل يمكنك أن ترى؟».

«لا».

أبعدتُ يدي. «الآن؟».

«نعم، أستطيع أن أرى الآن».

قلتُ: «عيناك ليستا ضعيفتين». كرّرت ذلك بضع مراتٍ،
وبدا أنّه كان يستمتع بالأمر، وقبّل به بهدوءٍ مدروس. كرّر مرارًا
وتكرارًا: «نعم عيناى ليستا ضعيفتان. نعم. أستطيعُ أن أرى».

واصلنا الاستماع إلى قصة رابونزيل، لكن بعد لحظات قاطع مرة أخرى، وسأل فجأة: «متى أصبت بالعمى؟».

قلت: «حدث ذلك قبل أيام قليلة من ولادتك».

«ما الذي جعل عينيك تضعفان؟».

«كانتا مريضتين»، قلت: «ولم يستطع الأطباء علاج ذلك».

واصلنا القصة.

كان ذلك نقاشًا جادًا وهامًا للغاية. لأول مرة، يربط ضعف عيني، والعمى، وعدم القدرة على الرؤية، وعدم القدرة على رؤية الصور. أدرك الآن أن ذلك يشكل فرقًا بيني وبينه، وأنه جزء من تاريخ حياتي الشخصية.

تعتبر قصة رابونزيل مهمة جدًا في استيعاب الأطفال لمعنى العمى. أتذكر أنني كنت في ويلز في عطلة صيفية عام ١٩٨١. سألتني إيموجين، التي كانت تبلغ من العمر ثماني سنوات حينها: «أبي، إذا بكيت وسقطت الدموع على عينيك، هل ستمكن من الرؤية مرة أخرى؟». أنا متأكد من أنها التقطت هذه الفكرة من رابونزيل، فهذه هي الطريقة التي تنتهي بها القصة.

أخبرني مايكل أنه يعتقد أن إحساسي للوقت قد تغيّر منذ أن فقدت بصري. يعتقد أنني من بين جميع الأشخاص في الكلية، الذي يبدو وكأنّ لديه متسعاً من الوقت. الجميع في عجلة من أمرهم، يدورون حول أنفسهم، ويحاولون حشر كل دقيقة بالمهام، وعُصِرَ آخر قطرة من الزمن. أنا وحدي الذي يبدو وأن لديه كل الوقت في العالم.

لاحظ مايكل أنني لا أختصر في عملي؛ وإنما أفعل ما يتوجّب القيام به، وأستمرّ في ذلك حتى أنتهي. لا يهمّ كم من الوقت أستغرق. بينما يتعيّن عليه الاختصار دائماً في عمله. يقترح مايكل أن موقفي من الزمن وهذا التعامل المختلف للوقت، قد يرجع جزئياً لحقيقة أنني لست تحت أي ضغط من حياة أخرى. لست مضطراً لمغادرة المكتب الساعة ٥ مساءً من أجل اللحاق بالمرآب، حتى أتمكن من إعادة السيارة إلى المنزل، حتى تتمكن زوجتي من استخدامها الليلة. لست مضطراً للوصول إلى السوبر ماركت قبل إغلاقه. ثمة شعور بأن الآخرين لا يعتمدون على وقتي.

يتساءل مايكل أيضاً، ما إذا كانت حقيقة أنني لا أستطيع

رؤية التغيير في اليوم مع اقتراب المساء، أحد العوامل لإحساسي المختلف. أضغط ساعتني، فتقول إن الوقت هو ٥:٤٥ مساءً. هذا مقياس مجرد للوقت. بل في الواقع، صوت اصطناعي يتحدث. أنا لا أتصور صعود ونزول الشمس.

أعتقد أن هناك الكثير من الحقيقة في كل هذا. يمكن للأشخاص المبصرين ثني الوقت. بالنسبة لهم، الوقت بطيء أحياناً، وسريع في أحيان أخرى. يمكنهم تعويض الكسل بالاستعجال وتسريع الإنجاز في وقت لاحق. يمكنهم تجميع الأشياء بسرعة في بضع دقائق. الأمر يشبه إلى حد ما التغيير في إحساسك بالوقت بعد شرائك سيارة. الرحلات التي كانت تستغرق ساعتين في السابق تستغرق الآن عشرين دقيقة. شيء يبعث على الدهشة والاستغراب؛ مقدار ما يمكنك ضغطه من الوقت. بهذه الطريقة، أنت تُسرّع الوقت حسب رغبتك؛ لهذا يقاتل المبصرون من أجل الوقت.

بالنسبة لي، كشخصٍ أعمى، الوقت هو ببساطة وسيلة لممارسة أنشطتي. هو السياق الختامي الذي أقوم فيه بما يجب القيام به. على سبيل المثال، السبب الذي يجعلني لا أبدو في عجلة من أمري وأنا أتجول في المبنى ليس أن لدي القليل

لأعمله مقارنةً بزملائي، لكنني ببساطةٍ غير قادر على الإسراع. يستغرق الأمر ما يقرب من اثنتين وعشرين دقيقةً للذهاب من باب منزلي إلى مكتبي. لا يمكنني القيام بذلك في خمس عشرة دقيقة، ولو حاولت أن أصلَ خلال ثلاثين دقيقة، فربما أضيع، لأنَّ معرفتي بالطريق تعتمد، إلى حدٍّ ما، على المشي بذات السرعة. الخطى المقدرة، والتركيز الهادئ، والاستذكار المستمر للمسافة التي وصل إليه المرء بالضبط، والمسافة التي لا يزال يتعين عليه قطعها، التوقف عند كل علامةٍ في المسار للتأكد من الاتجاهات، كل هذا يجب أن يسير بذات الوتيرة المنضبطة. سواء كانت تمطر أو كان يوماً مُشمساً، عليّ أن أمضي في الطريق.

المسألة أيضاً مرتبطة بقدره المرء على تسخير الوقت. عندما كنت مبصراً، كنت أعمل على عجلٍ، كنتُ أصحح أربعين حاشيةً في صباحٍ واحد. الآن، أنا سعيد الآن إذا قمت، بمساعدة قارئ مبصرٍ، بتصحيح الحاشية العاشرة عند نهاية الصباح. لا أقول في نفسي: «أوه اللعنة. لقد أنهيت عشرة فقط.» وإنما أقول: «جيد. أنهيت عشرة حواشٍ. ثلاثة أيامٍ أخرى وستنتهي المهمة.» أنا سعيدٌ جداً لأنني استطعت القيام بذلك. البساطة، والتخطيط الدقيق، والإعدادُ طويل الأمد، والتروّي الذي يجب

أن يعيش به الشخصُ الكفيف، كل هذا يعني أنه لا يمكنه استغلال الوقت بحصاد الكثير منه فجأةً.

ربما تؤدي كل الإعاقات الشديدة إلى نقصانٍ في المكان وزيادة في الزمان. أفكر في صديقي كريس المصاب بالتصلب اللويحي. بدون آلة التنقل الخاصة به، لا يمكنه المشي لأكثر من عشرين ياردة. مع الآلة، التي تسافر بسرعة أربعة أميال في الساعة، يتسع المكان له وتصبح المساحة رَخبة. يمكنه أن يقطع مسافة ثمانية أو اثني عشر ميلاً ويعود إلى المنزل مرةً أخرى. ومع ذلك، تقلص المكان نسيباً عما كان عليه عندما كان بصحة جيدة. من ناحيةٍ أخرى، اتسع الوقت بشكل غريب. يحتاج ٤٥ دقيقة لربط حذائه في الصباح. لا يهتم. لا ينفذ صبره، وينجز ما عليه إنجازه. ذلك هو الوقت الذي يستغرقه لربط حذائه. أفكر في صديقي كليف إنمان^(١)، الذي كان يتعافى مؤخراً من حادث سيرٍ خطير تسبب في إصاباتٍ للعمود الفقري، كان مستلقياً على سرير سٹك مندويل^(٢) في وحدة العمود الفقري في مستشفى

(1) Clive Inman

(٢) سرير ارجرٹن سٹك مندويل Egerton-Stoke Mandeville

Turning Bed يستخدم لمرضى الشلل الرباعي أو النصفي، ويساعد المريض في حركته (التقلب في السرير) وكذلك في حركة الرأس ورفعها.

هيكسهام. تضاعف المكان بالنسبة له وأصبحت مساحة العالم مساحة سريره. من ناحية أخرى، خلال تلك الأسابيع الاثني عشر الطويلة، كان لديه كل الوقت في العالم. يمكنه الاستلقاء طوال اليوم، وقضاء ساعات في التحدث إلى الأصدقاء، والاستماع إلى الراديو، والتفكير. لا يهم إذا تطلب الأمر خمس دقائق من التركيز الدقيق لإنجاز مهمة ما.

عندما يكون لديك الكثير من الوقت، فإنك تعاني من تضخم الوقت. يرتفع سعر كل ساعة، بسبب التكلفة التي تتطلبها أداء كل مهمة صغيرة، ولكن نظرًا لأن المهام طويلة وتستغرق ساعات طويلة، يبدو أن القيمة لكل ساعة على حدة تتدهور. التكلفة المتزايدة ترتبط بقيمة متناقصة. تصبح الساعات رخيصة مقارنة بالمهام الضرورية التي يجب استيعابها. لن تقاوم حينها ضد الساعة، ولكن ضد المهمة. لن تفكر في الوقت الذي تستغرقه، وإنما سيشغلك ما يتوجب القيام به. الوقت، الذي قاتلت ضده من قبل، يصبح ببساطة تيارًا للوعي الذي تعمل فيه. بالنسبة للصم المكفوفين، المكان محصور في أجسادهم، لكن لديهم الكثير من الوقت.

تسعى التكنولوجيا الحديثة إلى توسيع المكان للإنسان وضغط الزمان. من الجهة الأخرى، يرى الشخص المعاق أن

المكان ينكمش والزمان يتسع. ولأن المكان والزمان يتقاطعان في داخل الشخص الأعمى، تصبح حياته تدريجيًا مختلفة عن حياة المبصرين، لا سيّما في زمن التكنولوجيا المتقدمة.

٢٧ أبريل

ما هو عالم الصوت؟ قضيتُ بعض الوقت في الخارج محاولاً الاستجابة للطبيعة الخاصة للعالم السمعي. أنا معجبٌ بالعديد من جوانب الواقع المُعاش، بنطاق وعمق نقاط التقاطع بيني وبين بعض الأشياء التي يخلقها الصّوت.

يؤسّس العالم الملموس العديدَ من نقاط الواقع التي يمكن أن يلمسها جسدي، ويبدو أن هذا مُقتصرٌ على عمليةٍ واحدةٍ في كلّ مرة. يمكنني استكشاف الشقوق على مقعد الحديقة بأطراف أصابعي، لكن لا يمكنني، في نفس الوقت، استكشاف الحصى بإصبع قدمي الكبير. يمكنني استخدام أصابعي العشرة لاستكشاف شكل شيء ما، ولكن من الصعب جدًا استكشاف شيئين في ذات الوقت، شيء في كل يد. صحيحٌ أنه إذا نكزني أكثر من شخصٍ، فإنني أشعر بكل النكزات في أجزاءٍ مختلفةٍ من جسدي، لكن هذا لن يخبرني كثيرًا عن العالم، بل عن جسدي فقط.

العالم الذي يكشفه الصّوت مختلفٌ تمامًا. صحيح أنني لا أستطيع الاستماع إلى كتابين مختلفين مسجلين في ذات الوقت، لكن لذلك علاقة بالكلام. ما أفكر فيه هي الطريقة التي يضع بها الصوت المرة داخل العالم.

في يوم السبت المقدّس جلست في متنزه كانون هيل^(١) بينما كان الأطفال يلعبون. سمعتُ خطى المارة، أنواعًا مختلفة من الخطى. سمعتُ الصنادل، والأصوات الأكثر حدة، والأصوات الأكثر رقة للأحذية عالية الكعب. كانت هناك مجموعات تسير سوية بخطواتٍ مختلفة ما يخلق نوعًا من الطقطقة، تتبعهم خطوة واحدة، ثابتة، وواسعة، أو وقع خطواتٍ هرولة. كان هناك أطفال، يركضون في رشقاتٍ صغيرة، ويتوقفون للصعود أو النزول عن الدراجات ثلاثية العجلات أو السكوتر. جاءت الخطوات من كلا الجانبين. التقت واختلطت ثم انفصلت مرة أخرى. في المقعد المجاور، سمعت حفيف جريدة وهممة محادثة. أبعُد من ذلك، خلفي إلى اليمين، كانت مواقف السيارات. كانت السيارات تتوقّف وتشتغل، تصل وتنطلق، وكانت الأبواب تُغلق. بعيدًا إلى اليسار، كان الطريق الرئيسي. سمعت هديرًا ثابتًا للمرور العابر، السيارات

(1) Cannon Hill Park

والحافلات والشاحنات. كانت البحيرة أمامي مليئة بالطيور البرية. ميّزتُ أصوات البط والإوز، كانت هناك طيور أخرى لم أتمكن من التعرف عليها. سمعتُ رفيف الأجنحة، طرطشة وصباح الطيور وهي تطير وتهبط على الأسطح، أو تتقاتل على بقايا الخبز. شعرت برذاذٍ تنائر من قوارب التجديف، وسمعت صراخ أطفالٍ وصوت اصطدامٍ صغيرٍ لقارين متجاورين. نادى الآباء على اليابسة بعبارات التشجيع، وأحياناً التحذير. بعيداً، بعيداً عن امتداد البحيرة، سمعتُ خفيفاً وكثيلاً مختلفاً لقوارب عابرة. كان هناك من يلعب كرة القدم. سمعت صراخاً، وأقداماً راكضة، ووقع اصطدام القدم بجلدة الكرة. بدا أن هناك عدّة مجموعاتٍ تلعب ألعاباً مختلفة، حولي أطفال يلعبون، وفي ذلك الاتجاه مجموعة أخرى من الأطفال. في خلفية كل هذا المشهد، كانت الريح تُهسّس، والأشجار من ورائي بأوراقها تحفحف، والشجيرات على طول الممرات تخشخش، وبقايا الجرائد على طول الطريق تتطاير. اتكأت إلى الوراء وتجرّعتُ كل شيء. يا لها من بانوراما متنوّعة وثرية بالحركة والموسيقى والمعلومات المذهلة. كان ذلك ممتعاً ورائع الجمال.

مع ذلك، فإن الشيء الغريب في الأمر هو أنه كان عالماً لا شيء فيه سوى الحركة. كل صوتٍ نقطة للحركة والنشاط. وإن

لم يكن هناك شيء يحدث، يحلّ الضمت ويموت ذلك الجزء الصغير من العالم ويختفي. كان البطّ صامتًا. هل رحل أم ثمة شيء ما استحوذ على انتباهه؟ وصل القارب للاستراحة. هل كان الرُّكَّاب متكئين على المجاديف، أم أنهم ربطوها بحافة المركب ورحلوا بعيدًا؟ لم يمر أحدٌ من أمامي. هذا يعني أن ممّر المشاة ذاته قد اختفى. لا يمكنني سوى تذكير نفسي باتجاه الممر، باعتباره مُوازياً للدّكة التي جلست عليها. حتى حركة المرور على الطريق الرئيسي توقفت مؤقتًا. هل كانت أضواء الإشارة حمراء؟ ما أن تركن الأشياء إلى الراحة حتى تزول من الوجود. أن تكون في راحة؛ إذا أنت لست موجود. أن تفعل؛ إذا أنت موجود. عالمي ليس عالم الكينونة^(١). إنه عالم من الصيرورة^(٢). عالم الكينونة، العالم الصامت الساكن حيث الأشياء ببساطة، وهذا غير موجود بالنسبة لي. الجُنيّة، الشُّرادق، المظَلّ من ناطحة سحاب، سارية العلم على أرض الكريكت، لا شيء من ذلك موجود حقًا. عالم الأحداث والحركة والصراع، هو عالمي الموجود.

العالم السّمعي هو العالم الذي تمرّ فيه الأشياء وتخرج من

(١) أو عالمي ليس عالم الوجود Mine is not a world of being

(2) it is a world of becoming.

الوجود. يحدث ذلك بسرعة مذهشة. يبدو أنه لا توجد منطقة تتوسط حدوث ذلك. ثمة صرخة مفاجئة من البحيرة: «أهلا يا أبي!»؛ أطفالي الآن هنا في قارب التجديف الخاص بهم. في السابق ومنذ لحظة، لم يكونوا هناك، حتى خاطبوني بصرخة وتحيّة وتمكّنت من تمييزهم من بقية الأصوات. لم تكن عملية تدريجية الحدوث. العالم الذي يخاطبني بهذه الطريقة هو عالم فاعل، أما أنا مجرد فرد غير فاعل. لا أستطيع إيقاف هذه المؤثرات التي تغمرني. كلّ ما أفعله هو الجلوس. الكائنات التي تصدرُ الضوضاء وحدها التي تشارك في الأنشطة. عليهم أن يكشطوا، يخطوا، ينقروا، يضربوا السطح بالسطح، يؤثروا، يجعلوا حبالهم الصوتية تهتز. عليهم أن يأخذوا زمام المبادرة في إعلان حضورهم لي. من ناحيتي، ليس لدي القوة لاستكشافهم. لا أستطيع اختراقهم أو التعرّف عليهم بدون تعاونهم النشط. عليهم أن ينطقوا بأصواتهم ويتحدّثوا. إنّه عالم يأتي إليّ، تنبع الحياة فيه من أجلي، ولا وجود له إلّا بالحياة التي يوجهها إليّ.

تُعَدّ الطبيعة المتقطّعة للعالم السّمعِي واحدة من أكثر ميزاته إثارة. في المقابل، فإنّ العالم المُدْرَك مستقرّ ومستمرّ. لا يمكن للعالم المرئي أن يهرب من عينيك. حتى في الظلام، يمكنك

استخدام كشاف وإجبار الأشياء على الظهور، لكن ليس لدي سوى قدرة محدودة للتحكم في العالم المسموع.

إليكُم ميزة أخرى للعالم السمعي: أنه يبقى كما هو بغضّ النظر عن الطريقة التي أدير بها رأسي. هذا لا ينطبق على العالم المُدرك، والذي يتغير عندما أدير رأسي. أشياء جديدة تظهر عندما أفعل ذلك. المنظر الذي أدركه في هذه الناحية يختلف تمامًا عن المنظر الذي أدركه في الناحية الأخرى. الأمر ليس كذلك مع الصوت. ليس هناك ضوضاء جديدة تلفت انتباهي وأنا أدير رأسي. قد أدلي رأسي على صدري؛ أو أتكى إلى الخلف وأواجه السماء. لا يوجد فرق يُذكر. ربما هناك تغيير طفيف في الجودة، لكن العالم السمعي مستقلٌ بشكل أساسي عن حركتي. هذا يزيد من شعور عدم الفاعلية. عوضًا عن الاضطرار إلى البحث عن الأشياء واكتشاف أجزاء جديدة من عالمي بمجهودٍ الخاص، بينما أقوم بتحويل نظراتي هنا وهناك، في العالم السمعي ثمة شيء غير مبالٍ لمحاولة اختراقه. إنه عالمٌ لا أستطيع إقفاله، إنه يتشّير من حولي ويستمرّ في ملكوته. يمكنني بالطبع تدريب نفسي على الاهتمام به؛ يمكنني أن أتعلّم التمييز بين هذا الصوت وذاك، وأن أصبح أكثر احترافية في الحكم على المسافة وما إلى ذلك. ومع ذلك، تظلُّ أدنّاي

مُثَبَّتَانِ فِي رَأْسٍ ثَابِتٍ، فِي حِينِ أَنْ عَيْنَيَّ، إِذَا كَانَ بِإِمْكَانِي
الرُّوْيَةَ، تَرشُقَانِ التَّظْرَ هُنَا وَهَنَاكَ بِحَرَكَاتٍ لَا حَضَرَ لَهَا فِي رَأْسِي
الْمُتَحَرِّكِ.

الفضاء الصوتي عالمٌ من التجلي.

١ مايو

الليلة الماضية حلمت أنني كنت في حانة. كُنَّا أَنَا وَمَارْلِين
نمارس الحب. تغيّر المشهد إلى البار المُزْدَحَم، ثُمَّ سَمِعْتُ
إِعْلَانًا عَبرَ مَكْبَرَاتِ الصَّوْتِ: «الرجاء من الرّجل الأعمى في
الحانة القدوم على الفور؛ لأن زوجته وابنته تعرضا لحادث.»
تكرّر الإشعار. في الحلم كنت أشاهد صورةً لنفسِي، مَمْسُكًا
بِالعَصَا البِيضَاءِ، وَأَنَا أَسْتَمِعُ الْإِشْعَارَ، كُنْتُ قَلَقًا وَمَشْوَشًا. فِي
المرّة الثانية تكرّر الإشعار مرّتين. ثُمَّ وَجَدْتُ نَفْسِي عِنْدَ الْبَابِ
الْخَلْفِيِّ لِلْحَانَةِ. كَانَتْ سَيَارَةُ مَارْلِينِ وَإِيمُوجِينِ فِي نَهَايَةِ الشَّارِعِ.
لَمْ أَسْتَطِعِ الْوُصُولَ إِلَيْهِمَا بِالسَّعْرَةِ الْكَافِيَةِ. انْفَجَرَتْ صَرْخَةٌ مِنْ
شَفْطِي: «مِيج! إِيْمِي!»، ثُمَّ وَجَدْتُ نَفْسِي دَاخِلَ السَّيَّارَةِ، لَا أَعْرِفُ
مَا إِذَا كُنْتُ قَدَّمْتُ الْمُسَاعَدَةَ لَهُمَا أَمْ لَا. كُلُّ شَيْءٍ كَانَ عَلَى مَا
يَرَامُ. لَقَدْ كَانَ إِنْذَارًا كَاذِبًا. كَانَتْ إِيْمُوجِينِ وَمَارْلِينِ بِخَيْرِ.
أَخْبَرْتُهُمَا عَنِ الْإِعْلَانِ فِي الْحَانَةِ، لَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ.

شاهدتُ نفسي في هذا الحلم باعتباري رجلًا أعمى، رأيتني ممسكًا بالعصا يعتريني الذعر لعدم قدرتي على الوصول بسرعة كافية لأحبائي في محتهم. ومع ذلك، لم يكن من الواضح ما إذا كنت قد وصلت إليهم بنفسي أم أن أحدًا ساعدني، لكن يبدو أنني كنت قادرًا للوصول إليهم بنفسي.

كان الموضوع الرئيسي في الحلم هو الخوف من فقدان مارلين بسبب عماي. من الواضح أن ذلك لم يحدث بحسب المشاهد الأخيرة في الحلم. هكذا كان حلمي.

هذا حلمٌ عن العمى، وكذلك حلمٌ شخصٍ أعمى.

٨ مايو

يوم الخميس الماضي، اصطحبني إحدى صديقاتي إلى المنزل بعد الانتهاء من اجتماع. سألتها ما إذا كانت تمنع الوقوف عند أحد المطاعم الهندية لرغبتني بوجبة جاهزة من هناك. أوقفنا سيارتنا على الخطوط الصفراء المزدوجة خارج أحد المطاعم في شارع بريستول، ساعدني صديقتي حتى باب المطعم حيث التقينا برجلٍ لطيفٍ، بدا وكأنه شخصٌ يُدير المكان. عادت صديقتي إلى سيارتها المتوقفة ورافقني أحد أفراد الطاقم إلى الطاولة. قدّم مُرافقني نفسه على أنه مُضيفٌ

وفَتَّان يعمل كل مساءً في المطعم. قال إن اسمه كان يَينِيتو لويجي، وأوضح أنه ليس هنديًا وإنما من صقلية، وعلى الرغم من كونه فنانًا وساحرًا ومُشعوذًا، إلا أنه كان معالجًا بالتنويم المغناطيسي في الأساس.

سألني ما إذا كان صديقتي ترغب في الدخول لتناول فنجانٍ من القهوة، أَكُذِّلي أننا سنكون بأمان، ونادى صديقتي من سيارتها وقَدِّم لنا القهوة، ثم بدأ بتسلُّيتها من خلال وصف أعماله وتخصَّصاته.

انتقل إليّ وسألني ما إذا كنت أمانع الإجابة على بعض الأسئلة الشَّخصية. عرفت لحظتها ما سيأتي من أسئلة، وكنت على استعدادٍ لذلك. سألني ما إذا كنت أعمى تمامًا، ومتى أصبت بالعمى، وكيف حصلَ ذلك، وما إذا كنت راضيًا تمامًا ومقتنعًا بأن لا شيء يمكن عمله. قال لي بطيب تية: إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن أتمناه الآن، هو قوة إرادتي. وأن بصري يعتمد على إرادتي، وإمكانه، من خلال العلاج بالتنويم المغناطيسي، استعادة إرادتي وتقويتها.

سألت لويجي ما إذا كان بإمكانه استعادة أحد الأطراف التي فُقدت في حادث طريق. أجاب: «لا»، أشرتُ إلى أن عيني تشبه ذلك إلى حدٍّ ما. يبدو أن ذلك جعله يفكر قليلًا.

سأل متردداً: «أليس لديك عينان؟ هل اختفتا؟». نزعَتْ نظارتني لأُريه عيني اليسرى، وهي بيضاء بالكامل. أخبرته أن هذه ليست عيناً طبيعيتين. مكوّناتٌ مهمة وضرورية أُتلفت وأُزيلت. وقلتُ: إنّ عدسة عيني قد اختفت، وأن الشبكية في كلتا العينين تالفة منذ وقتٍ طويل. قوة الإرادة لا تستطيع استعادة هذه المكوّنات المادية، تماماً كعدم استطاعتها أن تجعل ذراعاً جديدةً تنمو.

قال لويجي أن لا شيء يبعث على الخوف، وأنه قد قام ببعض العلاجات والجلسات الرائعة لحالات متأخرة ومنها السرطان. «أنت لست معالِجاً للتنويم المغناطيسي. أنت معالِجُ إيماني!» قلت له. استنجد برفيقتي وسألها عن رأيها في الموضوع. كانت تميل إلى الاتفاق معي. أوضحت أن هذه ليست حالة إرادة ضعيفة، بل حالة خللٍ تركيبي. ربّما لاحظ لويجي أن طعامنا كان على وشك الوصول، قام بمحاولةٍ أخيرة: «لكن كل ما تحتاجه هو قوة الإرادة! ألا تمتلك قوة الإرادة؟ ألا تريد أن يعود إليك بصرُك؟».

قلت ضاحكاً على النكتة: «بالطبع أريد أن يعود بصري». «ولكن، من ناحيةٍ أخرى، لا تسعى فهمي. أنا شخصٌ قانع».

أجابني: «أرى أنك راضٍ. نعم، أرى أنك تضحك كثيرًا، أنت رجلٌ سعيد. مع ذلك، لا بد وأنتك ترغب في استعادة بصرك».

وافقته، وفي تلك اللحظة وصل طعامنا. أعطاني لويجي بطاقة عمله، وقمنا بتوديع بعضنا. في الطريق إلى المنزل، في السيارة، ناقشت أنا وصديقتي هذه الحادثة المسلية. كانت مسرورةً بهذه المعرفة الجديدة، مستمتعةً بظرافته وسحره. استغربت فكرة أن يكون المرء متوهمًا مغناطيسيًا، وتساءلت عما سيكون عليه الأمر. عندما توقفنا خارج المنزل. سألتني بنبرة مترددة، ولكن فضولية: «جون، ماذا عنك؟ لماذا لم تقبل بعرضه؟ ما الضرر الذي يمكن أن يحصل؟ هل تعتقد أنك وصلت إلى النقطة التي لا تريد فيها استعادة نظرك؟».

فوجئت بهذا، وقلت: «كيف يمكنك أن تقول ذلك؟ بالطبع أريد لبصري أن يعود! لن أقبل أبدًا فقدان البصر».

سألت: «لكن يا جون، يبدو أنك تأقلمت بشكل جيد مع ذلك. تبدو دائمًا رزينًا جدًا، وسعيد جدًا، ويبدو أنك تمارس حياتك بشكل جيد».

قلت بحرارة: «أنت لا تعرفين نصف الحقيقة، لن أقبل أبدًا

بالخسائر الإنسانية التي تترتب على العمى، ولن أقبل أبدًا بالمساعدة العبثية من ذلك النوع، من تلك الجهات خصوصًا. ألا ترين أنني أجد الأمر أكثر إهانة، وأكثر إذلالًا، وأنه سيكون محض خيانة لأي شجاعة أو كرامة تبقت لدي؟ ثمة مواقف في الحياة يتعين عليك فيها خوضَ حرب ضد اليأس، حرب طويلة الأمد، ولكنها كريمة، عليك ألا تسمح لعاطفتك أن تستبعدك لأولئك الذين يروجون آمالًا زائفة».

لم يكن لهذه الجمّل من النقاش تأثيرًا كبيرًا. لا تزال صديقتي المخلصة والودودة تميل إلى الاعتقاد بأن الأمر مزيجٌ من الفخر والرضا عن النفس وذلك ما منعتني عن قبول مثل ذلك العرض غير المؤذي. من ناحيتي، سأواصل باستعارة عسكرية، إذا كان العمى سيهزمني، فإنني أفضل أن أكون مقتولًا بجروح على صدري وليس في ظهري.

٩ مايو

في الكنيسة يوم الأحد الماضي، التقينا مرةً أخرى بصديقنا المعالج الإيماني، السيد كريسويل. ربما أنني أصبحت شديد المراس إلى حدٍّ ما هذه الفترة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى لقائي مع معالج التنويم المغناطيسي في المطعم الهندي، وجزئيًا لأن

مارلين جعلتني أتناول بضع ملاعق من زيت كبِد سمك القد الممزوج بالعسل، وقد كنت أعارضها قليلاً ورفضت تناول المزيد.

جاء السيد كريسويل وبطريقة مَرِحَةٍ صافحني، وسألني كيف كانت الأمور. من الواضح أنه لم يكن مهتماً جداً بما كانت عليه الأمور؛ لأنني أفترض أن العصا البيضاء التي كنت أحملها تحكي كلّ الأمور، لكنه اعتذر عن عدم زيارته لنا بعد لقائنا الأخير، ثم قال إنه تلقى كلمة من الرب بخصوصي. كانت الرسالة هي أن الرب أمرني بالحصول على كتابٍ مقدّس صغيرٍ وحمله في جيبِي على الدوام. من الآن فصاعداً، يجب أن تكون كلمة الله معي دائماً، يجب أن تذهب معي أينما ذهبت، وهذا ما قاله الله: «دع الكلمة تذهب معك».

قلت: «أنا آسف سيد كريسويل، لكنني لست مستعداً للقيام بذلك. لدي الكثير من الأشياء لأضعها في جيبِي ولست مستعداً لمراكمة المزيد. أحمل كلمة الله دائماً في رأسي وقلبي، ولا أرى أي فائدة من حملها في جيبِي أيضاً».

أصبح السيد كريسويل أكثر ليونة، ولكن أكثر مباشرة، وقال لي: إن الله كان يخبرني بالأمر البسيط الذي عليّ أن أفعله الآن

لاستعادة بصري، وإذا لم أكن مستعدًا لطاعته، فلا ينبغي أن أتفاجأ إذا لم يعد لي بصري. كانت الخطيئة سبب العمى، وهي سبب كل الأمراض، والخطيئة تكمن أيضًا في ممانعة وكبرياء الجنس البشري ورفض طاعة كلمة الله، ورفض القيام بالأشياء البسيطة التي يقولها الله.

قلت: «سيد كريسويل، أرى أن لدينا أفكارًا مختلفة جدًا عن الله، وعن الخطيئة والبصر. لا أقبل أيًا من أفكارك حول هذه الأشياء. سواء كنا نعيش أو نموت، نحن في عناية الرب دائمًا، ولست مستعدًا لأن أكون تحت أي ضغط عاطفي بالقيام بكل هذه الأشياء الغريبة أسبوعًا تلو أسبوع. أنت تنصحني بقبول ممارسات خرافية سحرية».

«لا، لا»، قال معاتبًا: «هذه هي كلمات الرب!».

لحق بي في المعمر، حيث كنت أنا ومارلين نشق طريقنا نحو الباب، محذرين من أنني أسلك طريقًا خطيرًا للغاية ولن أجد الشفاء بهذه الطريقة.

عندما ركبنا السيارة، شعرت بالأسف قليلًا لأنني، ربما، أظهرت نوعًا من الجفاء لرجل لطيف وحسن النية بقولي للحقيقة بشكل مباشر للغاية، لكن من ناحية أخرى، كما أخبرت

مارلين، لا يمكّني السّماح لنفسي بأن أكون في موضع ابتزازٍ
بفعل كل هذه الأشياء غير المنطقية وبلاستسلام للأمالِ غير
المجدية.

١١ مايو

كنت أسير إلى المنزل بعد درسٍ مسائي. كان ذلك بعد
الساعة الثامنة بقليل. لم يكن هناك الكثير من الحركة حول
الحرم الجامعي. سمعت أقدامًا تجري وتقترب، توقّفت ربّما
على بُعْد عشرين ياردة. صاح صوت ذكوريٍّ هائجٍ وأجش،
مشحونٌ بالغضب والضعيفة: «هل أنت أعمى يا صاح؟ أنت
لست أعمى! كيف أصبحت أعمى؟ أنت لست أعمى!».

فوجئت من أسلوبه الفظ ومن طريقة استجوابه، وقفت بلا
حرك. انتظرت لحظةً، في صمت، أنساءل ما إذا كنت سأجيب.
مرةً أخرى، بصق سؤاله: «هل أنت أعمى؟».

بهدهوء، على أمل أن يكون صوتي متماسكًا وواضحًا،
أجبت: «نعم، أنا أعمى».

شعرت أنه يقترب مني. قال في غضبةٍ: «أيها الوغد اللعين
القذر! أنت لست أعمى! كيف أصبحت أعمى؟ لا يمكن أن
تكون أعمى!».

أجبتة: «لا، أنت مخطئ. أنا أعمى».

حاولت مقاومة الدافع الذي كان يحثني عل رفع حقيتي ووضعها على صدري، لشعوري بأنه على وشك الهجوم علي، أو لكُمي، لمعرفة ما إذا كنت أعمى أم لا. ربّما يريد معرفة ما إذا كنت سأحني رأسي أم لا. مع ذلك، قاومت الوسوسة، وبقيت ساكنًا تمامًا، أنظرُ في اتجاهه؛ لأنني اعتقدت أن أي علامة تشير لتؤثري قد تشجعه على مهاجمتي. بدا وأنه تحوّل إلى اليسار قليلًا، وعندما تحدّث مرةً أخرى كان بعيدًا. صرخ مرةً أخرى بنفس نبرة الغضب الخبيثة، البغيضة «أنت لست أعمى! كيف أصبحت أعمى؟»، ومن مسافةٍ أبعد، ردّد «أنت لست أعمى!»، ثم اختفى.

كنت، بطبيعة الحال، متردّدًا بعض الشيء بشأن المضي في طريقي. ماذا لو عاد ووقف أمامي على بُعد بضعة أقدام فقط؟ انتظرت للحظاتٍ أخرى لأراقب ما إذا كان سيصرخ مرةً أخرى. ثم أدركت أن هناك سيارة متوقّفة على الجانب الآخر من الطريق الذي كنت أسير فيه. شعرت بأن السائق قد نزل من سيارته خلال الحادثة، ولم يُعذ إليها. سمعته يتمتم إلى الشخص الذي كان معه: «سخيفٌ ذلك الفتى! ما الذي كان يريد أن ليتحدّث معه بتلك الطريقة؟».

اعتبرت أنه كان يشير إلى المُعتدي، وليس لي، أبدى
مساعدته لي قائلاً: «هل رحل؟».

ثم سألني السائق في أي طريق أسير. أسأتُ فهمه، معتقداً أنه
يقترح علي توصيلة. قلت: «أوه، كل شيء على ما يُرام، سأندبر
الأمر، شكرًا جزيلًا لك. لقد راعني صوته قليلاً، هذا كل شيء».

سأل مرة أخرى: «لا، في أي اتجاه أنت ذاهب؟».

«أنا متّجهٌ إلى الأمام مباشرة، إلى طريق بريستول».

«أوه، أنت بخير. لقد ذهب في الاتجاه المعاكس».

سألته: «من هو؟».

«لا أعرف».

«كيف يبدو؟ هل كان ثَملاً أو شيئاً من هذا القبيل؟».

«لا أعرف، لا أستطيع أن أقول».

شكرت السائق على مساعدته وذهبت في طريقي.

قبل عامين أو ثلاثة أعوام، عندما كان بصري ضعيفاً، كنت
أسير في متاجر سيلبي أوك^(١) ذات ليلة عندما عبرت شارعاً

(١) متاجر سيلبي أوك Selly Oak shops، مجموعة من المتاجر الواقعة
بالقرب من متنزه سيلبي أوك وجامعة برمنغهام.

جانبياً، وصاح أحدهم على بعد خطواتٍ قليلةٍ من ورائي «انظر، يا صديقي! هناك سيارة! توقف!»؛ توقفت فوراً وإلى حدٍّ ما، فرعت لأنني لم أسمع أي شيءٍ قادم. عدت خطوةً إلى الوراء نحو الرصيف الذي أتيت منه. تحدث صوتٌ ثانٍ «كل شيءٍ على ما يرام يا صديقي، إنه يمزح فقط. يمكنك العبور.» لم أنظر حولي أو أبدي أي لفظةٍ للاعتراف أو الشكر، وإنما استأنفت طريقي حفاظاً على وجاهتي. كان هؤلاء مجرد شباب صغار يحظون ببعض المرح، وكنت الرجل الذي يبدو غريباً في الحرم الجامعي. أخبرني صديقٌ أعمى يكسب رزقه بالعمل في مراكز التسوق أنه كثيراً ما يُهاجم من الشباب الذين يتهمون بالاحتيال. لم يسبق لي أن مررت بتلك التجربة من قبل.

١٧ يونيو

ما الذي يبعث على هذا الشعور بالتوتر بعد عدة أيام من الابتعاد عن العمل أو عن مكتبي؟ توترٌ يتراكم ويتحول إلى شعورٍ قويٍّ من التنغيص والقلق ثم الاكتئاب. يصبح هذا مقلماً جداً لدرجة أنه موجهٌ تقريباً.

إلى حدٍّ ما، أعتقد أن هذا هو الإحباط الناجم عن وجود الأطفال. في هذه الحالة، أصبح أكثر وعياً بالعمى. ربما يكون

هناك عامل آخر، وهو أن أي شخص أعمى، إلى حد ما، محروم من المعلومات. تقصّر وتنقص عني الحقائق، ويطلب عقلي شيئًا جديدًا لمعرفته.

يمكن أن أنغمس فجأة في مثل هذه المشاعر من الحرمان بسبب بعض الأحداث الصغيرة. بينما كنا نعبّر الطريق من موقف السيارات إلى مدخل المطار في ذلك اليوم، صرخت: «هل هناك من يمسك بيد ليزي؟»، ونحن نهرع لتجاوز الطريق، تجاهلت العائلة سؤالني ببساطة. كان ذلك منطقيًا تمامًا بالنسبة لهم؛ لأنها كانت لحظات الوصول بأمان إلى الرصيف، وليس لبدء مناقشة من كان يمسك بيد من. شعرت فجأة بانفلات الأشياء من حولي، وأن قدرتي على مراقبة ليزي قد تحطمت، وأنه لا جدوى من محاولة الاعتناء بها أو الانزعاج بشأنها. ما الهدف الذي أرتجيه، وجدت نفسي أتساءل عنها، وماذا تفعل، وهل هي بأمان؟ كنت مجرد كتلة من الدهون تُنقل من مكان لآخر.

من ناحية أخرى، حضرت قبل أيام مؤتمرًا في لندن حيث وجدت عددًا من الأشخاص الذين أعرفهم. كنت أقابل أصدقاء قدامى طوال اليوم، وأتعرّف على زملاء جدد، وأطلع على

بعض الأخبار حول أحداثٍ مختلفة، وأستكشف آخر التطورات في عملي. لم يكن لدي الوقت الكافي لأدرك أنني كنت أعمى، ومرّ اليوم سريعاً.

ما يؤثر علي هي التجربة التراكمية لوجود العمى الذي لا مفرّ منه. قد يكون لافتقار السيطرة دوراً أيضاً، وقد يكون هذا هو السبب في أنني أجده مرهقاً جداً. أجدُ الانتعاش في العمل الفكري، ويرجع ذلك جزئياً إلى أنني أستطيع أن أنسى تماماً أنني أعمى. يبدو أن المتطلبات الاجتماعية للحياة العامة والمتطلبات الشخصية للحياة الأسرية تخلق العديد من المواقف التي لا أصبح فيها مدركاً فحسب، بل مدركاً بشكلٍ موجه للعمى. ومع ذلك، فإن مثل هذه التجارب، بشكلٍ عام، ليست شائعة ولا حادة كما كانت قبل ستة أشهر.

البحر والريح

صيف ١٩٨٤

١٩ يونيو

إذا كان الأعمى يعيش في الزمان، فإن الأصم يعيش في المكان. يقيس الأصم الزمن برؤية الحركة. ومع ذلك، إذا نظر الأصم إلى عالم لا حركة فيه، مثل منظر النجوم، أو شارع مهجور، أو جبل لا يتزحزح، فثمة شعور بالأبدية، ثمة تواؤم ساكن. بفقدان هذا النوع من الشعور بالمكان، يصبح لدى المكفوفين شعورٌ أقل بالثبات والدوام. عالم المكفوفين سريع الزوال؛ لأن الأصوات تأتي وتذهب.

ضع في اعتبارك أهمية العلاقة بين الجسد والزمن بالنسبة للمكفوفين. الشخص الأصم الذي يسير إلى المنزل لا يواجه أي مشاكل في توقيت النقطة التي يغادر فيها الممشى العام ويدخل منزله، فهو يضع جسده في عددٍ من صور بيئته والتي

تكون مُتَّسِقَةً إِلَى حَدٍّ مَا مِنْ يَوْمٍ لآخر. عندما تظهر أمامه صورةٌ معيّنة مثل شكل منزله، أو لون بابه الأمامي، سيعرف الطريق الذي عليه أن يسلكه. أمّا الأعمى، فهذا الشعور بالوجود في مكانٍ ما أَقْلُ وضوحًا.

دعونا نأخذ مثالًا على توقيت الجسد الداخلي. منذ عدة أيام وأنا أتجاوز (أتعدّي) الباب الأمامي للمنزل بحوالي ٤٠ ياردة، وهي المسافة التي يشغلها منزلٌ بأكمله تقريبًا. لم أتمكن من معرفة سبب قيامي بذلك، لكنني كُثِرَتْ ذلك عدة مرّاتٍ في الأسبوع. منزلي على بعد حوالي مئة ياردة من زاوية المبنى. عندما أكون في الجزء الأخير من الطريق إلى المنزل، أستطيع تقدير المسافة المتبقّية. لا أحسب الخطوات، لكنني أَقْدِرُ الجُهد الذي عليّ أن أقوم به حتّى أصِل. عادةً ما أقوم بنقر السياج على امتداد الرّصيف، وهذا يعطيني كل العلامات التي أحتاجها حول موقعني الدقيق، ولكن، حتّى لو كنت أسير برفقة شخصٍ آخر وليس لدي أي اتصال بالسياج، أستطيع تقدير المسافة.

حاليًا، المنزل الثاني بعد الزاوية يرّم سقفاً جديدًا، والممر مسدودٌ بمخلّفاتٍ من مواد البناء. من الواضح أن ساعة جسدي تعيد ضبط نفسها مرّةً أخرى بعد هذا التدخل في مساري،

لتسمح لي مرة أخرى بتقدير المسافة المتوقعة. كنتُ أخطئ
وأتجاوز المسافة الصحيحة بنفس عدد البلاطات التي كانت
تشغلها مخلفات البناء على ممر المشاة. بالنسبة للمكفوفين،
المنزل موجود فقط بسبب خبرة سابقة. تتقلص المساحة لتصبح
جسد المرء فقط، ولا يُعرف موضع الجسد بالأشياء التي يمرُّ
بقربها، وإنما بالمدة التي قضاها في الحركة. وهكذا يُقاس
الموقع ويتحدّد المكان بالزمن.

دعونا نأخذ مثلاً آخر. الصفحة في الكتاب المطبوع تشغل
مساحة معينة. عندما تقرأ بعينيك، تعبر هذه المساحة حتى
تُغطّيها بالكامل، ثم تقلب الصفحة لتواجه مساحةً أخرى
وهكذا. ينطبق الشيء نفسه على القراءة بطريقة برايل. لكن
الكتب المسجلة على أشرطة مجرّد كلام، يتحرك دائماً، ويُقاس
بالوقت. قد نقول: إن مشكلة المؤلف الأعمى الذي لا يستخدم
طريقة برايل هي تحديد الوقت الذي يوازي ما يفعله المؤلف
المُبصر في مساحة الصفحة.

هذا يقودنا إلى الاختلاف في إدراك الأعمى للناس. بالنسبة
للأصم، للناس حضور مستديم. إنهم موجودون هناك طوال
الوقت وكل يوم. بالنسبة للمكفوفين، لن يكون الناس موجودين

ما لم يتحدثوا. في كثير من الأحيان، أتابع المحادثة مع صديق مُبصر وأكتشف لاحقاً أنه غير موجود. ربما يكون قد ابتعد دون أن يخبرني، أو قد يكون هز رأسه، أو ابتسم معتقداً أن المحادثة قد انتهت، لكنه من وجهة نظري، اختفى فجأة.

عندما تكون أعمى، يَشُدُّ أحدهم يدك فجأة، أو يخاطبك صوت فجأة. ليس هناك توقع أو تحضير، وليس هناك مكان لتختبئ فيه. لا يمكنك أن تخفض رأسك. مقبوضٌ علي والجميع يستقبلني. أنا غير فاعلٍ في حضور ما يقترب مني. لا أستطيع الهروب منه. يمكن للمُبصر أن يختار من يريد التحدث إليه وهو يتجول في الشارع أو السوق. الناس هناك ليختار منهم، ويمكنه أن يختار ما إذا كان سيحول هذا الحضور إلى علاقة أم لا بالتعرّف عليهم. بالنسبة للمكفوفين، الناس في حالة حركة دائمة، مؤقتون، يأتون ويذهبون. يخرجون من العدم. يختفون. مثل القديس أوغسطينوس^(١) الروح البشرية بقوله: إنها مثل طائر يصطدم في مبنى كبير، يخفق بجناحيه لبعض الوقت، ثم يجد مهرباً ويختفي. يبدو لي أن هذا تصوّرٍ للزيارة،

(١) القديس أوغسطينوس St Augustine عالم لاهوت وفيلسوف وأسقف من أصل نوميدي لاتيني ولد في طاغست (سوق أهراس، الجزائر). أثرت كتاباته في تطوّر الفلسفة والمسيحية الغربية (٣٥٤-٤٣٠).

لمباركة أحدهم لي بزيارته، وذلك مهمٌ جدًا في تجربة الأعمى وعلاقته بالآخر.

٣ يوليو

عُدْتُ لتوّي من مؤتمرٍ في أونتاريو. بذلتُ مجهودًا كبيرًا للتعرف على الثمانين أو نحو ذلك من الأشخاص الموجودين هناك. كنتُ إذا سمعت شخصًا يتحدث في إحدى الجلسات العامة، ولم أستطع التعرف على الصوت، أهرسُ إلى الشخص الذي بجواري، وأسأله عنه. فوجئتُ بعدد المرات التي لم يتمكن فيها جاري من معرفة المتحدث. يعرفون من المتحدث، يعرفون أنه الشخصُ الذي أجروا معه محادثة كذا وكذا، لكنهم لا يعرفون اسمه. حتّى في وقتٍ متأخّرٍ من المؤتمر، عندما كنتُ أعتقد أن معظمَ الناس قد تعرّفوا على بعضهم البعض، أجدُ أنني إذا طلبتُ من أحد المعارف أن يأخذني إلى أيّ شخصٍ يعرف اسمه في الغرفة، فقد لا يكون هناك أكثر من اثنين أو ثلاثة أشخاص معروفين أسماؤهم في غرفةٍ بها عشرين شخصًا. ناقشتُ هذا مع زميل، أشرتُ إلى أنّه من السهل نسبيًا على المبصر التعرف على مجموعةٍ مكوّنة من سبعين أو ثمانين شخصًا، بينما على الكفيف أن يبذل جهدًا أكبر لفعل ذلك. أجاب زميلي على أنّ افتراضاتي

حول كيفية تعرّف المبصرين على بعضهم البعض كانت خاطئة. لا يتعرف الناس، بشكل عام، على بعضهم البعض بالاسم. الاسم جزء من العملية، بالطبع، لكنه في جزئه الأكبر مجرد مجاملة. يتعرّف الأشخاص المبصرون على بعضهم البعض بالمظهر العام، بالأشياء التي تقولها أو تفعلها المعرفة الجديدة. المظهر وما يبدو عليه الشخص، هي تلك السمة التي تجمع كل العناصر سوياً. اسم الشخص مجرد عنصر إضافي من المعلومات، ولكن المظهر هو ذلك الجوهر المركزي الذي تجتمع حوله كل الأشياء.

بالنسبة لي، فإن معرفة شخص ما تتوقف على معرفة اسمه. معرفة الشوارع تعتمد على معرفة أسمائها. في الغالب لا يعرف المبصرون أسماء الشوارع التي يستخدمونها كل يوم. بالنسبة للمكفوفين، فإن اسم الشارع ضروري، حتى يتمكنوا من معرفة مواقعهم.

ومع ذلك، فإن اسم الشخص لا يخبرك كثيراً بما يمكن توقعه. يمكنك معرفة الجنس، والجنسية غالباً، وفي بعض الأحيان قد تتمكن من تخمين العمر، لكن يمكنك معرفة المزيد من مظهر شخص ما.

في أونتاريو، تعاملت مع من حولي بعد التعرّف على أسمائهم. قُرئت عليّ قائمة الأسماء مرارًا وتكرارًا، وتمكّنت ببساطة من طلب أسماء بعينها والتقيت بأصحابها. واصلت العمل على القائمة، اسمًا تلو آخر. لم أكن أتوقّع الكثير حتى سمعت الصوت وشعرت بقبضة اليد التي ستقترن في النهاية بذلك الاسم. الاسم هو الإشارة اللفظية التي تدور حولها تلك القصة بالذات.

عندما يقوم شخصٌ أعمى وآخر مبصر بتكوين صداقات، يشبه الأمر الفرق بين هاتين الحكايتين لتاجرين، الأول اكتشف لؤلؤةً بسعرٍ رائع، فباع كل ما لديه لشراء تلك اللؤلؤة، أمّا التاجر الثاني فهو مزارع حرث الحقل، واكتشف بالصدفة كنزًا مخفيًا. بعد أن شكّل الشخصُ المبصر صورة اللؤلؤة التي يبحث عنها، يتخذ الخطوات التالية لتعميق تلك الصداقة. بينما يكتشفُ الأعمى فجأةً الكنزَ في الحقل. بدون ترقّب، بدون تصوّر مُسبق، يلتقي بشخصٍ ما، يدخل معه في حوار ويكتشف قصةً جديدةً مفاجئة.

الأشخاص في المجموعة من حوله ليسوا حاضرين كما لو كانوا يشغلون حيّزًا من المساحة، أو ككتلٍ ملونةٍ إنّما كأصواتٍ

معلقة على ركائز متينة، إنهم حاضرون ينبثق من الماضي، ينبثق في الزمان وليس في المساحة والمكان. يتيح البصر للمرء أن يأخذ مقطعاً عرضياً من حياة شخص ما في اللحظة الراهنة. أما الأعمى فيأخذ مقطعاً طويلاً إلى الوراء وعبر الزمن. هذه ليست مجرد نظرة أطول لحياة الشخص، ولكنها نظرة تستغرق وقتاً أطول لاكتسابها.

٤ يوليو

أحد أصعب جوانب العمى هو أنه يجعل منك عنصراً غير فاعل عند التعرف على الناس، لا يجعل لك الاختيار بحرية مع من تريد التحدث. لست قادراً على تشكيل وجهة نظر عن شخص ما بشكل أفضل عند تحيته أو تحيتها، هذه المشكلة كانت ولا تزال تقلقني منذ أن فقدت بصري.

لقد طورت أساليب معينة للتعامل مع هذا. أمل أن تعيد إلي روح المبادرة في تكوين الصداقات الإنسانية والحفاظ عليها.

لنفترض أنني أتحدث مع شخص ما بعد الاجتماع، كيف يمكنني إنهاء المحادثة والانتقال إلى شخص آخر؟ للشخص المبصر العديد من الحيل الصغيرة المتاحة. يمكنه أن يقول: «أوه، عفواً، أريد فقط أن أتحدث في موضوع مع فلان.» لا يمكن

للشخص الأعمى أن يفعل ذلك، فليس لديه طريقة سهلة لمعرفة أن فلانًا موجودًا هناك. يمكن للشخص المبصر أن يقول: «سأعود بعد دقيقة. سأحصل على مشروبٍ آخر فقط». ليست الصعوبة في إنسحابي من المحادثة فقط، لكن حتى صديقي المُبصر يجد صعوبة في الانسحاب من الحديث معي كذلك. يشعر بالمسؤولية تجاهي. لا يمكنه التوقّف فجأةً وتَرْكي واقفًا هناك. إنه مأزق. كيف يمكننا الانسحاب والابتعاد عن بعضنا؟

عندما أشعر أن الوقت قد حان للتوقّف عن التحدّث إلى شخصٍ ما، أطلبُ منه ببساطةٍ إلقاءَ نظرةٍ في الغرفة وأخذي إلى شخصٍ آخر. معرفة أسماء الأشخاص الذين أريد التحدّث إليهم أمرٌ مهمٌ بالطبع. قد أقول: «حسنًا، سأذهب وأتحدّث إلى شخصٍ آخر الآن. هل يمكنك معرفة ما إذا كان فلانٌ هناك؟»، هذا ليس جيدًا في رأيي. فقد يستغرق الأمر من صديقي وقتًا طويلاً حتى يجد شخصًا معينًا. إذا كان صديقي لا يعرف هذا الشخص، أو إذا تبين أن الشخص غير موجود، فأنا عالقٌ. أجد أنه من الأفضل أن أسأل: «هل يمكنك رؤية أي شخص تعرفه على الإطلاق؟»، عادةً ما يقول صديقي: «حسنًا، هناك فلانٌ وعُمره كذا وكذا»؛ أجيبه: «هل يمكن أن تأخذني إلى هناك وتقدّمني له؟». أكرّر هذه العملية كل مرّة.

بهذه الطريقة أتمكن من التحدث إلى عشرات الأشخاص خلال فترة استراحة تناول القهوة، خلال خمس عشرة دقيقة. أقابل أيضًا أشخاصًا جدًّا؛ لأن أصدقائي يعرفونني على من يعرفون.

تعمل هذه الطريقة بشكل أفضل في المواقف التي يكون فيها اجتماع منظم إلى حد ما لمجموعة الناس، على سبيل المثال: مجتمع أو كنيسة. تعمل الطريقة بشكل جيد في الاجتماعات المتخصصة مثل المؤتمرات، حيث يرتدي الأشخاص شارات الاسم، أو حيث يشارك كل شخص في المبنى في ذات الحدث. لكن هذه الطريقة تواجه مشكلات مختلفة، فهي تزيد من صعوبة وصول أي شخص إلي، والتحدث معي؛ نظرًا لأنني دائمًا أبدو منشغلًا في المحادثة، لا توجد المساحة الاجتماعية الطبيعية التي تجعل من الممكن التدخل والتعرف من خلالها. الكثير من الناس لا يجدون تبني النهج والأسلوب المباشر سهلًا: «عفوًا، سأتحدث مع جون الآن، إذا كنت لا تمانع».

إحدى الميزات المثيرة للاهتمام لهذه الطريقة هي الاختلافات الهائلة التي أجدها في مهارة من أطلب منهم المساعدة، بعضهم يقدم مساعدته بكل سلاسة، بعضهم الآخر يهرجنني ويصرخ: «عفوًا، بيل! يودّ جون هال أن يتحدث معك».

يتوقف بيل فجأة عن كل ما كان يفعله، ويأتي إلي قائلاً:
«نعم، جون، ما الأمر؟». الحقيقة هي أنه ليس لدي ما أقوله ليل
على وجه الخصوص. أردت فقط أن أصافحه وأسأله عن حاله.
حقيقة أن الطريقة نفسها مُتَقَصِّدة للغاية تجعل الناس يعتقدون
أنني أقصد التحدث إلى الشخص المذكور. مجموعة أخرى من
الناس لديهم غريزة طبيعية للمساعدة. لا يمكنهم فقط مناداة
خمسة أو ستة من الأسماء في تتابع سريع، ولكن يمكنهم تقديمي
إلى المحادثة الجديدة بطريقة في غاية الذوق. يبدو أنني اكتشفت
نوعاً من الكواشف، نوعاً من الفحوص الاجتماعية، والتي
تمكّنتني من اكتشاف أشياء معينة عن معارفي الجدد بسرعة كبيرة،
وبشكل موثوقٍ تمامًا غالبًا.

إنه لأمرٌ مروع، الاضطرار إلى تقديم مثل هذه المطالب إلى
الناس في كل وقت. ومع ذلك، يبدو أن البديل هو التهميش
الاجتماعي الكامل والسلبية.

٦ يوليو

عندما أذهب إلى العمل، ليس من غير المعتاد أن يسأل
الناس عما إذا كنت بحاجة إلى أي مساعدة. الحقيقة هي أنني
لست بحاجة إلى مساعدة في هذا الطريق. عادةً ما أقول: «شكراً

جزيلًا لك. أنا بخير تمامًا. أمّر من هنا كل يوم. شكرًا على عرضك».

أنا مُمتنٌّ دائمًا لمثل هذه العروض؛ لأنني أدركُ حقيقة أنني سأكون سعيدًا جدًا بمثل تلك المساعدة لو كنت على طريقٍ غير مألوف. قد لا يعرف من يقابلني من المبصرين، ما إذا كنت على أحد تلك الطرق المألوفة أم لا.

أحيانًا يكون الشخص الذي يعرض مساعدتي معروفًا لي. قد يكون جازًا، شخصًا يعمل في مكانٍ آخر من الجامعة، أو شخصًا التقيت به في مناسبة سابقة. عادةً ما أردُّ بالقول: «لست بحاجة إلى أي مساعدة؛ لأن هذا أحد مساراتي المعتادة، لكنني أسعدُ برفقتك والسير معك».

يحدث شيءٌ غريبٌ معي وأفقد استقلاليّتي بمجرد قبولي مرافقة أحد. ذلك لأن عليّ أن أضَع إصبعًا تحت مرفق رفيقي، لتحديد مكانه، والسير جنبًا إلى جنب بمحاذاته، حتى لا أصطدم به. أنا مثل المسافر المجاني. يتم جرّي، وأتحرك بسرعة أكبر مما اعتدتُ عليه.

عوضًا عن التلويح بالعصا من جانب إلى آخر أمامي، أمسك بالعصا بثبات، تمامًا أمامي، كحمايةٍ في حال نسي

صديقي إخباري بمكان عمود إنارة، أو ربما أطويها تحت ذراعي. أضف إلى ذلك، أننا نتحدث، إذا كنت تمشي برفقة شخصٍ ما عليك أن تتحدث. هذا يعني بالضرورة أنني لا أكرس كامل تركيزي للطريق الذي أسير فيه.

عندما أسير على امتداد مساري المعتاد، أتخيل في ذهني شاشةً عليها خريطة المنطقة، أنتحرك فيها مثل نقطة ضوء وأعود إليها باستمرار للتحقق من موقعي. ها أنا ذا، قادمٌ على إلى هذا الجزء من الطريق، عبرت التقاطع الآن، أنا على وشك عبور ذلك الطريق، ستكون هناك إشارات مرورٍ في الزاوية التالية. يجب أن لا أنسى موقعي أبدًا. سيكون ذلك كما لو أن الضوء انطفأ. أتتحقق باستمرار من موقعي على الخريطة، بالتعرف على التفاصيل الصغيرة والمألوفة. الرصيف أعلى قليلاً في هذه الزاوية. ممر المشاة أكثر انحناءً في هذا المكان. سطح الطريق هنا يختلف تمامًا عما كان عليه هناك. هنا تأتي تلك الرقعة الناعمة الصغيرة. هناك نقاط معينة في الطريق يتعين عليّ فيها حساب الخطوات لتجنب أعمدة الإنارة. كل ما سبق يتطلب اهتمامًا مستمرًا. إذا فقدت تركيزي للحظات، قد أخرج قليلاً عن مساري، قد أخطو على شيءٍ ما، قد أنحرف إلى طريقٍ مزدحم. لا يمكنني القيام بأيٍّ من هذا وإجراء محادثةٍ في ذات الوقت.

هذا يعني أن الشخص المبصر لا يمكنه ببساطة قبول رفقتي. لقد حرمني من استقلاليتي دون ارتكاب أي خطأ من جانبه.

دون ارتكاب أي خطأ من جانبي، ضحيت باستقلاليتي من أجل رفقته. لقد أصبح مسؤولاً عني. أصبح سيارة تجرّ عربة، وعلى عاتقه تقع مسؤولية التأكد من أن العربة التي يقطرها لا تزال موجودة، وأنتي لن انفصل عنه في نقطة حرجية من الطريق. عليه التأكد من وجود مُتَسَّحٍ عند المرور بين سيارتين متوقفتين، ليس له فقط، ولكن لكلينا. إذا كان يمشي بين أعمدة الإنارة ولم يتأكد من أنني أتبعه أيضًا، فإن اصطدامي بعمود الإنارة سيكون مسؤوليته. كل هذا يمكن أن يكون مقلقًا للغاية لعديمي الخبرة.

من السهل، في هذه الحالة، أن يفترض الشخص المبصر أن التعويل الذي يجد نفسه ملتزمًا به الآن، هو حالة عادية أو طبيعية. إنه يدرك أنني أعول عليه الآن في تنبيهي بوجود حاجزٍ ما في الطريق أو أعمدة إنارة، يجد صعوبة أكبر في تخيل أنه عندما أكون وحدي، يمكنني العمل على هذه التفاصيل بنفسني؛ لذلك فهو دائمًا ما يتعجل ويقدم المساعدة لي، عوضًا عن تقديم رغبته بمرافقتي؛ لأن مساعدته تنبئ من عجزني. يخلق العمي تباينًا غريبًا في أنماط التبعية والاستقلالية المألوفة.

بمجرد صعوده، يعتبر الدرج من أكثر الأماكن أماناً للمكفوفين. لن تجد كرسيًا على الدرج، أو دلوًا، أو قرميدًا. تظل الدرجات بنفس الارتفاع ثابتة في الدرج، دائمًا ما يوجد درابزين أو على الأقل جدار يمكن للمرء التمسك به. ربما يكون هناك بعض الزينة بشأن الدرجة العلوية والسفلية، ولكن تصبح المشكلة بسيطة باستخدام العصا البيضاء.

هذا يلتبس على معظم المبصرين، الذين يميلون إلى افتراض أن الدرج سيكون خطيرًا على المكفوفين. يعرف المبصرون أنهم في بعض الأحيان يتعثرون ويسقطون على الدرج، ويفترضون أنه إذا كان من المحتمل أن يتعثّر المبصر، فإن الشخص الكفيف بالضرورة يتعثّر.

من الشائع جدًا عند صعودي أو نزولي من الدرج أن يقوم دليلي ومرافقي المبصر بحساب عدد الدرجات بصوت عالٍ، مُفترضًا أن ذلك يعود لمصلحتي. الغريب أن هذا هو أحد المواقف القليلة التي تكون فيها المعرفة الإضافية عديمة النفع. يمكن للمرء، بالطبع، مصادفة درج هابط بشكل غير متوقع، ذلك سيكون خطيرًا على الشخص الأعمى كما هو الحال على

المُبصر، وبالتالي فإن الاقتراب من درج هابط هو لحظة غير مؤكدة. يحتاج الكفيف إلى معرفة أمرين: أولاً: أنه يقترب من الدرج، وثانياً: أن الدرج هابط. يبوح معظم المرافقين المبصرين عن الحقيقة الأولى، لكن الكثير منهم، وربما الأغلبية، ينسون الحقيقة الثانية. وجود الدرج واتجاهه أمران ضروريان، أما عدد الدرجات فهو أمر غير جوهري. إذا كنت أنزل في سلسلة من الدرجات التي تتقاطع مع المسطبات، فمن المفيد أن أعرف متى تكون آخر الدرجات، حتى أتمكن من الانطلاق بثقة مع دليلي، دون الاضطرار إلى التحقق بعكازتي باحثاً عن أول الدرجات للسلسلة القادمة. وبالمثل، عند الاقتراب من درج دائري، من المفيد معرفة ما إذا كان ينحني في اتجاه عقارب الساعة أو عكس اتجاه عقارب الساعة. يمكن للدرج أن يأخذ منعطفاً غير متوقع بطريقة أو بأخرى، ويكون ذلك واضح على الحافة الخارجية للدرج. بشكل عام، الدرج تصميم يمكن التنبؤ به، وينطبق الشيء نفسه على المصاعد والسلالم المتحركة.

ما يجده المكفوفون صعباً هي المساحات المفتوحة البسيطة. يفترض الكثير من المبصرين أن هذه المساحات هي الأفضل للمكفوفين، لانعدام أسباب التعثر فيها. ومع ذلك، من وجهة نظر الأعمى، فإن المساحة المسطحة المفتوحة صعبة

وغير قابلة للتفاوض، لانعدام إشارات الإرشاد والتوجيه فيها، لانعدام التصاميم التي يمكن التنبؤ بها. مساحات قد تنتهي في أي لحظة ولا توجد طريقة لمعرفة مكانك فيها. مشكلة الكفيف ليست السقوط، بل معرفة مكانه. لهذا السبب، من الأسهل أن أجدَ طريقي حول الحرم الجامعي المُكوّن من الخطوات والدرجات المتنوعة، من التلال والوديان الصغيرة والجدران المنخفضة والكثير من الأرضيات المختلفة؛ لأنني أستطيع تحديد وتقسيم طريقي. يصبح التصميم تسلسلاً عندما أنحرّك خلاله.

دعونا نأخذ مثالاً آخر على هيكل وتصميم لا يمكن التنبؤ به. أحياناً وأثناء عبوري الباحة الأمامية تعترض طريقي سيارات متوقفة في زوايا مختلفة عن بعضها البعض. لا يكمن الخطر في أنني قد اصطدم بسيارة، ولكن في احتمالية ضياعي. يصطدم المكفوفون أحياناً في حواف الأبواب أو فيما يعترض رؤوسهم من أعلى، ولكن من غير المعتاد أن يصطدم الأعمى بجدار أو سيارة متوقفة. تعطي العصا البيضاء تحذيراً كافياً لوجود مثل هذا الجسم الكبير. تكمن المشكلة بالأحرى في اختيار المسار والاتجاه الصحيح بعد محاذاة السيارة المتوقفة. إذا اكتُشفت، في الخطوة التالية، سيارة متوقفة أخرى، وثانية متوقفة بزاوية

مختلفة، ثم ثالثة، يكاد يكون من المستحيل العودة إلى المسار الأصلي تمامًا. عليك أن تحاول الاحتفاظ بخريطة في ذهنك توضح كل هذه الزوايا وتعود بك إلى الاتجاه الأصلي. هذا ما أسميه هيكلًا وتصميمًا لا يمكن التنبؤ به.

٨ يوليو

الدراسة من الكاسيت تجمع الكلمة المنطوقة والصفحة المطبوعة. أصبحت قراءة كتاب أشبه بالاستماع إلى محاضرة. الأمر يختلف قليلًا؛ لأنه بالضبط على زر الإرجاع لفترة وجيزة يمكنني أن أجعل محاضرتي تتكرر مرارًا وتكرارًا. علاوة على ذلك، فإن التسجيل يرفع الغموض عن الكلمات الفعلية التي قيلت، ويمكنني الاستماع إليها مرارًا وتكرارًا، من وجهات نظر مختلفة.

ومع ذلك، يظل صحيحًا أن مهمة تلخيص خطاب أو محاضرة أثناء الاستماع إليها هي نفسها إلى حد كبير سواء كان المتحدث حاضرًا بالفعل على المنصة أو كانت المحاضرة تسجيلًا.

إذا توفر النص المطبوع أمامك وشخص ما يقرأه في ذات الوقت، فإنك تميل إلى اتباع النص المطبوع، ولكن إذا لم يكن

لديك سوى صوت المتحدث، فعليك التركيز على ما يُقال. إذا كنتَ قد تحسّنتَ في تلخيص ومراجعة الكلام الفوري على شكل محاضرات وعناوين، فأنا متأكد من أن ذلك بسبب ممارستي للتلخيص أثناء الاستماع إلى الكتب بالذات.

٩ يوليو

كنتُ أسير في شارع نافيجيشن^(١)، في وسط المدينة. قدّم لي أحدُهم علبة حلوى النعناع.

«شكراً» قلت مبتهجاً، وقبلت الحلوى بابتسامة.

أجاب فاعل الخير: «هذا جيد، كنتُ سأعطيها لأيّ طفلٍ ألقي به على أي حال».

في عشاءٍ رسمي، كان الطبق الرئيسي عبارة عن دجاجٍ بالعظم. طلبت من الشخص الذي بجواري أن يلوّح إلى النادلة، لأطلب من طاقم المطبخ أن يزيلوا العظمَ عن الدجاج من أجلي؛ ذلك أقل شيءٍ محرج يمكن القيام به في مثل هذه المناسبات. قالت الضيفة بجواري إن هذا لن يكونَ ضروريًا؛ ستقطع الدجاجة بنفسها لي. فعلت ذلك، بأريحية كبيرة ومهارة،

(1) Navigation Street

وأعادَت الطَّبَقَ إِلَيَّ مُعَلَّقَةً: «لقد قطعت وجبة لطفل معاقٍ قبل يومين».

كنت أقيم مع صديق في منزلٍ غير مألوف، حيث كان هناك طَفَحٌ من المرحاض أثناء الليل. سَجَادَةُ الحمام كانت غارقة بالطَّفَح. علمتُ بما حَدَثَ في الصباح الباكر، عندما استيقظت للذهاب إلى الحمام. استيقظ صديقي على الفور وصاح: «جون، لا تدخل الحمام. هناك مشكلةٌ في الحمام».

عُدْتُ وأخبرني عن المشكلة. جلست على حافة السرير وقلت له: «أخبرني، هل كنت مستلقيًا هناك نصف مستيقظٍ طوال الليل، تنتظر أن أقوم وأذهب إلى الحمام حتى تتمكن من اعتراضني في الوقت المناسب وإخباري؟ لم ترغب في إيقاظي مبكرًا لتخبرني؟ هل كنت تعلم أنها ستكون كارثةً لو ذهبت هناك دون أن أعرف؟».

ضحك صديقي القديم. قال: «حسنًا، هذا صحيح إلى حدٍّ ما. لم أبق مستيقظًا. ذهبت للنوم، مستعدًا في ذهني للاستيقاظ في اللحظة التي أسمعك فيها تنهض من السرير»، وأضاف كاتمًا ضحكته: «وكأنني أنجبت طفلًا من جديد».

أثناء السفر مع ابنتي البالغة من العمر ١١ عامًا على متن

السكك الحديدية البريطانية، لم نتمكن أبدًا من تحديد أي تذكرة كانت لي، وأي تذكرة لها. إشترينا تذكرتها بامتياز عائلي، طُبع عليها: «سعر ثابت للأجرة». إشترينا تذكرتي بموجب امتياز شخص معاق، مطبوع عليها كلمة: «طفل».

أجريت حديثًا ذلك اليوم مع كليف إنمان، الذي يجلس على كرسي متحرك. أخبرني أنه عندما يراه الناس على كرسيه المتحرك، فإنهم يميلون إلى التحدث إليه بصوت رقيق هادئ ومواسٍ. صوت لطيف ومُشفق، الطريقة التي يتحدث بها بعض الناس مع الأطفال. إنه أيضًا صوت الحيرة وعدم اليقين، فالناس لا يعرفون تمامًا كيف يتعاملون مع شخص بالغ «قُصت أجنحته!».

يفقد الرجل المعاق جزءًا من رجولته، وجزءًا من بلوغه، وجزءًا من إنسانيته. لا أحب أن يُتزع مني البلوغ بهذا الشكل.

١٠ يوليو

في حين أنه من السهل جدًا التهميش، من السهل أيضًا الهيمنة. في بعض الأحيان قد لا يكون الشخص الكفيف مدركًا لهيمته. قد لا يدرك أنه محور الاهتمام، وأن هناك الكثير من الضجيج يحدث من حوله، له ومن أجله؛ استعدادات واتفاقات

بشأنه، محادثات تجري استعدادًا لوصوله. يدرك الأعمى أحيانًا أنه محور الحديث، وذلك شيء لا يرغب فيه. يصبح موضوعًا للفضول. تتجه كل العيون عليه وهو يدخل الغرفة.

من الصعب جدًا العثور على مكانٍ وسَطٍ، مكانٍ ما بين التجاهل وكونك مركز الاهتمام. من الصعب جدًا أن تكون شخصًا عاديًا عندما لا يتم اعتبارك في الحقيقة شخصًا عاديًا. من الصعب أيضًا تجنب المواقف التي تفرضها سلطة المرء على الناس، السلطة النابعة في الأساس من العجز الشديد. يميل الشخص المعاق إلى ترجمة قوة الآخرين بشكلٍ أقل. يفتاظ منهم وينظر إليهم نظرة الريبة والشك، ويجعلهم يشعرون بالحرج والتقليل والافتقار إلى الكياسة والإحساس، ويجعلهم يدركون أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا يعرفون كيف يتعاملون مع هكذا شخص غير عادي. يمكن للشخص المعاق أن يُلحَق كل هذه المشاعر بالشخص العادي.

الحكم والتفصيل للاستخدام الصحيح لهذه السلطة هو جزء مهم من تعلّم أن تكون معاقًا.

١١ يوليو

هناك نقطة معيّنة في طريقي تلتقط الريح. هذا الصباح، بعدما عبرت النفق وصعدت درجات السلم وعند الزاوية، شعرت

بالنسيم. كان نسيماً جميلاً ودافئاً ومعتظراً، ليس حاراً مثل شمال
أستراليا؛ كانت ريح تعبق بالأريج، ولكنها مضطربة، ما يوحي
ببداية يومٍ قاتظٍ إلى حدٍّ ما. وقفت هناك لبعض الوقت، قاصداً
الشعور بالتيار على وجهي وفوق ملابسي. أدركت رأسي هنا
وهناك، انحنيت وتنفست الهواء. كان ذلك ممتعاً.

هل يمكن أن تعني الريح مقدار ما تعنيه للأشخاص
المبصرين؟ إنها شيءٌ غير مرئي؛ لذلك فلا يمكن للمبصر أن
يزايد على الأعمى فيما تعنيه. بالطبع، فإن المكفوفين لا يمكنهم
رؤية العالم الذي تهب عليه الريح، ولا الغيوم المتسارعة
والأشجار المتمايلة. من ناحيةٍ أخرى، للريح جمالها الخاص
عند المكفوفين. بالنسبة للمبصرين، فإن العالم مرئيٌ بشكلٍ
أساسي؛ لذلك تعتبر ظاهرة غير مرئية مثل الريح لا تلاحظ إلا
بالصدفة؛ إنها أحد الأشياء العديدة التي يلاحظها المرء بشكلٍ
عابر. الإشارات المرئية مهمة للمبصر؛ مثل مشهد الغسيل
يرفرف على الحبل، ما يجعل المرء يعتبر اليوم عاصفاً بالريح.
الريح نفسها، كما يشعر بها الجسد، ليست سوى واحدة من
الطرق التي يعرف بها المبصر اليوم العاصف.

الأعمى يدخل في ريح النهار مباشرة. بالنسبة للمكفوفين،
لا تتمتع الريح بالخاصية المُلغزة التي تتمتع بها عند المبصرين.

هناك فقرة في إنجيل يوحنا^(١) تقول عن الريح: «لا تعلم إلى أين تذهب أو من أين تأتي». أعتقد أن هذا رد فعل شخص مبصر؛ لأن المبصرين معتادون على رؤية أين تذهب الأشياء ومن أين تأتي. المبصرون ينظرون لمسافات أطول. يميل المُبصر إلى النظر إلى دَوّارة الرياح فوق الأبنية ليرى الاتجاه الذي تهب فيه الرياح.

اعتاد المكفوفون على عدم معرفة من أين تأتي الأشياء وإلى أين تذهب. تسرع الأشياء وتذهب إلى الماضي والمرء في وسط معمعة الأحداث، لا يتوقع معرفة منابع الأحداث ولا جهاتها. كَوْن الريح مخفية لا يجعلها غامضة بالنسبة للمكفوفين، الذين لا يوجد بالنسبة إليهم شيء اسمه مخفي. يشعر الأعمى بتأثير الريح على جسده ويسمع صوتها على الأشجار. إنه يعرف جيدًا من أين أتت: إنها تأتي من هذا الاتجاه، إنه يواجهها. تأتي الرياح من الاتجاه الذي أشعر به.

أحيانًا يكون شعور الأعمى بالريح أكثر إثارة لأنها قادمة من مكان بعيد. أحيانًا أسمع الريح تقذف بأوراق الشجر من

(١) إنجيل يوحنا Fourth Gospel ويسمى أيضًا الإنجيل وفقًا ليوحنا هو رابع الأناجيل القانونية، ورابع كتب العهد الجديد.

بعيد عبر المتنزه، أشبه بموجة تندرج عبر الشاطئ، وتتكرر على جسدي نافحة وقابضة مشاعري. ذلك مثير لأنني كنت أترقبه، لأن جسدي يعرف ما يجري حوله.

١٢ يوليو

إذا اضطررت إلى حمل كوبٍ من الشاي من هذه الغرفة إلى الغرفة التالية، سأتمكن من فعل ذلك. إذا وضعت كوبًا ممثلًا في يدي الأخرى، فلن أستطيع حمل الكوبين. إعطائي كأسًا ممثلةً بيدي الثانية، يشبه تعصيب العينين. أن يحمل شخصٌ أعمى كأسًا ممثلةً في كل يدٍ يكافئ ما يحمله شخصٌ مبصرٌ في كلتا يديه والعصابة على عينيه. أن يحمل شخصٌ أعمى كأسًا ممثلةً في يد واحدة فقط يكافئ تقريبًا (قد يكون أبطأ قليلًا، وأقل براعة) ما يحمله شخصٌ مبصرٌ في كلتا يديه وبدون عصابة على عينيه. فقدان التوجيه من اليد الثانية يكافئ تعصيب العينين. قد يكون هناك اعتراض، كَوْن الشخص الأعمى يعتبر بصورة أو بأخرى معصوب العينين طوال الوقت. ذلك بالضرورة ليس صحيحًا. يرى الأعمى بيده، يده المتفرغة للتوجيه والاكتشاف. لا يشعر الأعمى بالضياع ويعرف دائمًا أين هو وإلى أي مكان سيذهب، طالما أنه يستطيع توجيه نفسه

يَدِهِ الحرة. إنه لا يشعر بالعمى، ولكن مع وجود كأسٍ ممثلة في كل يَدٍ، يكاد يكون من المستحيل تجنّب الاصطدام بما يحيط به وانسكاب بضع قطرات هنا وهناك. الطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي المشي للخلف، والمحافظة على الكأسين بين المرفقين. بالنسبة للمبصرين، يبدو هذا سخيًا.

يصعب على الأعمى حمل أكوابٍ وأطباقٍ على صينية من غرفةٍ إلى أخرى، أو حمل كرسيٍّ أو أي شيءٍ يتطلب استخدام كلتا يديه. إذا بدأ الشخص الأعمى في نسيان كيف تبدو الأشياء للمُبصر، فلن يكون هناك فائدة من تعصيب عينيه. إذا اضطر الأعمى إلى حمل كؤوس كاملة من الماء في كلتا يديه، سيعرف بالضبط كيف يشعر المبصر معصوب العينين.

بطريقةٍ أخرى، لا يمكن فهم العمى بمنطق تعمية العينين فقط، يبدو ذلك فهمًا سطحيًا، ولكن بإضافة وتخيل المثال الذي سبق ذكره؛ بوضع كأسين من الماء في يدي شخصٍ معصوب العينين وحرمانه من اللمس، وبالتالي حرمانه من القدرة على التوجيه. بعبارةٍ أخرى، للحصول على نظرةٍ ثاقبةٍ لمشاكل المناورة والحركة، لا يكفي حذف الملكة والحاشة الأكثر تأثيراً فقط (في هذه الحالة، البصر)، بل يجب تجربة

التداعيات أيضًا، من خلال إلغاء حاسة ثانية (اللمس)، ما يوضح كيف تخضع العملية الإدراكية بمجملها للتغيير. اللمس ليس هو نفسه للمبصر كما هو للأعمى. إلغاء البصر وترك اللمس دون مساس يعطي انطباعًا خاطئًا؛ لأن اللمس يتأثر بإلغاء البصر. اختصار ذلك كله، يرى الأعمى بأصابه.

١٣ يوليو

لم يلتق الكثير من الأشخاص الذين أختلط بهم بشخصٍ أعمى من قبل. ليس لديهم أي فكرة عما يجب عليهم فعله أو كيفية التواصل معي. أحاول خلق أوضاع يشعر فيها المبصرون بأنهم في بينهم، لكن هذا ليس بالأمر السهل دائمًا، وغالبًا ما أفشل. أعتقد أن أحد أسباب هذا الفشل هو حقيقة أن العلاقة بين الشخص الأعمى والمبصر ليست علاقة مساواة في كثير من الأحيان. لنفترض أنني أقف، أتحدث مع الناس عند البار. لنفترض أنني غيرت من أتحدث إليهم عدة مرات، باستخدام تكتيك: «ورقة الكواشف». لنفترض الآن أنني أريد الجلوس. لدي العديد من المشاكل حينها. هل توجد مقاعد شاغرة في الغرفة؟ كيف يمكنني تحديد أماكنها.

كنت أتحدث إلى صديقة على طاولة، في أحد المؤتمرات،

أشارت إلى أنه ليس أمامنا أيّ مشروبات. اقترحْتُ أن تذهب إلى البار وتحضر المشروبات لكلينا. أضفت أنني سأجلس وأنتظر عودتها. قالت: «حسنًا، أين تريدنا أن نجلس؟»، قلت: «لماذا لا تأخذيني وتضعي يدي على الكرسي الذي تختارين؟»، أمسكت بيدي ووضعتها على ظهر كرسيّ، وذهبت إلى البار. وجدتُ أنني كنت أقف خلف الكرسيّ، مددتُ يدي إلى الجزء الخلفي وعلى جانبي الكرسيّ محاولًا اكتشاف ما إذا كان به ذراعين أم لا، فجأةً وجدتُ أنني أحركُ أصابعي على رقبة امرأة. ثمة امرأة جالسة على الكرسيّ بالفعل. تفاجأتُ لأن رجلًا غريبًا كان يتحسّرُ رقبتهَا وكثفيها. سادَ نوعٌ من الذعر، ومن ثم الكثير من الضحك والاعتذار. تساءلتُ لماذا لم تضع صديقتي يدي على ظهرِ كرسيّ فارغ؟ هل فُسلتُ بطريقةٍ ما في توضيح أنني أردت الجلوس؟ ربّما اعتقدت صديقتي أنه كان في نيتي أن أقف في انتظارها ويدي على ظهر كرسيّ.

عندما عادت صديقتي من البار ومعها المشروبات، اعتذرت بعد أن رأت الحادث. ضحكنا واتجهنا نحو الكراسي. قلت: «دعيني أضغُ إصبعي تحت مرفقك الأيسر إذا سمحت». لم تسمح بذلك. عوضًا عن ذلك، أمسكت بقوة يدي اليمنى بيدها اليمنى، وسحبت ساعدي تحت ذراعها اليسرى، وأغلقت

ذراعها اليسرى عليه بإحكام. كان ذلك شخصًا مُصممًا على عدم ارتكاب خطأ ثانٍ. هذه المرة، لن يكون هناك لبس.

بينما كنا نسيرُ عبر الصالةِ المزدحمة، قلت لها ممازحًا: «كما تعلمين، عليّ أن أدرب الناس بالطريقة التي يدربون بها الكلاب المرافقة للمكفوفين. لدي طريقة خاصة تتعلق بكيفية إجلاسي على كرسي بذراعين. هل تريدان أن تتعلمي ذلك؟»؛ ضحكت ووافقت. قلت: «حسنًا، هذا ما نقوم به. عندما نصِل إلى الكرسي، تأخذين يدي وتضعينها على ظهر الكرسي».

عندما وصلنا إلى الكرسي، لم تستطع فعل ذلك. ربّما كان الكرسي في وضع معين لم أفهمه أو شيء من هذا. اقترحت عليها أن تضع يدها على ظهر الكرسي. فعلت ذلك، لكن شعرت أنّها حائرةٌ تمامًا. ببساطة مددت أصابعي على طول ذراعها حتى تحسست الجزء الخلفي من الكرسي، لم أعد بحاجة إلى مزيد من المساعدة. عرفت مكان الكرسي بالضبط، ويمكنني الآن الجلوس في أي وقتٍ أحب بكلّ كرامةٍ وأمان. رفيقتي، مع ذلك، لم تتركني. قلت مبتهجةً: «شكرًا، كان ذلك جيدًا للغاية. يمكنك الآن أن تتركيني وسأجلس». كانت مصممةً على مساندتي للجلوس على الكرسي، ممسكةً بمرفقي من الأمام. بعد بضع مناشداتٍ أخرى أقنعتها بالتخلي عني

وجلست. أقارن هذا بحادثٍ مماثل وقع في اليوم التالي. كنت أسير مع صديقة أخرى قالت: «دعونا نجلس». في حركة سريعة وتلقائية وغير مزعجة، أمسكت بيدي، ووضعتها برفقٍ على ظهر كرسي بذراعين، وجلست على الكرسي المجاور دون أي تعليق. أعجبت كثيرًا بالسرعة والسلاسة اللطيفة لهذه اللفتة، لدرجة أنني سألتها عمّا إذا كانت معتادةً على العمل مع المكفوفين. قالت: «لم أقابل شخصًا كفيًا في حياتي من قبل، لكنني قرأتُ سريعًا ما يتوجب عليّ فعله». هذه الصديقة، كما تعرّفت عليها، أثبتت أنها شخصٌ يتمتع بحساسية وبصيرة استثنائية.

نعم، بدأت أعتقد أن لديّ بالفعل نوعًا من اختبار الكواشف. ما هي درجة الحرية التي سيمنحني إياها هذا الشخص الجديد؟ هل سيجدُّ هذا الشخص المبصر طرقًا تسمح لي بالحفاظ على أكبر قدر ممكن من الاستقلالية والكرامة؟ هل يرغب هذا الشخص أن يملكني، أن يتحكّم بي، ويجعلني أشعر بأنني أكثر إعاقة برفض الاعتراف بمقدرتي على فعل أي شيء بنفسني؟ من ناحيتي، كيف يمكنني جعل الأمر سهلًا على المبصرين؟ يبدو أنّ سياستي المتمثلة في إعطاء توجيهات مبهجة وبسيطة تعمل مع البعض، ولكن ليس مع الجميع.

في الكنيسة، اقترب الشمس من مارلين وهي تقف بجواري، وقال لها: «مارلين، هل يرغب جون في المضي قدمًا إلى سكة المذبح^(١)؟» لم ترد مارلين؛ لذلك التفت تجاهه وقلت مبتهمة: «نعم، شكرًا جزيلاً، سأمضي قدمًا». سمعت صوتًا طفيفًا من الشمس يعكس مفاجأته، وجدت أن الرجل الطيب كان مرتبكًا إلى حد ما لأنني سمعت ما قاله. أكدت له أنني سأكون على ما يرام، وسأصعد برفقة مارلين كما كنت أفعل عادةً. شكرته على اهتمامه. أعتقد أنه كان يفترض أنني أصم، حتى لو كان افتراضي صحيحًا، لماذا لا ينقر على مرفقي ويسألني إن كنت أنوي المضي قدمًا وهل سأحتاج إلى أي مساعدة؟ سأقدر تلك المبادرة المراعية لي. أما التحدث عني، بصيغة الغائب، إلى شخص آخر، ذلك أمر مختلف.

غالبًا ما يظهر هذا الموقف عندما أركب سيارة مع مجموعة

(١) سكة المذبح communion rail وهي عبارة عن حاجز منخفض، عادة ما يكون مصنوعًا من الحجر أو الخشب أو المعدن. تنتشر سكة المذبح في الكنائس الرومانية الكاثوليكية والأنجليكانية، وترمز على التمييز بين الحرم (حيث يوجد المذبح) الذي يمثل الجنة، وبقية الكنيسة التي تمثل الأرض.

من الأشخاص الآخرين. «هل ستضع جون في الخلف معك؟». «لا، سأضعه في المقدمة معك». «حسنًا، أدخله إذن». عند هذه النقطة أفتح الحديث، وبصوت عالٍ أقول: «جون لن يوضع في أي مكان، شكرًا جزيلًا لكم. يجب أن يُسأل جون ما إذا كان لديه أي مكان يفضل الجلوس فيه». عندها، يضحك جميع أصدقائي بصخب، مُعزّرين الاعتذارات في ضحكاتهم. في مناسبة مماثلة مؤخرًا صُحْتُ: «مهلاً، يا رفاق، لا تتحدثون عني كما لو أنني لست هنا».

مرةً أخرى جلبت صيحتي، مزيّجًا من الضحك، والاعتذارات، والاتفاقات، والتهنئة.

إنه، بالطبع، أمرٌ محرج للغاية للأشخاص الأذكياء والحساسين عندما يتم القبض عليهم ممارسين لتهج: «هل يتناول السكر^(١)؟» مع شخصٍ معاق. كل هؤلاء الأشخاص حساسون، ويدركون جيدًا الإهانة التي ينطوي عليها هذا التهج؛ لذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه، لماذا يفعلون ذلك؟

(١) في إشارة على التمييز الذي يتعرض له أحيانًا ذوو الاحتياجات الخاصة، عندما يسأل شخص ما مقدم الرعاية أو المرافق عن السكر عوضًا عن سؤال الشخص (من ذوي الاحتياجات الخاصة) الذي سيتناول المشروب الساخن وبشكل مباشر.

من السهل جدًا تهميش الأعمى، في الواقع، في بعض
المواقف يكاد يكون من المستحيل عدم القيام بذلك.

٢٩ يوليو

كنت متوترًا من عدة نواحٍ بشأن زيارتي إلى ملبورن. كنت
متخوفًا من إحساسٍ متجددٍ بالخسارة لوجودي في مكانٍ به
الكثير من ذكرياتي البصرية. محطة شارع فليندرز^(١)، جسر
الأمراء، كاتدرائية القديس بولس، والمنظر الشهير للمدينة من
الحداثق النباتية على امتداد نهر يارا، كلّ هذه المعالم محفورة
بعمقٍ في مخيلتي. لطالما أحبت المنظر على طول شارع كولينز
باتجاه مباني البرلمان الفيكتوري، والأفق الممتد على طول
طريق سانت كيلدا^(٢)، حيث يقف ضريح الذكرى^(٣) بجلاله بين
المروج والأشجار.

بالنسبة لبرمنغهام، كان لدي ما يكفي من الوقت للتكيف
مع الاختفاء التدريجي للمباني العالقة في ذاكرتي، لمراجعة
ذكرياتي شيئًا فشيئًا بينما الناس تخبرني بعمليات هدم هنا

(1) Flinders Street

(2) St Kilda Road

(3) Shrine of Remembrance

وترميم هناك. عندما أعود فجأة كشخصٍ أعمى وانخرط في عالم مليء بالصّور التي أتذكّرها، أشعر بحزنٍ عميق. شعرت بخيبة أملٍ بشكل خاص من فكرة أنني لن أستطيع الاستمتاع بالساحل. لطالما أحيت خليج بورت فيليب بأمواجه العالية ويخوته التي لا تُحصى، لكنّ الإثارة الأكبر كانت دائماً في الساحل الجنوبي الغربي الفيكتوري. هناك يأخذك طريق جريت أوشين^(١)، المقطوع من الجرف، عبر مناظر خلّابة، وصولاً إلى منطقة بورت كامبل^(٢)، حيث تشكّلت صخور المنحدرات وتآكلت بفعل الموج، كانت لطبيعة المشهد وجلاله فتنة خالدة وسحراً مميّزاً. على الرغم من أنني لم أكن أبداً محباً كبيراً للتخييم وللطبيعة، ولا يمكن الادعاء بأنني خبير في نزاهات الغابات، إلا أن الدهشة تملّكني عند رؤية التلال الزرقاء والرمادية اللامتناهية والجمال البديع لتنوّات الجرانيت الصخرية. كانت جبال جرامبيانز^(٣) مكاناً مفضلاً لقضاء العطلات بالنسبة للأطفال، منذ أن نشأت والدتي عندما كانت

(1) Great Ocean Road

(2) Port Campbell

(٣) يشار إلى متزه جرامبيانز الوطني عموماً باسم The Grampians، وهي حديقة ومتزه وطني يقع في منطقة جرامبيانز في فيكتوريا، أستراليا.

طفلة في بلدة ستاويل^(١) القريبة. عندما كنت هناك في ربيع عام ١٩٨٠، تعلّدت عليّ الوصول إلى العديد من الأماكن العزيزة والمحفورة في ذاكرتي بسبب ضعف نظري والأرض الصخرية غير المستوية. كانت ألعاب بلاد العجائب، وجراند كانيون، واختبار الأعصاب، والحوت، والعملاق الساقط تتلاشى بالفعل. ربما اختفت هذه الأشياء الآن.

كنت أكثر قلقًا بشأن الأشخاص الذين سألتقي بهم. كنت أعلم أنني بلا شك سأستبب بالألم للأشخاص الذين أعرفهم وأحبهم لمجرد معرفتهم بعماي. شعرت بالقلق والخوف من فكرة أنني سأضطر إلى إعادة تكوين معرفتي بهم على أساس الصوت واللمس، تمامًا كما كنت أفعل في إنجلترا، عند لقائي بأشخاص لأول مرة. كل ذكرياتي البصرية لتلك الوجوه أصبحت الآن في أحسن الأحوال غير ذات صلة، وفي أسوأ الأحوال عائقًا فعليًا لتكوين علاقة حقيقية وحديثة معهم.

كنت منزعًا أيضًا من فكرة حرمانني من روتيني لأسابيع عديدة. كان عليّ أن أتعلم وأتدبر طريقي خلال العديد من المنازل والمباني الجديدة، وأن أكون على دراية بالأواني

(١) Stawell

المتزلية الجديدة، وأن أعرف أسماء العديد من الأشخاص الجُدد. شعرت بالخوف من أنني سأكون أكثر تهميشًا في هذه الحالة، بل أكثر سلبية مما أنا عليه في مثل هكذا أيام.

يجب أن أعترف أن كل هذه المخاوف تحققت. بعد ثلاثة أو أربعة أيام، أصبت بنوبة ربو حادة لازمتني لعشرة أو اثني عشر يومًا. كنت مستوعبًا لكمية المعاناة ولقدّر الكمد. أحد خيوط هذه المعاناة محاولة الأشخاص الذين يحبونني التواصل معي. كان عليهم أن يعتادوا عليّ مرةً أخرى. جلست أمني بجانبني في محمية طبيعية، بينما كان الأطفال يسقون كنغرا صغيرًا زجاجةً من الحليب. مسحّت على يدي بلطف، قائلة: «يجب أن أَلْمَسَكَ؛ لأنني أشعر أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها الاقتراب منك الآن». كنت أتوق إلى تواصل أكثر فورية مع أحبائي عوضًا عن ذلك التواصل التدريجي البطيء، الذي يستغرق وقته، يومًا بعد يوم، لتكوين الانطباعات والتواريخ والأصوات التي يتطلّبها العمى.

في وجود أولئك الذين غيبت عنهم لفترة طويلة، أريد شيئًا أكثر منهم. أريد أن أكون حاضرًا على الفور، وأن أكون ذلك الشخص الذي يتذكرونه مرةً أخرى. أريد أن تسمّ تحيتي من

الشخص الذي أحبه في شكله الذي أتذكره. عدم القدرة على تجربة هذه المشاعر، ليس فقط سببًا للإحباط وإنما، للأسف.

أستطيع تحمّل ضياع معالم المدينة والبحر والزيف. لكن، هناك مشكلة في مشاركة تلك المعالم. يصعب عليّ أن أظل دائمًا مهتمًا ومتحمسًا عندما يشير الناس إلى الأشياء ويذكرونني بالمنظر الجميل الذي يمكن للمرء رؤيته من تلك البقعة. أشعر بارتباكهم حيال محاولتهم مساعدتي في مشاركة ما يُمتعهم وما يُشعرهم بالدهشة والاعتزاز، كيف يمكنهم إشراكي في جديد الأحداث حولهم، وجذبي إلى عالمهم الذي يحبّون.

ما زلت أجد صعوبة في التخلي عن دوري كأب، بصفتي الشخص الأنيس الذي يجعل الآخرين دائمًا يشعرون بأنهم في بيتهم. كيف يمكنني أن أكون رقيقًا يُعتمد عليه؟ كيف يمكنني بعد الآن أخذ زمام المبادرة في الحكايات والنكات؟ ماذا عن دوري كقائدٍ ودليلٍ لأولادي؟ أدرك تمامًا صعوبة تعريفهم بالمكان حولهم. بينما كُنّا نتنقل، أردت أن أقول: «انظروا! هذا هو المكان الذي فعلنا فيه كذا وكذا. هناك المكان الذي حصل فيه كذا. في ذلك الشارع كنت أعيش ذات مرة. هناك! يمكنكم إلقاء نظرة على مدرستي القديمة». لا يمكنني حتّى أن أشير إلى

الحيوانات الغريبة للأطفال ما لم أحصل على وصفٍ لشكلها. توقعت أنني سأكون قادرًا على القيام بكل هذه الأشياء، ويجب أن أكون قادرًا عليها. خلال العشرة أو الاثني عشر يومًا الأولى، كنت أقاتل للسيطرة على مشاعري، وشعرت باستمرار أنني على حافة الذعر والإرهاق. كل الدفاعات التي بنيتها كانت مُهدّدة.

في منتصف كل هذا، حلمت حلمًا غريبًا ومثيرًا للإعجاب. كنت ذاهبًا إلى جامعة كامبريدج للتسجيل والحصول على درجة الماجستير في اللاهوت، والالتحاق بكلية جونفيل آند كايسوس^(١). فجأة كان مطلوبًا مني الجلوس للورقة النهائية من الامتحان، مع جميع المرشحين الآخرين الذين تمكنوا، مع ذلك، من إكمال الدورة طوال العام. كنت أغالب نفسي وأنا أُجيب أسئلة الامتحان، وأعرف أنني في وضع غير مُبشّر. بعد الاختبار، استلمت بيان مآلي بما قد يكلفني العام، إذا تم تسجيلي بنجاح. أُعطيتُ الفاتورة من قبل القسّ جاك نيوبورت^(٢) (الذي كان في الواقع معلمتي عندما كنت في كامبريدج من

(١) كلية جونفيل وكايسوس Gonville & Caius College وهي كلية

مكوّنة وجزء من جامعة كامبريدج في إنجلترا.

(2) Rev. Jack Newport

١٩٥٩ إلى ١٩٦٢). بلغت قيمة الفاتورة ٢٦٠٠ جنيه إسترليني، شعرتُ بنوع من الصدمة وأدركت أنني لم أقدم أي طلباتٍ بعد إلى الصناديق للحصول على منحة. يجب أن أتخذ خطوات فوريةً لأوضح لإدارات الكلية أن العمل الذي أدّيته على ورقة الامتحان لا ينبغي أن يُقارن بأداء المرشحين الآخرين؛ لأن هناك سوء فهم رهيب، فما كان عليّ أن أدخل هذا الامتحان. بقية الحلم كان تجوالاً في أنحاء الكلية القديمة المؤتنة بشكل رائع، رأيتني في ردهاتها المزينة بالتحف العتيقة، وبين طلابها المُتجهرين في كل مكان، ومن خلال أبوابها الغربية والمثيرة للاهتمام، قرأت أسماء هامة في هيئة التدريس ممن كان على المرء أن يحدّد مواعيد معهم.

الشيء الذي عُلِقَ في ذهني هو أن الحُكْمَ عليّ كان يحصلُ في سياقٍ مليءٍ بارتباطات الماضي الجميل الذي كنت أعيشه، هكذا كان يُساء فهمي؛ ذلك أنني لن أتمكن الآن من العودة إليه. ألوم نفسي؛ لكوني أعمى، وأعْصَبُ على نفسي؛ لأنني على الهامش، وأنتقد نفسي؛ لأنني لم أفعل المزيد لوالدي وزوجتي وأولادي. ألوم نفسي؛ لأنني لا أستطيع منحهم حياةً أفضل، وأنني لا أستطيع أن أشعّرهم بفضل تواجدهم هنا في هذا البلد الرائع.

الشيء الوحيد الذي لم أشعر به، مقارنة برحلتني إلى هنا قبل أربع سنوات، هو الشعور بالاستياء من العالم المُبصر. لم أشعر أبدًا كما لو أنني أريد الانسحاب من عالم المبصرين لأفقد نفسي في عالم أقل تطلبًا وأكثر راحة، عالم المكفوفين الذين يفهمونني.

لقد ساعدتني مارلين كثيرًا خلال أزميتي الحالية، ظننت تقول لي أنه يجب أن لا أضع نفسي تحت مثل هذه المطالب، وأنه يجب أن لا تكون لدي مثل هذه التوقعات. لقد شعرت بالارتياح أيضًا بتذكير نفسي بكلمات من الخطبة الشهيرة لبول تيليش^(١): «أنت مقبول». أنا مقبول في العمى. أنا مقبول كشخصٍ أعمى.

شيئان آخران ساعداني. أولاً: أتاحت المدرسة الابتدائية التي تدرّس فيها أختي الكبرى مكتبًا لاستخدامي. تأخذني أختي في سيارتها كل صباح في طريقها إلى المدرسة، لدي أجهزة التسجيل في المكتب هناك، حيث أعمل طوال اليوم الدراسي. انضممتُ إلى الموظفين والمدرّسين في استراحات الشاي وفي وقت الغداء. بعد المدرسة، أعود مع أختي وأقضي فترة ما بعد

(١) بول تيليش Paul Tillich فيلسوف ولاهوتي ألماني أمريكي (١٨٨٦ -

الظهر والمساء مع العائلة والأقارب. صنع ذلك نمطاً منحني إحساساً بالألفة. ثانيًا: اكتشفت أنه يمكنني التحكم في نوبات الربو عن طريق التنفّس. لا بدّ وأنني رأيت العشرات من الأطباء على مرّ السنين، لكن أحدًا لم يخبرني أنه بإمكانني التحكم في نوبة الهلع وبالتالي السيطرة على النوبة الفعلية للربو بطريقة تنفّس بسيط، اكتشفتها خلال اليومين أو الثلاثة أيام الماضية. طريقة التنفّس من خلال البطن، استطعتُ إيقاف الأزيز. بعد عشرة أو عشرين نفسًا يتلاشى الشعور بالهلع ويصبح التنفّس أسهل. عوضًا عن الخوف من فكرة أنني قد أموت في غضون ثلاث أو أربع دقائق، أعرف الآن أنني قد وصلت إلى النَّفَسِ السابع أو الثامن، وفي غضون عشرة أو اثني عشر نفسًا آخر سيتهي الأسوأ. إنها طريقةٌ تعمل. إنها تقاتل العدو.

٣٠ يوليو

ربّما كان رأيي السابق بأن مكانًا ما يشبه الآخر، رأيًا مبالغًا فيه. بالأمس، ذهبت العائلة بأكملها إلى حديقة تبعد حوالي عشرين ميلًا عن جيلونج^(١) تسمى: فاييري بارك^(٢). المكان عبارة

(١) جيلونج Geelong مدينة ساحلية تقع في ولاية فيكتوريا، إلى الجنوب الغربي من ملبورن، جنوب أستراليا.

(2) Fairy Park

عن تنوءٍ ضخّم من الجرانيت، فيه صخور ضخمة تتقاطع مع الأخاديد والوديان، تمّ تصميمه كمنطقة للشواء فيها ممّرات مشي متعرجة تمرّ بين الصخور، يتخللها عروضٌ موسيقية لقصص الأطفال الأسطورية. عروضٌ لدُمى متحرّكة تقفُ خلف الزجاج، والذي يبدو وكأنه نوافذ متاجر. ينتقل الأطفال من عرضٍ إلى آخر بحماسةٍ وابتهاج، يقومون بضغط الأزرار التي تعمل على تحريك العروض، وتشغيل الموسيقى والقصة.

خرجت من هناك ولديّ انطباعٌ واضحٌ عن المكان. لم أشعر بالبُعد والانفصال؛ ربّما لأنني تمكنت من القيام بدور نشيط فيه، قمت برّفح الأطفال لأعلى حتّى تتوافر لهم رؤية أفضل، أو ليتمكّنوا من الضغط على الأزرار، ولأن أغاني الأطفال والحكايات الأسطورية كانت مألوفةً لديّ؛ لذلك كان هناك الكثير لتتحدّث عنه. كان الوصول السمعي المباشر إلى العروض أمرًا مهمًا. كنت أعرف ما كان يجري، لسماعي التعليق. كنت أجيب على أسئلة الأطفال، وأضغط باستمرارٍ على الأزرار وما إلى ذلك. تمشينا بعد ذلك، صعودًا وهبوطًا على المنحدرات الصغيرة، مروراً بالفجوات بين الصخور الخشنة والوديان الصغيرة، ذهبنا أيضًا إلى الكهوف أو المناطق المغطاة الأخرى، شعرت بالفرق في صوت الصدى والتغيّر في

درجة الحرارة، خاصةً عندما انتقلنا من مكانٍ مكشوفٍ بارد إلى مكانٍ مُغطى لا يزال الهواء فيه دافئًا. وصلنا إلى أعلى نقطة، مطلّ مرتفع للمراقبة. شعرتُ بالدرابزين وبالمساحة الواسعة المفتوحة أمامي. كانت حركة الهواء مختلفة تمامًا. كنت أسمع من قبل صدى خطوات الأطفال الذين يركضون، أصبحت الآن أسمع صرخات النوارس، والضوضاء القادمة من قرن الطوب البعيد في الوادي، وحركة المرور في الطرق البعيدة، والتعليقات المبتهجة للمبصرين المُجتمعين على طول القضبان الممتدة والمجاورة لي. أخيرًا، عدنا إلى منطقة الجلوس، شعرت بالمقاعد الخشبية المحفورة، وأحسست ببلاط الفسيفساء الذي يربط مختلف المرافق. ساعدتني حقيقة أننا تجولنا في أنحاء المنطقة على إدراك أبعاد المكان وجعلتني أشعر أنه بالفعل مميز.

١٣ أغسطس

الجمعة الماضية حلمت حلمًا مؤثرًا. حصلَ بالكامل في أعماق المحيط. لم يحصل أيُّ شيء فوق السطح على الإطلاق. كان يشبه إلى حدٍّ ما مشاهد من فيلم: محطة الجليد زبرا^(١)،

(١) محطة الجليد زبرا Ice Station Zebra فيلم تشويق وتجسس تدور =

أعتقد أن ذلك اسمه، والذي كان فيه غواصة نووية تمرّ من تحت الغطاء الجليدي، باستثناء أن في الحلم لم يكن هناك غطاء جليدياً؛ كنّا في أعماق المحيط القاتمة. كان الحلم مُقسّماً بين مشاهد من خارج الغواصة، ومشاهد من الداخل. كان للغواصة هيكلٌ ضخّم، يشبه إلى حدّ ما صحناً طائرًا عملاقاً مستطيلاً ومزوّداً بمحركات نفّاثة، يسافر عبر أعماق المحيط. لم يكن طويلاً ورفيعاً، كما قد تكون الغواصة، لكنّه ضخّم ومدبّب. من داخل الغواصة كان الطاقم يحاول فهم وقراءة الشاشات، لم يتمكن أفرادها من معرفة ما إذا كانت المركبة تسير للأمام أو للخلف. أنا نفسي لم أكن في الحلم. كنت أشاهد كل هذا، كما لو كنتُ في السينما. كان الطاقم يراقب باهتمام عبر النوافذ ما في خارج الغواصة. كانت النوافذ محجوبة بغشاوة متذبذبة ومضيئة، مثل تلك التي أراها الآن في عيني اليمنى. دار نقاش حول ما إذا كانت هذه الآثار والغشاوة تقترب من السفينة أو تغادرها. أخيراً، كانت هناك صورةٌ من الخارج للغواصة وهي تلامس قعر المُحيط. لقد وصلت إلى وضعٍ محفوفٍ بالمخاطر.

= قصته حول غواصة نووية تسافر إلى القطب الشمالي في محاولة لإنقاذ طاقم في إحدى محطات الطقس، الفيلم من إنتاج سنة ١٩٦٨ وإخراج جون ستورجس.

كان الانطباع الرئيسي الذي تركه الحلم هو أن للغواصة وزناً هائلاً وثقيلاً، وقوة كبيرة تجعلها تتقدم بثبات، غير أن المسؤولين عنها لا يعرفون في أي طريق هي تسير.

لم يكن هناك أثر للعمى في هذا الحلم. كان مُشَبَّعاً بالألوان الجميلة والبديعة. رأيت درجات الأزرق والأخضر العميقة للمحيط، وأضواء الغواصة وهي تسير، هيكلها الرمادي والأبيض، والخطوط المضيئة التي تركتها وراءها.

من الغريب أنني أصبحت أعتد على الأحلام للترفيه. أصبحت أستغرق في مثل هذه الأحلام، وكأنني أشاهد فيلمًا ملحميًا وأفتن به. نادرًا ما يجيء إليّ العالم الخارجي بمثل هذه الحيوية.

على الرغم من أن الحلم كان قويًا، ونقل صورة من الخطر والتهلكة، إلا أنه نقل في ذهني المستيقظ نوعًا من الود، كما لو أن الأعماق تُدرك مشكلتي، وتحاول مساعدتي في وصف الأشياء بالنسبة لي. كانت الغواصة عمياء وترى كما أرى. لكن المحيط أيضًا كان أعمى، تحركت الغواصة في أعماقه وحاولت العثور على الاتجاه والمسار. الآن أنا المحيط. الآن أنا الغواصة. أنا أيضًا الغواصة والمحيط في ذات الوقت. الحلم هو أنا ومع ذلك فهو أعظم مني.



وصلت إلى ملبورن مع العائلة منذ حوالي شهر. هذه هي الزيارة التي طال انتظارها لأقاربي، والمحاولة التي طال انتظارها للتعرف على والدي مرة أخرى كشخص أعمى. كان والداي راعين ومتفاهمين. ما زلت أجد التجربة صعبةً ومزعجةً بشكل خاص؛ أن ينقطع المرء عن الأشخاص الذين يحبونه، وأن يتعلم التواصل معهم من جديد، بدون رؤية وجوههم.

كانت طفولتي في ملبورن. واجهت الماضي هنا بشكل غريب. غادرت أستراليا للدراسة في إنجلترا في سن الرابعة والعشرين. هذه هي المرة الرابعة التي أعود فيها. زيارتي لوالدي تجعلني دائمًا ما أربط بين إيماني بالله وعلاقتي بهما. ليس لدي أدنى شك في أن علاقة حبي مع الله هي، جزئيًا على الأقل، تعبيرًا عن محاولتي المستمرة طوال حياتي للتعرف على أبي وحبّه، ورغبتني في أن يحبّني ويعرفني.

حول المنعطف

خريف ١٩٨٤

١٩ أغسطس

أمضيتُ الآن حوالي أربع سنوات أعاني من مشكلة التحدّث في الأماكن العامة دون ملاحظات. عندما كنت محاضرًا مبصرًا، لم أضطر مُطلقًا إلى القراءة من نصٍّ ما، إلا عند الحديث عن مسألةٍ خلاقيّةٍ وجدلية. ما أحتاج إليه في العادة هي قائمة بالعناوين، مقسّمة إلى أقسامٍ وعناوين فرعية. بالطبع، إذا كنت سألقي ذلك النوع من المحاضرات التي تتضمن الكثير من الأرقام أو الإحصائيات التاريخية، فسأعود إلى نصٍّ مطبوع. بعد فقدان البصر، جرّبت طرقًا مختلفة للتعامل مع هذه المشكلة. جرّبت عمل ملخص على الميكرو كاسيت واستخدامه كوسيلةٍ للتلقين. كانت المشكلة أنّه إذا لم أكن بحاجةٍ إلى أي تلقينٍ حتى وقتٍ لاحقٍ من المحاضرة، فسيتمعين عليّ تشغيل

الملخص من بدايته في الكاسيت حتى الوصول إلى النقطة التي أريدها، وذلك يستغرق بضع ثوانٍ. كما أن تحديد النقطة بحد ذاتها أمرٌ صعبٌ للغاية، ما يضعني في وضعٍ محرجٍ أمام الجمهور ويؤكد لهم أنني أضعت الحديث.

أحيانًا أسجل ملخصًا موجزًا لما أرغب قوله، مقسمًا الموضوع إلى أقسامٍ أقوم في المحاضرة بتشغيل ذلك الملخص القصير للحضور، وأتحدث ببساطةٍ حوله. كان ذلك مجرد نجاح جزئي. قد يجد المستمعون صعوبةً في سماع ما يُقال من المسجل وأضطرُّ إلى تكراره، مما يضيع الكثير من الوقت. كان أسلوبًا يفتقد للمرونة؛ لأنه يلزمني بتسلسلٍ ثابتٍ وقدرٍ كبيرٍ من التحضير الشاق، ما يؤثر سلبيًا على أسلوبٍ غير المتكلف وقدرتي على الاستجابة لاحتياجات اللحظة.

حاولت أن أُملي على نفسي بتسجيل الخطاب بأكمله، أو الملخص، وباستخدام سداة الأذن. حاولت لفترةٍ من الوقت الاستماع والتحدث في ذات الوقت، لكن بعد تجربةٍ أو تجربتين كارثيتين، تخلّيت عن الأمر. حاولت استخدام عناوين بطريقة برايل. لم يكن ذلك يتطلب تحضيرًا شاقًا فحسب، ولكن لغة برايل الخاصة بي لم تكن جيدة بما يكفي.

لم أتمكن من المَسح بأصابعي بسرعة كافية لإخراج نفسي من مأزق نسيان ما كنت سأقوله.

في النهاية، طوّرت عادة تسجيل خلاصة المحاضرة على الكاسيت والاستماع إليها، وإعادة الاستماع إليها حتى قبل إلقاء المحاضرة بلحظات. كنت آخذ المسجل إلى المحاضرة؛ لأنه يشعرني بنوع من الأمان، على الرغم من أنني نادرًا ما أحتاج إلى الرجوع إليه.

خلال دورة للمعلمين في كانتربري^(١) في ربيع عام ١٩٨٢، كنت جالسًا في غرفتي أستمع بحماس إلى الملخص، وإذا بصديقتي تناديني لتقديم محاضرتي على المسرح. عندما أدركت ما كنت أفعله، قالت لي: «اترك عنك ذلك الآن، انس كل هذه القمامة»، «لا تقلق، لن تنسى. تعال فقط وتحديث إلينا». وذلك ما فعلت، وكان نجاحًا كبيرًا.

يبدو الآن أنني قد طوّرت طريقة لاستكشاف ما في ذهني، لمعرفة ما سأقوله. يفعل الجميع ذلك في الكلام العادي، وإلا لن نتمكن من إكمال جملة. بطريقة أو بأخرى، وبدون جهد،

(١) كانتربري Canterbury مدينة في جنوب شرق إنجلترا، بناها الرومان في الأصل وفيها كاتدرائية كانتربري الشهيرة، تأسست عام ٥٩٧ م.

طورت منظورًا أطول، والآن عندما أتحدث يمكنني رؤية فقرات الحديث تخرج من فجوات دماغي. الأمر يشبه إلى حدٍّ ما القراءة من الماسح الضوئي. أثناء حديثي، هناك جزء آخر من ذهني يقوم بفرز ما كنت سأقوله في الدقائق القليلة القادمة إلى فقراتٍ، وهناك جزء آخر بعيد يقوم بتحديد خطوط للحديث بديلة، يستخرجها من بنك الأفكار. يبدو أن هذا يمنح أسلوبي في المحاضرة حِسًّا أكبر من التنظيم، ويبدو أن الحاضرين قادرون على متابعتي بسهولة أكبر.

يمكنني في كثير من الأحيان الرجوع إلى ما قلته، أي يمكنني تكبير جمهوري بنقطةٍ أشرت إليها تحت العنوان الفرعي ٢ (أ) وقبل عشر دقائق. يجد الناس ذلك مفاجئًا، لكنه في الواقع ليس كذلك. إذا لم تكن لدي المادة في أقسام من هذا القليل، فلن أتمكن من المحافظة على انسيابية حديثي على الإطلاق. تعلّمت هذه العادة الصغيرة، على ما أعتقد، من سماع مقالات الطلاب وهي تُقرأ لي. غالبًا ما يتفاجأ قرائي عندما أقول: «عُد إلى ما قيل في الصفحة ٣ ضمن القسم ٤ (و)». لم أبذل أي جهدٍ في تعلّم كيفية القيام بذلك؛ إنه لأمرٌ مُتعب أن تعود وتقرأ المقال بالكامل مرةً أخرى. في الغالب أقوم لا شعوريًا بعمل ملاحظات ذهنيّة لبُنية المقال بحيث يمكنني

العودة إليها مرة أخرى إذا لزم الأمر. في حال عدم قدرتي
العودة إليها، فإن ذلك يرجع بالضرورة لعدم تركيزي بشكل
كافٍ أو لأن بُنية النص التي قرئت عليّ كانت غامضة للغاية.
أعتبر الأمر نوعاً من المهارة العقلية التي تعلّمتها من سماعي
لأشرطة الكاسيت وفرضت عليّ.

يميل المؤلف المبصر إلى تقسيم عمله إلى فقراتٍ بأثرٍ
رجعي. ترى الأشياء تنبسط على الآلة الكاتبة أو الشاشة، وتعتقد
أن الوقت قد حان لبدءِ فقرةٍ جديدة. الشخص الذي يستمع إلى
الكتب الموجودة على الكاسيت، حيث لا يشار عادةً إلى
الفقرات الفعلية في الصفحة المطبوعة، يقوم بصنع فقراته
الخاصة، وعند التأليف يميل إلى طرح فقراته في تخطيطٍ
مستقبلي. أعتقد أن هذا يساعدني أيضاً في تنظيم المواد الخاصة
بي مسبقاً عندما أتحدّث في الأماكن العامة. يركّز المحاضر
المبصر الذي يقرأ من مخطوطة مطبوعة بشكلٍ أساسي على ما
قاله، أي أن الفقرات تُقِلّت وراءه بينما «يسبح» إلى الأمام من
خلال حديثه. يجب على المتحدث الأعمى أن يركّز بشكلٍ
كاملٍ على ما سيقوله، أو ما سيقوله بعد خمس عشرة دقيقة من
الآن؛ لأنه قد يفقد اتجاه الحديث. إنه غير معصومٍ من الخطأ،
لكن يبدو أنها طريقةٌ تنجحُ في معظم الأحيان.

حلمت الليلة الماضية حلمًا غزير الألوان. حلمت أنني استيقظت من السرير، وكنت جاثيًا أو جالسًا بجانب السرير، ربما كنت أبحث عن نعلي أو شيء من هذا القبيل. وإذ بطفلة صغيرة تسير في الغرفة. كان بإمكانني رؤيتها بوضوح في الضوء الخافت. في الحلم، كنت أعلم أنني أعمى، وأن هذه كانت المرة الأولى التي أتمكن فيها من رؤية الطفلة. حدقت بها والدهشة تملؤني مستغرقًا في تفاصيل وجهها وهي تقف هناك مبتسمة، تمُدُّ يديها نحوي. كان ذلك أشبه بروحي. قلتُ في نفسي: «إذن هذه هي. هذه هي الابتسامة التي يتحدثون عنها جميعًا. هذه هي تلك العيون البنية الثيرة». شعرتُ بعد ذلك بشعورٍ جديدٍ وغريب، شعرتُ أنها كانت مندهشةً لأنها أدركت، بطريقةٍ ما، أن هناك شيئًا مختلفًا عني، وأني كنت أستجيب بطريقةٍ جديدةٍ لها. وقفنا هناك في صمتٍ تامٍّ، أو على الأقل جلسنا هناك، ووقفنا بجانبني. حدقنا في بعضنا البعض في لحظةٍ من البهجة المتبادلة. ثم تلاشى الحلم.

هل كان هذا حلمًا صغيرًا أم حلمًا كبيرًا؟ هل كان مجرد تحقيقٍ لأمنيةٍ أم كان هذا مثالاً على ما يسميه يونغ^(١) النموذج

(١) كارل غوستاف يونغ Carl Jung عالم النفس السويسري ومؤسس =

البدئي للطفل الإلهي^(١)، وهو نوع الأحلام التي كان يرويها عن مرضاه عندما تتكوّن شخصيةً جديدةً بدءًا من طوّر الولادة. لقد كانت الطفلة التي زارتنى في الليل تشعُّ بالبركة.



هذا الصباح بينما كنت أقوم بتجفيفه بعد الاستحمام، سألتني توماس عن المنشفة التي استخدمتها لتجفيف ليزي. أجبت أنه لا أعرف، فسألتني: «هل هي بيضاء؟». مرةً أخرى، أجبت أنه لا أعرف، سألتني: «هل تعرف أمي؟»، وعندما قلت: «نعم» سألتني: «لماذا تعرف أمي».

«لأن أمك يمكنها رؤية الألوان».

«ألا يمكنك رؤية الألوان؟».

«لا».

«لماذا لا يمكنك رؤية الألوان؟».

= علم النفس التحليلي (١٨٧٥ - ١٩٦١)

(١) الطفل الإلهي أو الطفل الداخلي archetype of the divine child وهي شخصية فرعية في إطار التركيب النفسي، تشمل كل ما تعلمه المرء واكتسبه أثناء الطفولة، وتمثّل كيانًا شبه مستقل يتبع للعقل الواعي.

«لأنني لا أستطيع رؤية أي شيء. أنا أعمى».

«أوه».

يتكوّن مفهوم عدم القدرة على الرؤية من أجزاء كثيرة. لا يجمع الطفل هذه الأجزاء في فكرة كليّة واحدة، كما يفعل البالغ. لا يدرك الكثير من البالغين حقيقة أن لا فائدة من قول: «إن شيئاً ما هناك» لشخصٍ أعمى. يجب استخدام الكلمتين: «هنا» و«هناك» بطريقة مختلفة مع المكفوفين. قد نقول إن ذلك البالغ لم يدرك التدايعات اللغوية المترتبة على العمى. قد لا يدرك الطفل تدايعات اللون على العمى. قد يتفاجأ شخصٌ بالغ من كُون أن الطفل لا يدرك أن الأعمى لا يستطيع رؤية الألوان، ولكن أيضاً قد يتفاجأ الأعمى بأن الشخص المبصر لا يدرك تدايعات الألفاظ المترتبة على مفهوم العمى.

كانت هذه أول مناقشة أجريتها مع توماس حول اللون، على الرغم من وقوع حادثٍ قبل حوالي أسبوعٍ جعله يُفكّر في مشكلة الحركة عند المكفوفين. استغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى تعلّمت كيف كان منزلنا مُصمّماً ومنشّقاً في ملبورن. أثناء خروجي من السيارة، حاولت التوجّه بمفردي نحو الباب الأمامي للمنزل. اتّجهت إلى الجانب الأيسر من المنزل بدلاً

من الجانب الأيمن، ناداني أحد البالغين الموجودين ضاحكًا: «في هذا الاتجاه يا جون». قال توماس: «كان يسير في الاتجاه الخطأ. كان سيذهب نحو البوابة». استمرّ في تكرار ذلك، متفاجئًا ومبتهجًا، بينما كُنّا نسير. لست متأكدًا ما إذا كان قد ربط غلطتي بالعمى، أو كان يعتقد فقط أنني فعلت شيئًا مضحكًا.

١٩ سبتمبر

استمتعت حقًا بالسفر في مترو أنفاق لندن يوم الجمعة الماضي. الأسطح أكثر سلاسة للمشي من ممزات وأرصفة الشارع. تعلّمت طريقة أفضل للصعود والنزول من السلالم المتحركة، وهو ما أسعدني، وجدت الإحساس بالريح في مترو الأنفاق مثيرًا إلى حدّ ما. عندما تمر القطارات، تندفع تيارات الهواء على امتداد المنصات والأنفاق وحتى السلالم. مُفعمة برائحة الصحف والمعادن والزيوت، إلى جانب أثار لرائحة السيجار والطعام وملابس الناس.

الأكثر إثارة للاهتمام كان القطار نفسه. بين المحطات، لا يوجد شيء يمكن رؤيته عبر النوافذ، لذلك لم أشعر بالإحباط من ضياع المنظر. وجدت أنه يمكنني بسهولة التمييز بين الاحتكاك المعدني للعجلات على القضبان، والدوي

الميكانيكي للمحركات أثناء تجميع القطار للطاقة، وكشيش فتح وإغلاق الأبواب الأوتوماتيكية، وضوضاء الهواء المتسارع في النفق نفسه. صوت الريح عندما تقترب من المنصة يختلف تمامًا عن صوتها عندما تغادرها. بالإضافة إلى كل هذا، هناك ضوضاء بشرية، محادثات في المقصورة، صوت خطوات الركاب وحركتهم، ضوضاء الخلفية الكاملة للمحطة والتي تفيض إلى المقصورة في كل مرة تُفتح الأبواب فيها. يتكرر المشهد البانورامي بأكمله كل دقيقتين أو ثلاث دقائق، وهو الوقت المستغرق للانتقال من محطة إلى أخرى. ثمّة تسارع يُسرّع ويُسرّع حتى نصل إلى السرعة القصوى. تُسحب الفرامل بعد ذلك ويبدأ التباطؤ. نصل إلى محطة جديدة، نتوقف بفرملة أخيرة، وتبدأ العملية بمرتها مرة أخرى. علاوة على ذلك، فإن الأصوات تغمرني تمامًا.

٢٠ سبتمبر

أدركت أن شدة شعوري بالعمى تتناسب مع وجودي مع الأشخاص الذين أتوق إلى مشاركة حياتهم. على سبيل المثال، لا أشعر بالعمى عندما أكون في العمل. معظم ما أفعله في الجامعة يتم بشروطي وعلى طريقتي. يجب أن يتكيف الناس

مع يومياتي، أن يأتوا إلى مكتبي، وأن يعتادوا على أشيائي، وطريقة عملي. مشاركتنا هناك هي مشاركة للأفكار أكثر من كونها مشاركة للحياة.

مع العائلة، الأمر مختلف. خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه، أصبحت مدركًا لكيفية ممارسة الأطفال المبصرين لحياتهم في العالم المرئي. ألعابهم وروح الدعابة عندهم، ملابسهم وتعثرهم، كل شيء في سياق ما يرونه. وعلى النقيض من ذلك، أصبح لدي يقين أنني لست حاضراً عند هؤلاء الأطفال المبصرين.

أنا، بالطبع، كائنٌ في مجالهم البصري، لكن عالم التجربة المشتركة، العالم الذي نعرفه معاً، العالم الذي نقف أمامه في نوع من الحضور المتبادل، تم تجزيته وتناثره بسبب العمى.

٢١ سبتمبر

في الخامسة من صباح هذا اليوم استيقظت على صوت المطر. ذهبت إلى مكتبي وضغطت بجبهتي على زجاج النافذة. كان المنزل ساكناً تماماً، بدت الشوارع بالخارج مهجورة. وقفت هناك بلا حراك، بالكاد أتنفس، مركّزاً ومنصّتاً لصوت المطر.

أولاً: لاحظت اختلافاتٍ في المكان. تأتي بعض الأصوات من يسار النافذة، وبعضها من اليمين، ويمكنني تتبعها حتى زاوية المنزل وما يحيط به. أُعير انتباهي الآن إلى الأصوات في الأعلى، حيث يرشُّ المطر على الحائط فوق النافذة وعلى سطح المنزل ذاته. تحتني، يسقط المطر على السياج والشجيرات وعلى الأرض.

هناك اختلافات في سرعة الأصوات. هناك التنقيط البطيء والثابت قطرة تلو أخرى، وهناك الشلال السريع المندفع على وقع إيقاعٍ من النقرات الخفيفة للقطرات على زجاج النافذة. تتفاوت سرعة الأصوات بحسب انحسار واندفاع العاصفة المطرية ذاتها، كما أن بعض أنماط الأصوات تتفوق على أخرى، تشبه إلى حدٍّ ما موسيقى المينمال^(١) للملحن الأمريكي ستيف رايش^(٢).

ألاحظ الآن أن هناك اختلافات في الشدة. هنا سطح يصطدم فيه المطر بكامل قوته وهناك سطحٌ محميّ. هناك رَشاشٌ غزير، لا يبدو وكأنّه صوت المطر على الإطلاق، ولكن ماء متجمع يفيض من أنبوبٍ مسدود أو شيءٍ من هذا القبيل.

(١) المينمال أو التقليلية minimal.

(٢) ستيف رينش Steve Reich موسيقيّ وكاتب أمريكي (١٩٣٦ -)

تظهر لي أيضًا اختلافات في الحدة. هناك قرع الطبول عالي النبرة حيث تسقط القطرات على المعدن، وهناك التأثير الأعظم الخافت لسقوط المطر على الطوب أو الخرسانة، وألاحظ أيضًا أن الحدة قد تختلف من نافذة إلى أخرى. ثمة اختلافات في السرعة التي يسير بها الماء: فهو يتدفق، ويُقرقر، ويسُخّ في حالة من الهيجان، تزيد ثم تنقص. هناك اختلافات في الحجم. يكون الصوت مرتفعًا جدًا على لوح النافذة. تهتز ألواح الزجاج على جبهتي. تتضاءل الأصوات، طبقة تلو أخرى، تنحسر حسب بُعد المسافة حيث يسقط المطر على الأشجار القريبة. أنساءل: إلى أي مدى يمكنني سماع سقوط المطر؟ هل يمكنني سماع سقوطه على البيوت الواقعة على الطريق؟ يمكنني بالتأكيد سماعه في المنزل المجاور.

يني كل هذا نمطًا معقدًا. كلما أنصتُ بشكلٍ أكبر، أجد أنني أستطيع التمييز أكثر، أبني لبنة فوق لبنة من الصوت، ألاحظ الاتساق والاختلاف، أحشو بُعدًا وراء بُعد. كان الصمت التام ضروريًا. حتى الصوت الطفيف للتنفّس كان كافيًا لإخفاء أدق التفاصيل. ذكرني هذا بوضاء مترو لندن، والتي تقوم على العديد من الأنماط والطبقات والأشكال، والعديد من الأماكن والمستويات.

هل صحيح أن المكفوفين يعيشون في أجسادهم وليس في العالم؟ أنا على إدراك جسدي تمامًا كما هو إدراكي للمطر. يتكون جسدي بالمثل من أنماطٍ مُتسقة ومختلفة، ممتدة في المكان من هناك في الأسفل إلى هنا في الأعلى. تكشف هذه الأبعاد والتفاصيل عن نفسها أكثر فأكثر كلما ركزت انتباهي عليها. لا شيء يتوافق بصريًا مع هذا الإدراك. عوضًا عن الحصول على صورة لجسدي، كما نسميه: «الشكل البشري»، أستوعب الأمر على أن هذه الترتيبات من الحساسيات، مساحةً وابعاً يمكن مقارنتها بأنماط المطر المتساقط. تقبض علي أنماط المطر في عددٍ لا يحصى من نقاط الوعي، وكذلك يتمظهر جسدي لي بنفس الطريقة. هناك منطقة مركزية، بالكاد أعيها، ويبدو أنها تأتي وتذهب. في أطرافي، تتلاشى الأحاسيس في اللاوعي. يختلط جسدي والمطر، ويصبحان كونا صوتيًا لَمَسِيًّا واحدًا ثلاثي الأبعاد، يكمن وعيي في داخله وفي جميع أنحائه. يحصلُ هذا في تناقضٍ حادٍ مع الخط أحادي المسار للكلام المتتالي والذي يتكون من أفكارٍ. هذا الخط الفكري المُعَبَّر عنه في الكلام لا يمتد في المكان على الإطلاق، لكنه يأتي نحوي مثل عرباتٍ في قطار بضائع، تخرج من الظلام، واحدة تلو الأخرى، وتمرُّ تحت نور المعرفة، لتتحسر في

الذاكرة. يقع هذا الخطُّ من الأفكار المتتالية داخل واقع ثلاثيّ الأبعاد لأنماط الوعيّ التي يتكون منها المطر وجسديّ، مثل محور الخُذروف. يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. إذا توقّف المطر، وبقيت ساكنًا هنا، سيحلُّ الصّمت. سيتقلّص إدراكي للعالم مرّة أخرى إلى حدود بشرتي. إذا كنت مشلولًا من رقبتي إلى أسفل، سيتقلّص أكثر. إلى أي مدى يمكن أن تذهب هذه العملية؟ في أيّ مرحلة يصبح مجرد خطّ فكريّ (كلاميّ)، بدون بيئة متكاملة من الأحاسيس والإدراك؟ ماذا يحدث للمسارات عندما لا توجد أرضية لدعم الخط؟ ماذا يحدث للخُذروف عندما لا يبقى سوى المحور فقط؟ من أين تأتي الأفكار؟ على ماذا تعتمد؟ كم عدد العوامل التي أقيم فيها؟ ما هو العمى؟

٢٢ سبتمبر

يتحقق توماس من المعاني المختلفة المترتبة على العمى والتي تؤثر على علاقتنا، كذلك أصبحت معظم سلوكيّاته في الوقت الحالي. إنه يفهم معظم هذه الأمور، لكنه يتحقق من زوايا مختلفة.

اليوم كان جالسًا على ركبتي، يلون كتابًا للرسم على شكل ديناصور. سألني إذا كنت أرغب في التلوين. قلت إنني لا

أستطيع فعل ذلك؛ لأنني لا أستطيع رؤية حواف الديناصور.
علّق: «لكن يمكنني التلوين؛ لأنني أستطيع رؤية الحواف؛ لأنني
لست أعمى».

وافقته. استمرّ في التلوين لبضع لحظات ثم نظر إليّ.
شعرت برأسه يستدير: «هل يمكنك التحدّث فقط؟»؛

ضحكت وقلت: «يمكنني التحدّث والاستماع».

«نعم!» قالها مسرورًا.

«يمكنني أن أدغدغ».

«ويمكنني أن أصبح، اسمع.» ثم صِغْتُ.

كان مسرورًا بهذا وأراد مني أن أصبح مرارًا وتكرارًا وهو ما
فعلت. انضم إليّ في الصباح. لخصت حديثنا بالقول: «لذا، لا
أستطيع أن أرى، ولكن يمكنني التحدّث، والاستماع،
والدغدغة، والصباح».

صمت للحظات، بدا وكأنه يفكّر في الأمر. ثم اقترح عليّ:
«انظر يا أبي. يمكنك التلوين هكذا». وضَعَ قلم التلوين في
أصابعي، أمسك بيدي وحركها للخلف وللأمام على الورقة.
اقترحت عليه أن يمسك بمعصمي، حتى يتمكن من تحريك

يَدي. قمت بحركات دائرية سريعة باستخدام قلم التلوين
وسرعان ما ظلمت معظم الديناصورات. أسعده ما فعلناه كثيرًا،
كما أسعدني، وكررناه عدة مرات.

ليزي، التي تصغره بثمانية عشر شهرًا، لا تزال غير مدركة
تمامًا تقريبًا لمدلول العمى. طلبت منها هذا الصباح أن ترمي
منديلًا في سلة المهملات. ركضت بالمنديل عبر الغرفة،
وقالت: «هنا؟ هل أرميه هنا؟». وصل توماس إلى المشهد
عندما شعرَ أنه يتعيّن عليه المجيء ليأخذني، أمسك بيدي
ووضعها على حافة سلة المهملات.

٢٨ سبتمبر

سافرت إلى كندا وأستراليا في الأشهر القليلة الماضية. إذا
نظرت إلى الوراثة فليس لدي شعور واضح بأنني زرت أيًا من
البلدين. صحيح أن الأشخاص الذين تحدثت معهم كانت
لديهم لكناات كندية أو أسترالية، لكن هذا قد يحدث في مكثبي
الخاص في برمنغهام. في ذاكرتي، ملف صور فوتوغرافية
لمناظر من ملبورن، لكنني لم أضف أي جديد لهذا الملف.
قمت بجولة بالسيارة في الجزء الشرقي من بحيرة أونتاريو،

حيث يبدأ نهر سانت لورانس، وتبدأ منطقة: «الألف جزيرة»^(١).
أتذكر التعليقات المختلفة التي كان يقولها زملائي المسافرون
في السيارة. توقفنا لفترة قصيرة لتناول الآيس كريم، وسرنا فوق
موقف سيارات مفروش بالحصى. ومع ذلك، بأي معنى
يمكنني القول إن هذه الزيارات قد أضافت إلى تجربتي؟

بمثل ما ينظر المسافر المبصر بلا كاميرا للمسافر المبصر
بكاميرا، أنظر أنا لأي مسافر مبصر. يقوم المسافر المبصر الذي
يحمل الكاميرا بتخزين ذكريات مرئية، بحيث يمكنه إطالة
شعوره بالتجربة الحالية واسترجاعها وإعادة عيشها ومشاركتها
مع الآخرين والاستمتاع بها مرة أخرى. بما أنني المسافر
الأعمى الجالس في السيارة، أنظر إلى زميلي المبصر، باعتباره
شخصاً لديه كاميرا. إنه يسجل باستمرار الأشياء التي لا تنسى
- الأفاق والشلالات وغروب الشمس والجزر والجسور - حتى
يتمكن من العيش فيها والتحدث عنها ومقارنتها بالأمكن
الأخرى التي زارها واسترجاعها مراراً وتكراراً. سيتحدث عن

(١) الألف جزيرة أو جزر الألف One Thousand Islands تشكل أرخبيلاً
في أمريكا الشمالية مكوناً من ١٨٦٤ جزيرة، وتمتد على الحدود بين
كندا والولايات المتحدة في نهر سانت لورانس، شمالي شرق بحيرة
أونتاريو.

الأماكن التي ذهب إليها وعن انطباعاته حولها. يقول المسافر المبصر الذي يحمل الكاميرا لصديقه: «أوه، ولكن لن يكون لديك ما يذكرك بالمكان!». كذلك الشخص المبصر سيقول للأعمى (إذا تساءل عن شكل التجربة): «لن يكون لديك ما تتذكره بها»؛ لذلك عندما أنظر إلى الورا إلى الأماكن التي زرتها في السنوات الأربع الماضية، لا أشعر بأن تجربتي كانت مثيرة بأي شكلٍ من الأشكال بما يتناسب والجهد الذي بذلته للوصول إلى هناك. لقد تعلّمت الكثير عن تلك الأماكن، والتي كان بإمكانني تعلّم معظمها هنا دون عناء. بعد أن تحدثت إلى الناس في منازلهم في هيوستن عن المشاكل الأمنية في المدن الأمريكية، تكوّن لدي انطباعات مختلفة في ذهني عن الحياة في أمريكا، لكن هذا لا يرقى إلى درجة زيارة هيوستن، كما أن الحاجة ماثلة إلى التحدّث مع الناس في مدنهم، حيث إن الحكايات مُستملحة وطازجة. لكن ما هي هيوستن، أوتاوا، ملبورن؟

مثلاً يتعرف المكفوفون على الناس بتخزين ذكريات معيّنة حول اسم الشخص، كذلك الأمر مع المُدُن. حول الكلمة الرئيسية: «أوتاوا»، أقوم بربط ذكرياتي بجميع الأشخاص الذين تحدثت معهم، وكلّ الطعام الذي تناولته، والأسرة التي نمت

فيها، والأيدي التي صافحتها في أوتأوا. هذا ما تعنيه أوتأوا بالنسبة لي: تلك التجميعة من ذكريات الاتصال البشرية، والتي تختلف تمامًا عما قد تستحضره أذهان المبصرين عن أسماء المدن. بالنسبة للمبصرين، تستحضر «سيدني» منظر جسر الميناء، وتستحضر «باريس» برج إيفل، وتحضر ناطحة الإمبراطورية عند تذكر «نيويورك». بعبارات أقل درامية ورمزية، يستدعي اسم أي مدينة للشخص المبصر صورًا لما تبدو عليه تلك المدينة. أما الأعمى، فإما أنه ليس لديه مثل هذه الصور على الإطلاق، أو أنه يتخيل صورًا لما يعتقد أن هذه المدن ستكون عليه. ومع ذلك، فنحن لا نتعلم من صورنا ولا من ذاكرتنا الخاصة، ولكن من تصوراتنا فقط.

الشعور الذي يتبقى من تجربة شخص بالغ فقد بصره مؤخرًا هو شعور غريب بأن المرء قد توقف عن مُراكمَة الخبرات. في السابق، كان المرء دائمًا ما يقف على نهاية خط من الخبرة التي كانت تتسع باطراد. كان الأمر أشبه بوضع قطع من الفسيفساء. كان من الممكن دائمًا التوقف عند الحافة والنظر إلى الشكل، لكن عندما أنظر إلى الوراء الآن، أشعر أن آخر قطعة من الفسيفساء قد وُضعت في صيف عام ١٩٨٠. ومنذ ذلك الحين وأنا أتجول فوق نفايات لا مسار فيها، نفتقر

للخبرات المتسقة والمفهومة والتي قد تملأ المنطقة الواقعة بين المكان الذي أنا فيه الآن وآخر قطعة من الفسيفساء والتي أراها بعيدًا ورائي. عندما تسافر في طريق يتخلله الكثير من المنازل أو الأشجار، يصبح لديك إحساس واضح بالتسعة وبمرور المسافة والوقت. عندما تبدأ في السفر عبر النفايات التي لا تتبع مسارًا، وإنما تهيم بك عبر الفضاء أو عبر الصحراء، عبر عالم لا ملامح له يُفقدك ذلك الإحساس. المساحات الشاسعة تبدو صغيرة، وتبدو المساحات الصغيرة في بعض الأحيان شاسعة. يتفاقم هذا لانعدام تعاقب الليل والنهار، وغياب الإدراك الحقيقي لمرور الفصول. الأيام تزداد برودةً، ولكنها لا تقصر، ولا يمكن اعتبار أوراق الخريف هذا العام أجمل من الخريف الذي كان منذ عدة سنوات، هكذا تفقد التجربة علامات الترقين الخاصة بها.

الطريقة التي يتذكر بها البالغون المكفوفون التجربة تشبه إلى حدٍّ ما الطريقة التي يتذكر بها أي شخص بالغ تجربته منذ الطفولة. كثير من البالغين، عند محاولة تذكرهم لطفولتهم، يتحدثون عن صورٍ بصريةٍ من النوع الذي يمكن الآن إسقاطه في تلك الأماكن، على سبيل المثال، مظهر الأثاث أو مظهر الغرف، تصميم الفناء الخلفي أو صف المحلات التجارية القريبة من

المنزل. ومع ذلك، فإن النقطة المهمة هي أن الأشياء بالنسبة للأطفال الصغار لا تبدو على ذلك النحو، وبالتالي لا يمكن تخزينها في شكل يمكن للكبار أن يتذكروه أو يتعرفوا عليه باعتباره مماثلاً للصور المخزنة مؤخرًا. بين الحين والآخر، وبعيدًا عن الإلهام البصري العرضي، يكمن شيء أعمق يمكن أن يُطلق عليه ذاكرة الجسد. هذه ليست ذاكرة لما بدت عليه الأشياء، ولكنها ذاكرة الشعور بتلك الأشياء. المشاعر الأكثر تأثيرًا في هذا النوع من الذاكرة هي تلك التي تحصل بشكل منتظم وليست نتيجة لحديث بعينه. قد يصعب تمييزها عن لحظات التعاطف التي يمر بها الطفل. هذا هو الحال مع ذكريات الكبار المكفوفين. تقوم على ما يشعر به الجسد أو يخضع له، وهذا يختلف تمامًا عن الذاكرة البصرية؛ لأن جسمك لا يشعر بما تراه عينك.

لذا فإن ذكرياتي عن ملبورن تتكوّن من عددٍ لا يحصى من رحلات السيارات من مكانٍ إلى آخر، وذكريات ترتبط بالشعور بأنسجةٍ مختلفةٍ مثل حزام الأمان وتنجيدة السيارة. من المدينة الفلانية أتذكر الانزعاج الناتج عن الوقوف في الجو البارد، ومن المدينة الأخرى الشعور بتيّس المفاصل بعد الجلوس لساعات على نفس الكرسي، ومن مكانٍ آخر ملمس البلاط البارد في

الحمام. ذاكرتي مثل ذاكرة الحلزون. يمكن لجسدي أن يتذكر شريطًا صغيرًا ضيقًا من الأرض التي مررت فوقها، والذي يتكوّن من تفاصيل دقيقة ومتناهية الصغر بحيث قد لا تكون ذات صلة من وجهة نظر القطّة أو الكلب. هنا يرتفع ممرّ المشاة قليلًا، هناك شقّ في الرصيف، عمود الهاتف هذا به صفيحة معدنية مثبتة براغي لا تتوافر في العمود الآخر.

هذا الطريق، مثل مسار الحلزون، هو ما أعرفه عند الذهاب من منزلي إلى المكتب. ليس بالتحديد مسار الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ آخر مرورًا بآماكن وسيطة. عندما أحاول تصوّر طريقني، فإنّ ما أفعله هو توقّع الأحاسيس التي سيشعر بها جسدي في أوقات (أي أماكن) مختلفة على طول هذا الطريق. هنا سأسترشد بشيءٍ سيمرّ على يساري، لاحقًا سيكون شيئًا على يميني. ما يقع على بعد أكثر من قدمين أو ثلاثة أقدام على جانبي هذا المسار لا يعني شيئًا بالنسبة لي. إنه ليس جزءًا من تجربتي، إلا عندما أعود إلى المنزل مع ضجيج حركة المرور أو أصوات العصافير. أعرف مكاني بباطن قدمي وطرف عكازتي.

٢٩ سبتمبر

يمكنني الآن التفكير في معنى التجربة الأسترالية بأكملها. يبدو أنني انعطفت عن مسار النفق. حتى الآن، كان هناك ضوءٌ

في النهاية. صحيح، أنني كنت أسافر بعيدًا عن ذلك النور، أعمق وأبعد منه؛ ومع ذلك، كان الضوء خلفي. لقد كانت نقطة ضوء تتضاءل باستمرار، ومع ذلك فإن وجودها منحني التوجيه والإرشاد. على الأقل، ثمة نقطة تعريف في الماضي كنت أراجع عنها. لقد كانت كما النجم الساطع الذي ابتعدت عنه مركبتي الفضائية أبعد وأبعد، لكنني أعرف ذلك فقط بسبب وجود النجم، الذي يحدد النقطة التي ابتعدت.

بالعودة إلى صورة النفق، يبدو أنني انعطفت.

يبدو أن نقطة الضوء قد اختفت. كان الضوء في نهاية النفق يتألف من ذكريات خمسة وأربعين عامًا من حياتي المبصرة. والتي تقع على قسمين. هناك أربعة وعشرون عامًا (١٩٣٥-١٩٥٩) قضيتها في أستراليا. ثم هناك واحد وعشرون عامًا (١٩٥٩-١٩٨٠) قضيتها في إنجلترا، أربعة عشر عامًا منها في برمنغهام. جزء الضوء الذي مثلته السنوات التي أمضيتها في برمنغهام غطته تدريجياً ذكريات سنوات العمى التي أمضيتها. هناك العديد من الرحلات التي يمكنني الآن القيام بها بالسيارة عبر شوارع برمنغهام، على طول الطرُق المألوفة، ويمكنني تحديد مكاني من خلال منعطفات والتواءات الطريق. أنا مثل الكلب، ينام على المقعد الخلفي، يستيقظ لمربع أو مرتعين

سكنيين مجاورين. يعرفُ بجسده تلك الالتواءات والمنعطفات المألوفة والأخيرة للسيارة. هذه الذكريات، إلى حدٍّ ما، حلت محل الذكريات البصرية للشوارع. بالتأكيد أنني ما زلت أفضل حالاً في برمنغهام مما سأكون عليه في أي مدينة أخرى؛ لأنه لا يزال هناك الكثير من تجربتي العمياء التي تُثريها ذكرياتي المبصرة؛ لذلك، على سبيل المثال، ما زلت أرى برج الساعة بالجامعة، والسيد جو الكبير، في مخيلتي. هذا يساعد على ملء محيطي ومعرفة مكاني. الأربعة وعشرون عاماً الأولى كانت مضیئة تماماً. لم تكن هناك فرصة، باستثناء زيارة ملبورن في عام ١٩٨٠ عندما كنتُ ضعيف البصر، لفرض تعديل وتكييف تدريجي للذكريات المرئية بأخرى عمياء. يحول بيني وبين ذلك الماضي المرئي جدارٌ صلب. عندما أفكر في أستراليا الآن، فإنها لا تستحضر فقط منظر الشواطئ المبهرة الذهبية، وغابات الأوكالبتوس^(١) المتمايلة، وسفوح التلال الجافة بتوأتها الصخرية، ولكن أيضاً تستدعي وعورة ركوب السيارة، وصفير الربو الملازم لي من غرفةٍ إلى أخرى، والإحساس بدرابزين حديقة الحيوان بملبورن، ورائحة الأدغال.

(١) الأوكالبتوس eucalyptus جنس كبير به أكثر من ٦٠٠ نوع من الأشجار الطويلة ذات الأخشاب الصلبة، موطنه الأصلي أستراليا وينمو في الفلبين وماليزيا وجزر المحيط الهادئ.

هناك أجزاء من تجربتي المرئية في إنجلترا البالغة ٢١ عامًا والتي لا تزال مُضاءة بشكلٍ ساطع. يبدو أن الضوء يسقط على كلّ الأماكن التي لم أقم بزيارتها كشخصٍ أعمى. في كل مرة أقوم فيها بزيارة إحدى هذه الأماكن، أعود إلى منزلي وكأنني فقدت ذلك المكان، عوضًا عن مُراكمة المزيد من الصور البصرية، وتحديث ذكرياتي القديمة، وتسجيل ملاحظاتي الذهنية للتغيرات، ومعرفة ما يقع خلف الركن الذي لم يكن لدي وقت لزيارته من قبل. لا بدّ لي من البدء من جديد، بمساعدة ذكرياتي البصرية عن المكان، وبمعرفةٍ مختلفةٍ للمدينة؛ لذا فإن مخزوني المعرفي البصري بأكمله يتراجع إلى الماضي، ويصبح أقلّ فائدة، وأقلّ صلّةً بي، وأقلّ دقة. إنه الإدراك الدرامي لابتعاد ذلك الماضي البصري الذي أحدثته زيارة ملبورن التي أشير إليها على أنها مُنعطفٌ في مسار النفق. يتعين عليّ البحث عن طرقٍ جديدةٍ لتوجيه نفسي في المكان بعد اختفاء نقطة الضوء الأخيرة، كما يتعيّن عليّ البحث عن طرقٍ جديدةٍ لتوجيه نفسي في الزمان وطوال فترة حياتي. أعيش الآن في زمانٍ أعمى.

ما معنى العمى؟ من الغريب أنّه بعد أربع سنوات من تسجيلي كفيفًا، وستين من العمى التام، ما زلت أسعى لفهم هذا السؤال.

ما وراء الشاعر

شتاء ١٩٨٤

١٣ أكتوبر

الليلة الماضية كنت أنا ومارلين نتساءل ما إذا كان سيحدث فرقاً في مشاعري تجاه توماس وإليزابيث لو رأيتهم من قبل. هل حقيقة أنني لم أرهم من قبل ستكون خسارة دائمة في علاقتي معهم؟ هل يهتم أنهم يتمون بالكامل إلى حياتي الثانية، حياتي العمياء؟

صحيح أن إيموجين تربط بين الحياتين. كانت في السابعة من عمرها عندما فقدت بصري؛ هي الآن في الحادية عشرة من عمرها. ومع ذلك، أليس من الممكن أن تظل إيموجين في مخيلتي ثابتة بشكل دائم في سن السابعة، بينما تظل مارلين شابة وجميلة إلى الأبد؟

هذا وثيق الصلة بتجربة العمى باعتبارها رحلة إلى نفق

مظلم. تشكّل الوجوه المنحسرة لإيموجين ومارلين نقطة ضوء ثابتة في النهاية البعيدة، ورائي، ما يوفر نقطة مرجعية يمكنني من خلالها الحكم على سفري المستمر عبر النفق. بطريقة ما، يعمل هذا على تضخيم الوقت الذي قضيته في النفق، حيث تظل نقطة التوجيه ثابتة وتجعلني على دراية بالانحسار المستمر للضوء. يبدو الأمر كما لو، وخلال الجزء الأول من رحلة عبر الفضاء، يدرك المسافرون السرعة التي يفصلون بها عن الأرض التي لا تزال مرئية، ولكن بمجرد الخروج في الفضاء الفسيح الأسود، لم يعد هناك ذات الشعور بالسرعة أو الوقت. طالما أن هناك صورة تتراجع وتنحسر، فلا يزال المرء على علم بالرحيل والابتعاد. من ناحية أخرى، فإن عنصر التثبيت هنا، وهو استمرار التفكير في الشخص كما لو أنه على صورته منذ سنوات، ما يجعل الوقت أقل واقعية. يظل شعورٌ لدى المرء بأنه لم يسافر في علاقاته. ثمة تعارض بين الصورة الخالدة والمثبتة والتي لم تسافر، و(من جهة أخرى) الإحساس الحاد بالمسافة، الذي يسافر فيه المرء بعيدًا طوال الوقت. يساعدني هذا التضارب على فهم التبريح والارتباك الغريبيين اللذين أشعر بهما في حضرة من أحب ممن رأيتهم قديمًا، ولكنني ما عدت أراهم منذ زمن. وهذا من شأنه أيضًا أن يفسر محنتي الحالية عند لقاء أقاربي الأستراليين، وخاصة والدي، في الصيف.

هذا مثالٌ جيد لما يسميه علماء النفس: «التنافر المعرفي»^(١). هناك شعورٌ مربك بالانزعاج؛ لأنك تدرك وجود رأيين أو معتقدين متناقضين. أولاً: أعتقد أنني أعرف كيف تبدو. لديّ صورتك في ذهني وأنا أتحدث معك الآن. وبهذا، على الرغم من أنني أعمى، فإن شيئاً لم يتغير. أنا لم أتغير. أنت لم تتغير. لا يزال بإمكانني التواصل معك بوساطة تلك الصورة البصرية الموجودة في ذاكرتي. ثانياً: أعلم أنه بين تلك الذاكرة البصرية التي تتوسط بيننا وبين حياتي الحالية الفعلية، هناك نهراً أسود وعميقٌ من الزمن، يغمر ضفتي وعمي، ويزداد اتساعاً وقوة، ويحملنا بعيداً عن بعضنا البعض. صورتك هناك، على الجانب البعيد، تتراجع وتنحسر دائماً ولا يمكن الوصول إليها تماماً الآن. لقد تغيرت أنا، وتغيرت أنت، وكل شيءٍ تغير. هناك تضاربٌ بين هذين المعتقدين.

قد يجعلك الانزعاج من هذا التناقض تشعر بعدم الارتياح قليلاً، أو قد يصبح موجعاً للغاية. يمكن تخفيفه بطرقٍ متعددة. قد أحاول أن أدير ظهري لصورتك لأنها تتوهج بشكلٍ ساطع على الجانب البعيد من المدى. يمكنني حينها محاولة إعادة بناء علاقتي معك على أساسٍ جديدٍ تماماً، في هذا الجانب، حيث نحن الآن.

(1) cognitive dissonance

من ناحية أخرى، قد أميل إلى التريث والبقاء في الماضي،
بالانغماس والتأمل في صورتك التي أتذكرها، أبقئها دائماً
أمامي، أتحدث معك دائماً وكأنني أتحدث قاصداً تلك الصورة
المحبوبة. في الحالة الأولى، أحاول إلغاء الماضي. في الثانية،
أعيش في الماضي.

في علاقتي مع توماس وليزي لست على علم بهذا التضارب
بالذات. لكنني أتعرض للتهميش كأب. لقد أصبح تفاعلي
معهم الآن محدوداً للغاية، وأشعر أنني لست الأب الذي أرغب
أن أكونه. بالرغم من ذلك، لا أشعر بهذا الإحساس الغريب في
وجودهما، بالصدمة المُستعصية التي أشعر بها أحياناً مع
إيموجين ومارلين، ومع والدي. توماس وليزي أطفال العمى.
لقد اعتادا عليهما؛ ولذا فإن علاقتي بهما لا تعيقها ذكرياتي البصرية
من الماضي. بل تتطور بالكامل على غرار علاقتي غير المرئية
الأخرى. هل أختبر إذن مع توماس وليزي ما يسميه ألفريد
شوتز^(١) «التقدم في السن معاً»^(٢)؟ هل هناك مقاسمة مشتركة
في محاولة إنضاج هذه التجربة؟ هل نحن حقاً معاً، نتشارك هذا

(١) ألفريد شوتز Alfred Schutz فيلسوف نمساوي وعالم في
الظواهر الاجتماعية (١٨٩٩-١٩٥٩).

(2) growing old together

الزمان والمكان؟ الجواب: نعم. قد تكون القاعدة ضيقة، لكن المجتمع المشترك موجود. لست على يقين أن ما سبق ينطبق على إيموجين ومارلين.

مع امرأة محبوبة، يكمن الكثير من تجربة التقدّم في السن معًا في مشاهدة عمل الوقت. ربّما في حالة الطفلة التي تصبح مرافقة، فإن الأمر يكمن في مشاهدة عملية النمو. أريد أن أرى كيف يتحول هذا الوجه الطفولي إلى وجه امرأة شابة. هل سيكون الأمر مختلفًا مع الابن؟

علاقتي بالأطفال الأصغر سنًا يسيطر عليه عناصرٌ مفاجأة الدور (فقدان الأبوة)، لكن علاقتي بإيموجين ومارلين متأثرة بالتضارب المعرفي (الإشارة إلى الماضي باعتباره الحاضر).

هذا ينطبق على علاقتي مع نفسي. أعرف كيف أبدو من ذكريات الصور الفوتوغرافية ورؤية نفسي في المرأة. من الغريب أن العديد من الصور التي أتذكرها بوضوح ليست حديثة، لكنها التقطت منذ سنوات، وبقيت عالقة في ذهني؛ لذلك أعلم أن ذكرياتي عن نفسي أصبحت قديمة بالفعل، والشيء الغريب أنني لا أستطيع تحديثها. هذا يُشعرني بالتنافر المعرفي عندما أفكر في نفسي. من ناحية، أعلم أنني فلاّن من

الناس بملاح معيّنة. من ناحية أخرى، أعرف نفسي كشخص
ربّما ما عاد يبدو كذلك، ولا أستطيع الوقوف ومشاهدة أثر
الوقت والزمن على ملاح وجهي. كيف يمكنني أن أتقدّم في
العمر مع نفسي؟

لقد انفصلت عن ظلي كما في الرسوم المتحركة. صورة
مرتعة لنفسي تركت ورائي، في حين أن شخصي الحقيقي
تشطّى بفعل انفجار مفاجئ، ما قلّني إلى صورتين. كل واحدة
لديها تعابير وقوام مختلف، وتقوم بأشياء مختلفة. أنا على
علاقة مزدوجة مع نفسي.

هل يجب أن أنسى كل شيء عن شكلي ومظهري القديم؟
هل يجب أن أحاول الآن التعرّف على نفسي مرة أخرى بالكامل
على أساس بيانات غير بصرية؟ من الواضح أن هذا أمر لا
مناص عنه. ماذا سيحلّ، إذن، لتلك الخمسة والأربعين عامًا من
كونك مبصرًا؟

لابدّ وأن هذا جزء من السبب الذي جعل العودة إلى
أستراليا موجهة للغاية؛ ذلك أنني واجهت الأربعة وعشرين
عامًا الأولى، طفولة وشباب تلك الذات المبصرة، والتي
أصبحت الآن منفصلة عني؛ لأنني تائه الآن في مفترق طرق
معرفة نفسي.

أعتقد أنه ديفيد سكوت بلاكهول^(١)، في سيرته الذاتية: «بالطريقة التي أراها»^(٢)، أشار إلى مدى انزعاجه عندما يرفض الناس الإجابة على سؤاله حول مكان وجوده ويصرون على سؤاله عن المكان الذي كان يحاول الوصول إليه. أشارك هذه التجربة.

عندما عدت إلى المنزل الليلة الماضية، لم أستطع العبور إلى طريقي المعتاد بسبب بعض أعمال البناء على أحد ممّرات المشاة. عن طريق الخطأ انعطفت إلى شارع جانبي، وبعد مربع سكني أو نحوه، عندما أدركت أنني ارتكبت خطأ في مكان ما، لم أكن متأكدًا من مكاني بالضبط. كان هناك بعض الرجال يعملون على سيارة متوقفة على جانب الطريق. قلت: «معذرة، هل يمكن أن تخبرني أين أنا من فضلك؟ ما اسم هذا الشارع؟». أجاب الرجل: «إلى أين تحاول أن تصل؟».

(١) ديفيد سكوت بلاكهول David Scott Blackhall شخصية بريطانية إذاعية، كاتب وشاعر فقد بصره تمامًا في الخامسة والأربعين من العمر (١٩١٠-١٩٨١).

(٢) بالطريقة التي أراها The Way I See it، ديفيد سكوت بلاكهول، كتاب سيرة ذاتية نُشر عام ١٩٧١.

قلت بضحكةٍ مرحةٍ: «لا تهتم بهذا، فقط أخبرني، من فضلك، ما هذا الشارع؟».

«هذا طريق ألتون. عادةً ما تصعد طريق بورنبروك، أليس كذلك؟ إنه على بعد مربعٍ سكني من هنا».

شكرته، وأوضحت أنني بحاجة الآن لمعرفة مكان تواجدي بالضبط في طريق ألتون حتى أتمكن من الوصول إلى طريق بورنبروك. «في أي جانبٍ من طريق ألتون أنا أسير؟ إذا واجهت هذا الطريق، فهل سأخرج إلى طريق بريستول أم العكس؟».

«أنت تعيش في أعلى طريق بورنبروك، أليس كذلك؟ حسنًا، إذا أخذت المنعطف القادم إلى يسارك، فستكون على ما يرام».

ولكن أي اتجاه هو «يسار»؟ هل يقصد عبوري الطريق أو البقاء على هذا الجانب؟ عند هذه النقطة، يشعر المكفوفون والمبصرون بحيرةٍ متبادلةٍ.

عندما يتيه شخصٌ مبصر، فإن ما يهمه ليس مكانه، بل إلى أين يتجه. عندما يتم إخباره أن المبنى الذي يبحث عنه يقع في اتجاهٍ معين، لا يصبح تائهاً حينها. يتيه المبصر بمعنى أنه لا يعرف مكان المبنى الذي يبحث عنه. لا يتيه أبدًا لأنه في شارع

لا يعرفه؛ ينظر فقط إلى لافتة الشارع على زاوية المبنى. لقد فقد اتجاهه، وليس موقعه. الأعمى التائه يفقد اتجاهه وموقعه. يحتاج إلى الموقع لاكتشاف الاتجاه. يا له من ضياع كبير لدرجة أن معظم المبصرين يجدون صعوبة في تخيله.

١٠ نوفمبر

غالبًا ما يساعدني الأشخاص المبصرون في إيقاف سيارات الأجرة. لا يمكنني إحصاء عدد المرات التي يقودني فيها صديقي الجديد على الطريق إلى سيارة الأجرة، وينقل التعليمات لسائق سيارة الأجرة. عادةً ما نسير إلى صف سيارات الأجرة، ويسألني دليلي إلى أين أنا ذاهب. يأخذني إلى سيارة الأجرة بعد ذلك، يتأكد من أن لا أخطئ رأسي عند الركوب، ثم ينقل التعليمات إلى السائق.

يعتني بي الشخص المبصر ويرعاني. العلاقة الناشئة من هذه الرعاية تُشعره أنه شخص بالغ وأنني طفل. إذا كنت تضع طفلاً في سيارة أجرة، فستحاول أن تعرف من الطفل المكان الذي يعيش فيه بالضبط أو المكان الذي يعتقد أنه ذاهب إليه. لن تترك الأمر للطفل ليتفاوض مع سائق سيارة الأجرة. يجب أن تتأكد من أن السائق قد استوعب كل المعلومات وفهمها

تمامًا قبل السماح للطفل بالخروج من رعايتك. كذلك هو الأمر بين المبصر والأعمى.

١١ ديسمبر

توماس مهتمٌ جدًا بكيفية معرفتي للأشياء، ومدى معرفتي بها وتفصيلها. في الإفطار هذا الصباح قلت: «الآن أنت تأكل! هذا هو توماس الشاطر».

قال: «كيف تعرف؟».

«يمكنني سماعك، ويمكنني الشعور بك.» وضعت راحة يدي على ظهره، وشعرت أن جسده يهتز وهو يمضغ.

ابتعد قليلاً وأكل بهدوءٍ أكثر، وسأل: «هل ما زلت تسمعني؟ هل أنا أمضغ؟».

«نعم، ما زلت أسمعك».

سأل مرةً أخرى بعد تناول الطعام بهدوءٍ أكبر.

أجبت: «لا، لا أستطيع سماعك الآن. هل أنت تأكل؟».

أجاب بمرحٍ: «نعم» وبدأ يمضغ بصوتٍ مرتفعٍ مرةً أخرى.

لقد اكتشف الحدّ الفاصل.

بينما كان يرتدي ملابسه بالطابق العلوي، في حضوري، قال لمارلين: «عندما أكون أكبر سنًا في العاشرة من عمري، هل ستتحسن عينا أبي؟».

ردت مارلين: «لا، توماس، لن نكون قد تحسنتا».

«هل ستحسنان بعد وقتٍ طويل، طويل، طويل؟».

«لا، عزيزي، لن تتحسنا أبدًا».

«أوه».

١٣ ديسمبر

قضيت عشرة أيام في المستشفى. كنت في جناح صغير بسريرين، بعيدًا عن الجناح الرئيسي الذي يستوعب حوالي عشرين سريرًا. كانت الغرفة النهارية، حيث كان الهاتف، في نهاية الجناح الرئيسي. للوصول إليها، كان عليّ أن أمشي على طول الممر في منتصف الجناح الرئيسي و صفت الأسرة على كلا الجانبين.

في المرة الأولى التي قُمت فيها بهذه الرحلة، كانت التجربة كابوسًا. قد يكون المرور بين سِماطين^(١) هو أقرب شيء لما

(١) المرور بين سِماطين أو صَمَّين running the gauntlet، وهو شكل =

شعرت به هناك. كانت ضجة عارمة. بعصاي البيضاء، جذبت انتباه كل العيون. توقفت كل المحادثات. قدّم كل رجل في الجناح نصيحته الخاصة. «إلى اليسار قليلاً! إلى اليمين قليلاً! انتبه يا صديقي! الآن أنت على ما يرام يا صاحبي! تقدّم للأمام مباشرة وستكون بخير. احذر العربة في طريقك! الآن توقف قليلاً.» لقد كنت مرتبكاً تماماً من كل هذا، ووجدت أنه من المستحيل التركيز.

عندما وصلت إلى نهاية الجناح، توقفت وسألت أحد الرجال الذين كانوا يقدّمون لي هذا التشجيع الودّي أن يقرأ لي رقم هاتف مكتوب على قطعة من الورق. جاء صبيّ صغير وقرأه. حفظته وشكرته وذهبت فيريقي. سمعت رجلاً أكبر سنّاً يقول لهذا الفتى: «من الأفضل أن تلحق به وتأكّد من أنه على ما يرام.» بعد ذلك ببرهة، سمعت صوت أقدام خلفي، ووقعت يدّ على ذراعي. استدرت وقلت بعفوة، ولكن بابتسامة: «ماذا تريد؟».

ضحك الصبي، وأجاب مُحرّجاً: «لقد جئت للتو للتأكد من أنك لم ترتطم بالباب.»

= من أشكال العقاب البدني في القرون الوسطى حيث يُجبر الطرف المُدان على الرّكض بين صفّين من الجنود، الذين يضربونه ويهاجمونه بالعصي أو بأسلحة أخرى.

أجبتة: «حسنًا، شكرًا جزيلًا لك، ولكن بمساعدتي بهذه الطريقة، جعلتني أنسى رقم الهاتف».

ضحك من إجابتي، وسحبت قطعة الورق من جيبي.
«الآن، ماذا كانت؟».

قرأها لي وانطلقت مرة أخرى. من الخلف، صرخ: «إلى اليسار قليلاً، انتبه، الآن أنت بخير، إنه أمامك مباشرة».

استدرت وقلت: «اششش - ستجعلني أنساها مرة أخرى!».

أجابني: «آسف».

وجدت باب الغرفة النهارية، ومررت وأجريت مكالمتي.
كانت رحلة العودة بذات السوء والروعة. مرة أخرى، كان كل رجل في المكان يساعدي. كانت الأجواء مشحونة بصيحات: «اليسار قليلاً، واليمين قليلاً، والوراء قليلاً». شعرت بأنني غير قادرٍ على تجاهل كل هذه الإشارات، كنت أستدير من اليسار إلى اليمين وكأنتني الأمير فيليب في معرض، أشكر هذا الرجل وذاك الرجل، أقول: مرحبًا، وداعًا، وأؤكد لهم أنني بخير، كان من المستحيل تمامًا التركيز في خضم ذلك، وكنت في خطر حقيقي من الارتطام بعربة. عندما عدتُ إلى غرفتي

الصغيرة، وجدت يدي رطبةً من العرق، كان قلبي ينبض
بالإثارة، وشعرت بالإرهاق التام. لقد تغلب عليّ المجهود
والحرَج.

منذ ذلك الحين، أُجري اتصالاتي الهاتفية في وقتٍ متأخرٍ
من الليل عندما يكون الجميع نيام. كان من السهل جدًّا المشي
في الممر، ولمس نهايات الأسرّة التي أمرُّ بجانبها للتأكد من
أنني كنت أسير بشكلٍ مستقيم. لا أواجه أدنى صعوبة في العثور
على الهاتف، ولا أرتطم بأي شيء، شريطة أن يكون الجميع
نيام. محاولات المساعدة التي كانت تُقدّم لي هي ما كان
يعطلني.

٣٠ يناير

في طريقي للمنزل ذات مساء في نوفمبر الماضي. كنت واقفًا
عند إشارة المرور على طريق بريستول في انتظار صوت الصفير.
أدركت فجأة التناقض بين ما يجب أن أبدو عليه، وما شعرت به
حقًّا. كل هؤلاء الناس الذين يندفعون على عجلٍ في سياراتهم
يجب أن يقولوا: «يا إلهي. هنالك رجلٌ أعمى. أمل أن لا يعبر
أمامي. أتساءل ما إذا كان بخير. ربّما عليّ أن أبطئ أو أسأله ما إذا
كان يحتاج إلى مساعدة. أتساءل لماذا لا يرافقه كلبه؟».

لكن من داخلي، شعرت بالخفة والثقة والقدرة على التعامل مع موقف كنت أعرف أنه يمكنني التعامل معه. كان ضجيج حركة المرور القادم من كلا الاتجاهين عاليًا وغنيًا، والأصوات الخارجية القادمة من الأشخاص العابرين على ممر المشاة، أعلى في هذا الجانب من الطريق، وأكثر خفوتًا على الجانب الآخر، جميع الأصدااء والملامح الأخرى كوّنت الشكل السمعي لما أسمّيه طريق بريستول. في غضون لحظات قليلة، ستتغير ضوضاء حركة المرور. عوضًا عن الحركة الحالية لأصوات الوصول والمغادرة، سيكون هناك هديرًا للمحركات العابرة على كلا الجانبين. يعقبها فترة هادئة. أميل حينها إلى الأمام، وأمد عصاي البيضاء بطولها الكامل، وأنقر بها سريعًا أولاً على جانب واحد متني، ثم على الجانب الآخر، أعلن بذلك عزمي على العبور (إذا كان أي شخص يشك في ذلك) ثم أتقدم بجرأة في ذلك الفضاء الصامت. أسير عبر الطريق بسرعة، وأنقر الرصيف البعيد بعصاي، أخطو إلى ممر المشاة، وألتفت للحظات ملوّحًا للسائقين المُتخيلين قبل أن أستريح عند الأعمدة المعدنية للسياج المقابل. حينها أكون قد أغلقت الفجوة ورائي وعاد الصخب يغمر الشارع من كلا الجانبين. لقد نجحت، لقد فعلتها مرة أخرى.

ومع ذلك، فقد أدهشني، بينما كنت أقف في انتظار صوت الصغير، شعوري أن ما كان بالنسبة لي بيئة طبيعية تمامًا ومكتملة وغنية بالمعلومات التي تخبرني بكل ما أحاجه من أجل عبور آمن، تبدو بالضرورة وتظهر بشكل مختلف تمامًا لسائق السيارة. عبرت الفكرة في ذهني: «إنهم يعتقدون أنني أعمى، لكنني لست كذلك!». ما قصدت قوله هو: «إنهم يعتقدون أنني جاهل وعاجز، وأنتي لا أعرف أين أنا، وربما أقوم بفعل شيء سخيف وخطير لنفسي أو لهم. لكن في الحقيقة قد أكون بنفس درجة أمان عابر عادي مُبصر لهذا المكان».

إذا نظرنا إلى الوراء الآن، أعتقد أن هذه كانت المرة الأولى التي شعرت فيها بالهدوء والثقة كشخص أعمى في عالم المكفوفين، حيث يمكنني التحرك والتنقل بشكل معقول وبأمان وسهولة. الآن وبعد عيد ميلاد لا بأس به، أشعر بوضوح أكثر من أي وقت آخر؛ أن التجربة الأسترالية في الصيف الماضي كانت نقطة تحوّل، إن لم تكن نقطة انكسار، في فترة حزني على فقدان البصر. ما زلت أحيانًا أعاني من إحساس حاد وشديد بالفقد والخسارة، لا سيّما في وجود الأطفال، لكنني بشكل عام أصبحت أكثر هدوءًا. أصبحت الحياة محتملة، فأنا مسيطر بشكلٍ أو بآخر على حالتي وعملي ومشاعري. أعلم وعليّ أن

أقول إن العديد من هذه المشاعر سوف تعاودني، وأنتي سأدخل في مشاعر الحزن مرارًا وتكرارًا. ومع ذلك، فلقد انتهت فترة الحزن الرئيسية.

لقد استغرق الوصول إلى هذه النقطة أربع سنوات ونصف. في البرنامج الإذاعي: «إن تاتش» في ذلك اليوم، كانت إحداهن تتحدث عن فترة حزنها على فقدان البصر. بضحكة اعتذارية، أشارت إلى أن الأمر استغرق أسبوعين كاملين. لا زلت مندهشًا من قدرة بعض الناس على التكيف بهذه السرعة. بالنسبة لي، كان الأمر بمثابة موت طويل وبطيء ومُتلَكٍّ.

٣ فبراير

يبدو أنني بخير ما دمت آخذ بزمام المبادرة. مُنح الأطفال مجموعة ألعاب بناء وتركيب في عيد الميلاد. كانت الصواميل والمسامير كبيرة مثل أصابع الكبار. كان طول شرائح البناء البلاستيكية تتفاوت بين ثمانية إلى ثمانية عشر بوصة. لقد كانت شيئًا أوليًا طفوليًا، من السهل جدًا على الأعمى التعامل معه مقارنةً بالألعاب الليجو الصغيرة جدًا والمعقدة.

قبل بضعة أسابيع، قضيت أنا وتوماس وقتًا رائعًا في اللعب بهذه الألعاب والتركيبات صباح يوم السبت. صنعنا مسدسًا

فضائيًا ثم كرسيًا مرتفعًا ومتحركًا بعجلات للدبّ تيدي. لقد كان إلى حدٍّ بعيد أفضل وقت لعب أمضيته معه على الإطلاق.

كنت أفعل شيئًا، وكنا نفعله معًا. في معظم الأوقات، أكون مجرد حاضِر فقط أثناء فعل أي شيء. حتى عندما نقوم ببعض الأشياء معًا، غالبًا ما يكون الأمر فرديًا وتلقائيًا، مثل الأكل، وهو ما نفعله في نفس الوقت، ولكن بشكل منفصل. كانت المتعة متبادلة في البناء باستخدام مجموعة ألعاب التركيب.

كان اليوم مختلفًا نوعًا ما. جاء صديقٌ قديمٌ ومحبوبٌ للعائلة بهدايا عيد الميلاد المتأخرة. كانت الهدايا عبارة عن مجموعة من الأنابيب البلاستيكية الصغيرة التي تحتوي نوعًا من المطاط الرغوي والذي يتحوّل إلى أشكال حيوانية عند وضعه في الماء الدافئ. أحبّ الأطفال اللعبة. كانت صيحات الفرح تتوالى من الحقام كلما تشكّل وخرج حيوانٌ جديد.

بعد ذلك، كان هناك دميةٌ على هيئة مهرّج. كان عليك تعليق حلقاتٍ وأساور مختلفة على يديه وقدميه.

في صباح اليوم التالي استيقظت وكنت لا أزال أشعر بالتعاس. جاء طفلٌ صغيرٌ ليلعب مع توماس وليزي. هذا الموقف دائمًا صعب إلى حدٍّ ما؛ لأنني لا أعرف بالضبط ما

يفعلونه. أفقد ردود الفعل والتفاعلات. من الصعب للغاية معرفة ما يفعله الشخص الذي لا يصرخ. وضعت شريط كاسيت وذهبت إلى غرفة الطعام للاستماع إلى مكبرات الصوت الإضافية. كان علي أن أفق وأتكى على الحائط لأبقى مستيقظًا. مرّت موجاتٌ من النوم عليّ وفي النهاية سعدت لأستلقي. أطفأت نفسي لمدة ثلاثة أرباع الساعة تقريبًا.

اتجهت بعد ذلك لتناول طعام الغداء، لكن توماس طلب مني أن ألعب بالمهزّج المحمول. كان لدي شعور أن ذلك سيكون صعبًا للغاية، لكنني أردت بشدّة المحاولة. سمحت له أن يقودني إلى غرفة المعيشة وعندما جلست وضّع المهزّج في يدي. كان عبارة عن كتلة من الأشكال والخيوط. بعد بعض الاستكشاف والاستطلاع، وجدت ما يجب أن يكون قبعة المهزّج. بدا وكأنه يقف على إحدى رجليه، بينما رجله الثانية في الهواء وكأنه يركض، وذلك ما أكّده توماس بعد ذلك. حملت المهزّج في وضعٍ مستقيم بينما بدأ توماس في تزيينه بأجزائه وقطّعه الصغيرة.

خلال هذا الوقت، خلجاتٌ أكثر من كونها موجات من التعاس والنوم بدأت تنفّخ في دماغي. شعرت بأنني أبتعد أكثر

فأكثر. عند دخولها الغرفة، شعرت مارلين بالقلق عليّ عندما رأنتي، وحقتني على الذهاب إلى المكتب. على مضضٍ، أخذت بنصيحتها، وذهبت بقلبي مثقل. كنت منسحبًا، سواء كان ذلك إلى الداخل أو إلى الخارج، لكنه كان أسلوبِي الوحيد للدفاع.

حتى أثناء المشي إلى العمل شعرت بالدوار، وبمجرد أن جلست على كرسي مكتبي المريح، نمتُ وكأنني مُخدَّرٌ لمدّة استمرّت ثلاث ساعاتٍ تقريبًا. بعد ذلك، استيقظت وما أن بدأت في تنظيم أشرطة الكاسيت الخاصة بي على المكتب لبدء العمل حتّى اتّصلت مارلين.

كان الأمر أشبه بالتخدير. أثناء اللعب بالمهرّج، شعرت بالشعور الذي تشعر به عند حقنك بالمخدّر قبل العملية. تبدأ في الشعور بالنوم يزحف عليك. ما شعرت به يمكنُ مقاومته بالطبع، وإلا كنت سأقع. مع ذلك، كان ذلك أقرب تشبيه.

لابدّ وأنّ ذلك نوعٌ من الحماية ضدّ وضعٍ لا يُطاق. أسمع الأطفال وكل شخص آخر يصرخون بفرح وجور ويتحدّثون، ويبدو الأمر كما لو أنّ المعرفة التي لديّ تسخر من المعرفة التي لا أملكها، في حين أنّ أثر هذا التباين في النفس يجعلني أرغب في الاستغناء عن أي معرفةٍ مستقبلية.

كانت زيارة صديقة قديمة بالتأكيد عاملاً آخر. لعبت بكل
سعادة مع الأطفال. أشارت إلى الألعاب واهتمت بها، وفتحت
الصناديق الجديدة بكل هدوء، وجلست تنظر في كتيب
الإرشادات. أشعرتني وهي تشغل الألعاب وتلعب مع الأطفال
بالصعوبات التي أعاني منها عند اللعب معهم، والافتقار إلى
البراعة في معرفة التفاصيل ما أفسد دوري وأهميتي بينهم.
لطالما كان لدي حبّ خاص للتفاصيل الدقيقة لسلوك الأطفال.
الغريب أنني لن أصف ردّة فعلي على أنها كانت عاطفية.
وبالمثل، كما تعلّمت بالفعل، فإن الاكتئاب المرتبط بالعمى
ليس شعوراً. في الحالة التي أصفها، لا أشعر بالحزن فعلاً،
وبالتأكيد ليس لدي أي شعور بالمرارة. عندما أفكر في علاقتي
مع إيموجين عندما كانت في الثانية أو الثالثة من العمر، وكيف
اعتدنا على اللعب معاً لساعات، وأقارن ذلك بعاداتي الحالية
في اللعب مع توماس وليزي، يتكوّن لديّ شعور. من الصعب
تحديد ماهية هذه الشعور. هل من الممكن أن تكون المشاعر
مستحوذة عليّ بشكلٍ غريبٍ أو قريبٍ جدّاً، بحيث لا يمكن
للمرء توصيف حالته أو إطلاق اسمٍ عليها؟ هل من الممكن أننا
نذكر فقط مشاعرنا المعتدلة؟ هل المشاعر، كما الضوء، تخطف
بصرنا وبصيرتنا عندما تكون شديدةً للغاية؟ أفضل ما يمكنني

فعله هو أن أقول إنه شعورٌ قارِصٌ ولاذعٌ بالخسارة. هناك أيضًا شعور بالاشتياق إلى علاقة والحصول على تجربة، وربما بعض الدّعر من فكرة أن كلّ هذا يمرُّ الآن في داخلي وأن تلك السنوات الذهبية من لعب الأطفال لا يمكنُ استردادها أبدًا.

ثم يبدو لي أنني فقدت إيموجين، إبتني من زواجي السابق، بطريقةٍ ما وها أنا أفقد هذين الطفلين الآخرين بطريقةٍ مختلفة.

ومع ذلك، في هذه الحالة، لا أشعر بالبكاء على الإطلاق، ولست على درايةٍ بشعور الغضب أو الشفقة على الذات أو أي شعورٍ يثير الشفقة. إنه بالأحرى كما لو أن النّية حلّت محلّ الشعور. النّية هي الانسحاب. لم تعد الحياة العاطفية تُمارس كمحتوى (بمعنى محتوى محدّد من الغضب والحزن وما إلى ذلك)، ولكن كنوعٍ من الشعور بالخدر. ألجأ إلى النوم، أو النوم يلجأ إليّ ويسكن داخلي.

بمجرد أن أكون في الخارج وبحضور الأطفال؛ أكون في وضعٍ يسمح لي بالاستسلام لهذه المشاعر وأشعرُ بنوعٍ من الاستيحاش، ولكن بشكلٍ أساسي نوعٍ من العجز، وعدم القدرة على التفكير أو التصرف، ارتباك أو انجراف بعيد، جنبًا إلى جنب مع شعورٍ بالراحة الجسدية بينما يأخذني النوم.

يبدو أن ذلك يستغرق في العادة عدّة ساعات، أشعر بتحسّن في بعض الأحيان بعد أن يستحمّ الأطفال ويناموا. قد أكون في المكتب، ولم أفكر في العودة إلى المنزل بعد، لكنني أتحمّن بطريقة ما كما لو أن همًّا رُفع عني. في بعض الأحيان تأتي نقطة التحوّل في وقت مُبكر، عندما أعلم أنّ الروتين المعتاد في المساء قد حان؛ الاستحمام والتغيير وطقوس النوم. أشارك في هذه الطقوس كثيرًا وبنجاح كبير. يبدو الأمر كما لو أنني أعلم أن وقت اللعب قد انتهى الآن، وقد بدأ تسلسلٌ جديد يمكنني التعامل معه.

٤ فبراير

أثناء محاولتي العمل في عطلة نهاية الأسبوع، كنت مكتئبًا في المكتب وأخذتني نومة ثقيلة، كما لو كنتُ مخدّرًا. حلمت حلمًا واضح المعالم عن المكتب. كانت الغرفة مليئة بالضوء. لاحظت أنني لم أغلق باب المكتب. كانت الناس تمشي ذهابًا وإيابًا في الممر، ربّما رأوني في المكتب نائمًا على الكرسي. كل هذا كان في الحلم. ربّما كنتُ نصف مستيقظ؟ كان هناك خزانة ملابسٍ يخرج منها الضوء. شعرت بالضوء وبحثت عن المفتاح. كان ضوءًا شديد السطوع لدرجة أن كل التفاصيل في

خزانة الملابس كانت واضحة. ظهرت الملابس المعلقة على الخطافات بتفاصيل رائعة مقابل الجدار الكريمي اللون. عندما حذقت في الغرفة، بدت الإضاءة غير مكتملة ولفّت انتباهي إلى تفاصيل لم ألاحظها من قبل. ما هذا؟ باب. بابٌ داخليّ ربما يقود إلى المكتب التالي. باب خشبيّ مطليّ ومشغولٌ على الطراز القديم، بتصفيحة منقوشة مستطيلة الشكل ومقبض دائري من النوع المحليّ. كان الباب بلون الشوكولاتة، غنيّ باللون البنيّ مقابل لون الجدار الكريمي. نظرت إلى ذلك الباب بانبهار، وتساءلت كيف يمكن أن يكون هناك وأنا أشعرُ وأعتقد أنّني أعرف كل زاويةٍ وركنٍ في هذه الغرفة، كيف لم ألاحظ ذلك من قبل؟ ومن ثم استيقظت.

عند الاستيقاظ، بدا لي حلمًا غريبًا ومؤثرًا. لكن لم أستطع معرفة السبب. ربّما يتعلق الأمر بالخصوصية، وفقدان الخصوصية وما يتبعها، بما في ذلك الثلاثة أبواب، أحدها مفتوح، والآخر نصف مفتوح؛ يمكن لنصفي فقط الدخول (باب خزانة الملابس)، والباب السريّ. يعكس الحلم العلاقات بين كلّ شيءٍ في الداخل وكيفية ارتباطها بالعالم. كما يصفُ مختلف أنواع المشاعر، من المنغصات حتى الممكنات التي يفرضها العمى، ويرسم الطريق للتعاطي والتواصل مع العالم

الخارجي. ثقة أمل غريب في الباب الغامض والمغلق بإحكام والذي لم يُكشَف من قبل، ثمة مكان مألوف لم تعرفه من قبل. إذا نظرت عن كثب في أكثر المواقف الحميمة، لا بد وأن هناك باب آخر لم تطرقه.

5 فبراير

أمضى كليف إنمان، بعد تعرّضه لحادث سير، ستة أشهر في المستشفى وستة أشهر أخرى أو نحو ذلك وهو يخضع للعلاج الطبيعي. يمكنه الآن المشي مرة أخرى وقيادة سيارته، لكنه يفتقد الشعور بالحرارة أو البرودة في جسده من تحت رقبته إلا في إصبع أو إصبعين. أخبرني مؤخرًا أنه لا يمكنه معرفة ما إذا كان يشعر بالسخونة إلا إذا بدأ يتصبب عرقًا، وكذلك الأمر، لا يمكنه معرفة ما إذا كان يشعر بالبرودة إلا إذا لاحظ ارتعاش جسده. أشارت إلى أنه في بعض الأحيان تكون راحة يده متعرقّة أو رطبة عندما يكون متوترًا، فكيف يمكنه معرفة ما إذا كانت توترًا أم سخونة؟ ردّ كليف بأن نفسيته تخبره عندما يكون متوترًا، لكن نفسيته لا تخبره عندما يكون جسده ساخنًا. ومع ذلك، اتفق معي في أنه قد تكون هناك أوقات يلاحظ فيها المرء أن راحتيه تتعرقان، ويخطر في باله: «لا بُدّ

وأنتي متوتر!». في مثل هذه الحالة، حيث تلفت الأعراض الانتباه إلى الحالة، قد لا يعرف ما تشير إليه تلك الأعراض.

سألت كليف ما إذا كان يشعر أنه لم يُعد يعيش في ذلك الجزء من جسده الواقع تحت رقبتَه. وافقني وأضاف بأنه غالبًا ما يشعر بشعور غريب جدًا، بأنه منفصل عن جسده.

حالة كليف على العكس مني. بصفتي شخصًا أعمى، أميل إلى الانطواء داخل جسدي، وأكون واعيًا به في المقام الأول ومعزولًا عن العالم. من ناحية أخرى، كليف مقطوع عن جسده، ولديه حواس كاملة، ويعرف تمامًا ما يريد لجسده أن يفعله في العالم، لكن جسده لن يفعل ذلك. يقوم جسدي بعمل جيد تمامًا فيما يخص ما أريده أن يفعل في العالم، لكنه يفقد العالم الذي يمكنه أن يفعل فيه ما أريد. في المراحل الأولى من علاجه الطبيعي، لم يكن قادرًا على المشي لكنه كان يعرف بالضبط أين يريد أن يمشي. يمكنني المشي بشكل مثالي، لكنني لا أعرف أين أمشي. ليس لدي عالم أمشي فيه. لم يكن لديه جسد يمشي معه.

١٦ فبراير

يعتبر العديد من المبصرين عن قلقهم بشأن طريقة تعاملني مع الثلج. صحيح أن الثلج يخلق مشكلة كبيرة للمكفوفين. هنالك مقولة مأثورة: الثلج ضباب الأعمى.

يواجه معظم الأشخاص المبصرين بعض الصعوبة في إدراك طبيعة مشكلتي. إنهم يميلون إلى افتراض أنني سوف: «أنزلقُ وأترحلُق». بعبارة أخرى، ينسبون إليّ ذات الصعوبة التي يواجهونها مع الثلج، على افتراض أنه إذا كانوا ينزلقون ويتزحلقون؛ فلا بدّ وأنني أنزلق وأترحلُق أكثر.

مشكلتي ليست عدم الثبات، ولكن التنقل. لا يعني ذلك أنني لا أعرف أين أضع قدمي، لكنني غير متأكد من وجهتي. ما أعانيه في الثلج هو فقدان المعرفة؛ حيث يتم طمس جميع النقاط والعلامات المألوفة عندي، والدرجات المختلفة والقوام المتنوع للعشب، والحصى، والأسفلت، والخرسانة. إذا كان الثلج عميقًا بما يكفي لتغطية الحواجز وحِفاف الرصيف، فأنا أواجه مشكلة حقيقية؛ لأنني لا أستطيع تحديد مرتبة سكتي عن الذي يليه، أو الطريق عن ممزّ المشاة. أشرح للناس أن لدي حذاءً جيدًا وصلبًا، ولم أنزلق من قبل وأنني ثابتٌ تمامًا على قدمي. وأوضح لهم أن المشكلة تكمن في أنني لا أستطيع تحديد طريقي.

يجدُ المبصرون صعوبةً في إدراك أن الجسد ذاته أصبح بالنسبة للشخص الأعمى عضوَ إحساس. بصرف النظر عن العصا البيضاء والأصوات في البيئة، فإن معرفة الجسم بمحيطه

لا تتجاوز أبعاده الخاصة. هذا واقع غريب عن الجسد، يصعب على المبصرين استيعابه.

٢٥ فبراير

اليوم لم أستطع أن أتذكر إلى أي جهة يشير الرقم العربي ثلاثة. كان عليّ أن أرسمه بإصبعي في الهواء - واحد، اثنان، ثلاثة - . الآن أتذكر. يشير إلى اليسار. إذا كان يشير إلى اليمين، فهو يشبه إلى حدّ ما الحرف E. كانت مارلين معي، وتفاجأت عندما اكتشفت أن مثل هذه الصورة المتأصلة بعمق يمكن أن تضيع ولو جزئيًا.

كان عليّ أيضًا أن أسألها ما إذا كانت الحاشية: «border» التي تكون على حافة مفرش المائدة تُكْتَب «border» أو «boarder».

أعتقد أنني كنت في حيرة من أمري أيضًا بشأن اللوحة: «board» التي توجد حولها حدود: «border». يوضح هذا إلى أي مدى تعتمد قدرة التهجئة على الصور المرئية.

٨ مارس

عندما كنت مُبْصِرًا، غالبًا ما كنت أتناول مشروبي وأكل الساندويتش على البار في مطعم الموظفين. حتى لو ذهبت

بمفردي، فنادراً ما أبقى وحدي لفترة طويلة. كنت سألتقي
بشخصٍ أعرفه، أو اعتقدت أنني أعرفه، أو تظاهرت بأنني أعرفه.
ستحصل هناك إيماءة ظرفية، وابتسامة عابرة، وسأجد نفسي
أتحدث مع شخصٍ ما.

كل هذا تغير. عليّ أن أنتظر حتى يقترب مني شخصٌ ما، أو
عليّ أن أتعرّف على صوت شخصٍ أعرفه. في البار المزدهم،
هذا ليس بالأمر السهل. علاوةً على ذلك، فإن الأشخاص الذين
يمكن تمييز أصواتهم بما يكفي لأتعرّف عليهم هم الأشخاص
الذين أعرفهم جيّداً بالفعل، وليسوا مجرد معارف عابرين كنت
التقيت بهم في الأيام السابقة. لم يعد بإمكانني تقديم نفسي
للغرباء، لقد سلب العمى مني كل الخطوات التمهيدية للتعارف،
إعرابات الشكر الصغيرة، أسئلة المجاملة والتحايا العرضية.

في هذه الأيام، غالباً ما أذهب إلى البار، وأقف هناك أشرب
كأسي، وأنساءل ما إذا كان سيتحدث إليّ أي شخصٍ. في كثير
من الأحيان، لا أحد يفعل. الغريب في الأمر أنني وبمجرد
مغادرتي، وبعد ثمان أو عشر خطواتٍ من البار إلى باب الغرفة،
يقترب مني فجأةً أكثر من شخص، ويمدّ يده إليّ، وبصوتٍ قلبي
يسألني ما إذا كنت بخير. غالباً ما أجد بين هذه الأصوات
أشخاصاً يعرفونني. ربما لم يلاحظوني عند البار. ربّما كانوا

منشغلين في محادثاتهم الخاصة. ربّما ظنّوا أنني أريد أن أشرب بمفردي. المفارقة في ذلك هي أنني الآن محاصر بعروض المساعدة التي لست بحاجة إليها، بينما للتو كنت سأقبل بكل سرور بأيّ عرضٍ لمحادثّة اجتماعيّة، إلا أنني تُركت لوحدتي.

تمثّل إحدى مشكلات الجلوس على بار مطعم الموظفين في عدم معرفة الأشخاص الجالسين لأسماء بعضهم البعض في أغلب الأحيان. يمكن للمرء غالبًا الذهاب إلى هناك، والالتقاء بمجموعة من الأشخاص الذين يعرفهم أو رآهم من قبل في الحرم الجامعي، ولكن لا يعرف اسم أيّ واحدٍ منهم. بالنسبة لي، معرفة الأسماء هي وسيلة التنقل الاجتماعي. أنتقل على أنواع الناس وأسمائهم.

أضيف إلى ذلك، من عشرٍ محادثّاتٍ أجريتها على البار عندما كنت مُبصرًا، كنت المبادر في سبعٍ أو ثماني محادثّات. وبالتالي، فإن التغيير الذي فُرض على شخصيّتي كان أكثر حدة مما لو كنت شخصًا خجولًا ومحبًا للانعزال. ما الذي يجب فعله حيال ذلك؟ يجب أن أتوصّل إلى نتيجةٍ محزنة مفادها أنه لا جدوى من الذهاب إلى البار لتناول مشروبٍ عابر، عليّ أن أذهب دائمًا برفقة أحد. عليّ أن أتأكد بالتواصل مع أصدقائي مسبقًا من أنني سألتقي شخصًا يتوقّعني. أعرف ما سيحدث بعد

ذلك؛ سأقفل بهم، لكن أحدا لن يذهب. لم لا؟ لأن العادة أن لا تتصل بهذه الطريقة، ولكن عليك أن تذهب إلى البار وتناول مشروبك على اعتبار أنك لا تتوقع أحدا. الأمر الآخر هو أن الناس تعتقد أنني بحاجة إلى مساعدة في الوصول إلى البار، بل أنني أحصل على عروض للحضور إلى غرفتي ومرافقتي. من الصعب جدًا إخبار الناس أن التنقل الجسدي ليست مشكلة، لكن التنقل والتواصل الاجتماعي هو المشكلة.

١٠ مارس

اتخذت جهودي لفهم تأثير العمى على حياتي منعطفًا جديدًا، حظيت بالأمس بيوم سعيد للغاية مع العائلة، كانت إيموجين هنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، بعد الإفطار لعب جميع الأطفال معي لعبة لودو^(١). وصل بعض الزوار في الصباح، ومكثوا معنا لتناول طعام الغداء. بعد الظهر أخذنا أنا ومارلين الأطفال في السيارة إلى ساحة اللعب. دفعتهم في المراجيح ودوّرت لهم العجلة الكبيرة. عند عودتي إلى المنزل في الساعة الرابعة، أدركت أنني متوتر نوعًا ما. بعد ساعة وبحلول وقت

(١) لودو Ludo وهي لعبة لوحية إستراتيجية لشخصين أو أربعة أشخاص، يلعب كل لاعب بأربعة قطع يحركها باستخدام النرد.

الاستحمام، زاد توترتي، وأثناء تناول وجبة المساء، عند السادسة والنصف تقريبًا، شعرت أنني لا أقوى على السيطرة على توترتي. اقترحت مارلين، التي لاحظت انسحابي، أن أحاول تسليّة نفسي ببعض الأعمال في الطابق العلوي. لم أشعر بالنعاس، لكن بحلول الساعة والنصف كنت قد نمت، بقيت نائمًا لثلاث ساعات. كان المنزل صامتًا والأطفال في الفراش، شعرت بتحسّن كبير. ما الخطأ الذي حدث في ذلك اليوم؟ لماذا أصبحت متوترًا بعد هذا الوقت السعيد؟

لا يرتبط التوتر بالضرورة بالاكئاب، على الرغم من أنه يمكن أن يحدث بسبب الاكتئاب. إنه يؤدي إلى غياب الشعور وعجز الحركة، ويستحيل إلى حالة من الجمود. يستغرق الأمر أيضًا وقتًا أطول للخروج من الحالة عندما تكون مرتبطة بالاكئاب.

يبدو أن ما حدث بالأمس كان مستقلا عن السعادة والاكئاب. كان حالة معرفية أكثر من أي شيء آخر.

دور النوم وأهميته مختلفة أيضًا. عندما يرتبط التوتر بالاكئاب، تغلبني الرغبة، وربما الحاجة، إلى النوم. في هذه المناسبة لم أشعر بالنعاس أثناء النهار، وعندما ذهبت إلى مكتبي حوالي الساعة السابعة مساءً، كان ذلك بنية العمل وليس

النوم. وجدت أنني لا أستطيع العمل؛ لأنني كنت بحاجة إلى عنصر من المعلومات كان متاحًا فقط في مكتبي. لم أتمكن من الاستمرار في استخدام الميكرو كاسيت، وفي النهاية، استلقيت وأخذني النوم؛ لأن الأشياء التي يمكنني القيام بها قد نفذت. النوم بديل مقبول جدًا للعمل، لكنه لم يغلبني هذه المرة ولم أستسلم له.

على الرغم من أن أفضل سياسة لدي هي أخذ زمام المبادرة لدرء مشاعر السلبية والتفاهة التي تسبب الاكتئاب، إلا أنه لا يزال هناك نوع غريب من الإرهاق المعرفي أو النفسي الذي يغلب عليّ رغم السعادة. ماذا يمكن أن يكون؟

قد تكون الضوضاء عاملاً. من الطبيعي أنني أصبحت حساسًا للضوضاء. من المؤكد أنه كان يومًا صاخبًا. كان هناك صبيان يرقصان الديسكو في الطابق العلوي، وصبيان آخران يستمتعان بلعبة: «هي مان»^(١) المثيرة في مكتبتني. كان الراديو في الطابق السفلي، ومجموعة من الأطفال الصغار يلعبون على امتداد المكان. كانت الألعاب متناثرة في أرجاء المنزل، على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها الكبار في ترتيب المكان. لم أستطع اتخاذ أي خطوة مالم أقم بمنشع الأرض التي أمامي

(١) هي مان he-man بطلٌ خارقٌ خيالي وشخصية كرتونية.

وكانني أقوم بأحد الطقوس الدينية. كل ذلك يجعلني وكأنني محاصرٌ ومصابٌ ويُشعِرني بالبعد والإقصاء؛ فلا أقوى على الردّ بالرغم من أن ما حولي يناديني.

في العمل، يمكنني التحكّم في مثل هكذا قصف وإصابة، على الأقل إلى حدّ ما، من خلال خلق يومٍ يمكن التنبؤ به. أنا من يتحكّم في الصنبور، إذا جاز التعبير، ويمكنني زيادة تدفّقه أو تقليله، كما أريد. يمكنني إنهاء المقابلة. حتى لو كنت عالمًا في ندوة أو لجنة، فأنا على علمٍ من أنها ستتهي في غضون ساعة أو نحو ذلك. في المنزل الأمر مختلف.

أي شخصٍ بالغ عادي سيشعر مثلي إلى حدّ ما، خاصّة إذا كان في ظروفٍ مماثلة. لا يمكن السيطرة على الأطفال. لكنني أستطيع أن أقول، إن تجربتي ليست على هذا النحو قبل أن أفقد بصري. الأمر مختلفٌ تمامًا الآن. الإحساس بالارتداد والخدر يكبر، وهناك شعورٌ غريبٌ بأن المرء أصبح غير حقيقي أكثر فأكثر.

هل أصبحت حيوانًا ليليًا؟ عندما يُجبر مثل هذا الكائن على البقاء مستيقظًا والاختلاط طوال اليوم، تحت الضوء الساطع، مع حيوانات النهار، تصبح حواسّه مُطاردة، ويشتاق إلى ملاذٍ

صامتٍ وساكنٍ حيث يمكنه التعافي. في حالتي، تنكسر هذه الاستعارة؛ لأنه لا يوجد وقتٌ معينٌ لليل، كما لا يوجد وقتٌ للنهار.

هل هناك ما هو أكثر من الاستعارة؟ هل صرت كائنًا ليليًا؟ ألسنت أكثر قُربًا من الأحلام؟ ألا يجعلني العمى قرين الظلمة؟ إذا كانت الشمس هي رمز الوعي، فإن القمر المصدر السحري لحياتنا الأعمق. لستُ مقصيًا فقط عن الشمس الحقيقية، ولكنني أصبحتُ أقل تسامحًا مع الوعي ما لم يتم غمره في كثير من الأحيان مع نقيضه من القوى الغامضة.

مازلت أبحث

ربيع ١٩٨٥

١١ مارس

أدهشتني الرواقية في العديد من السير الذاتية للمكفوفين التي قرأتها. ومن الأمثلة البارزة على ذلك السيرة الذاتية للبطل (مصاب الحرب) الكولونيل السير مايكل أنسيل^(١)، صاحب كتاب: «تابع بإصرار»^(٢) الصادر عن دار بيتر ديفيز، لندن، ١٩٧٣. فقد السير مايكل أنسيل بصره بسبب سوء فهم مؤسف حدث أثناء الانسحاب المرتبك لقوة المشاة البريطانية وقبل الهجوم الألماني عام ١٩٤٠. كان هو ورفاقه يحتمون في حظيرة عندما هاجمهم مجموعة من الجنود البريطانيين الذين

(١) العقيد السير مايكل أنسيل Michael Ansell (١٩٠٥-١٩٩٤)

ضابط انجليزي ولاعب بولو وخيال.

(2) Soldier On (London, Peter Davies, 1973)

اعتقدوا أنهم ألمان. يتحدث باقي الكتاب عن إنجازات هذا الرجل الرائع في الفروسية، خاصة في مسابقات قفز الحواجز البريطانية، وكذلك عمله في تأسيس عرض حصان العام، وكمدرّب لفريق الفروسية البريطاني للألعاب الأولمبية. فقد أنسيل زوجته الأولى بسبب السرطان، وفقد زوجته الثانية في حادث سير مأساوي، ورغم كل هذه المآسي استمر سرد القصة في الكتاب بطريقة واقعية تمامًا. لا يوجد أثر للشفقة على الذات أو حتى لتحليل الذات في الكتاب كله.

لا يمكنني كتابة كتاب رواقى أو كتاب واقعى؛ علي أن أكتب بطريقتي الخاصة، في محاولة لفهم ما يحدث لي. يجب أن يشمل هذا بعض الجهد لفهم العمى ذاته، وكذلك العمى الذي أعانيه. في السعي إلى الفهم، سعيّ إلى المعنى. هذا التصريح جزء من إيماني. أنا ملتزم بالفعل بمفهوم أن الحياة الموحدة أعلى قيمة من الحياة المجزأة، والمعنى الكامل أفضل من المعنى الجزئي. بطبيعة الحال، فإن السعي وراء المدلول النهائي والتكامل الكلي لن ينتهي أبدًا. لن يكون هناك منتج نهائيّ أبدًا. ومع ذلك، فإن البحث والسعي لا يزال يستحق العناء. سأكون أكثر عقلانية إذا تمكنت من قبول وتضمين وملائمة المزيد والمزيد من تجربتي.

عندما أتحدّث عن السعي للفهم، أفكر في الإيمان بحثًا عن الفهم. لهذا السبب، بالنسبة لي، لا يمكن أن يكون هناك استسلامٌ رواقِي أمام مصيرٍ غيبي، مهما بدا الأمر شجاعًا، دون أعضَ على أسناني لا يمكنني القبول بمصيرٍ لا معنى له.

هذا هو المعنى الذي، في رأيي، لن يكون تصرفًا مسيحيًا لو قبلت العمى على أساسه، أو حاولت الاستمرار كما لو أن شيئًا لم يحدث، أو تحدّيته بدافع الشجاعة؛ على الرغم من أنني لا أستطيع إلا أن أعبّر عن خالص احترامي لهؤلاء النبلاء المكفوفين الذين استجابوا بهذه الطرق. رغبت في التماسك، هي رغبة اتخذت الشكل المسيحي، وهي تدفعني إلى سبر أغوار التجربة، والتمسك بها، وتجريدها طبقةً تلو أخرى، للقبض على المعنى في داخلها وربطه بكل ما يتعلّق في الحياة اليومية.

لا يقترح هذا النهج أنني سأبحث عن أي معنى محدّد وخاص بالعمى ذاته كما لو أنّ: «لا بد وأن العمى حصل لسببٍ ما»، أو كما لو كنت مهتمًا بالإجابة على السؤال: «لماذا حدث هذا لي؟»، بما أن المعنى الذي أسعى إليه سيكون متماسكًا، فسوف يكون جزءًا من المعنى الكلّي. العمى جزءٌ من حياتي، ويجب أن أحاول فهم خصائصه الخاصة، وأن أكون مخلصًا في

ذلك. ومع ذلك، يجب أن لا أنسى أبدًا أن العمى ليس سوى جزء من التجربة الكلية. يجب أن تكون لديّ الشجاعة الكافية لأكون مخلصًا للمعنى الكلي، معتبرًا ما حدث لي جانبًا من بين جوانب أخرى عديدة في حياتي. إذا أخذنا الفكر إلى أبعد من ذلك، فإن حياتي ليست سوى جزء من كيان أكبر، وإذا كنت متماسكًا ومنسجمًا مع هذا الكل الأكبر، فسأكون منسجمًا ومستشعرًا بالكلية بشكل أكبر. هذا جزء مما أفهمه كشراكة مع الله.

في محاولة لمواصلة حياة المرء حول المعنى، فإن أحد المخاطر التي يواجهها المرء هو اختزال المعنى. يميل المرء إلى إنشاء آلة لصنع المعنى، مثل آلة صنع النفاق، بغض النظر عن نوع التجارب التي تسكبها في ناحية، تظهر النفاق أو المعاني في النهاية الأخرى. تُستبعد المفارقات، ويُحتفظ بالمتجانس والمنسجم فقط. النتيجة في النهاية هوية قوية لكنها ضيقة ومُختزلة.

ما أسعى إليه هو هوية قوية تقوم على الشمولية وليس على الإقصاء. يجب أن تصبح المسيحية عقيدةً مسكونيةً^(١)، ليست طائفية ولا قبلية.

(١) المسكونية Ecumenism وتعني الدعوة إلى توحيد الكنائس، بحيث يكون هناك كنيسة مسيحية واحدة تجمع كل الطوائف.

هذا يعني أنه لا يمكنني ببساطة قبول العمى، ويجب أن لا أرفضه أيضًا. عليّ أن أتسجم معه، عليّ أن أربط العمى بالبصر، والوعي باللاوعي، والله بالشيطان، والحياة البشرية بالكون، وقوى الخلق بقوى الدمار. الرواقي يتسامح بشجاعة مع هذه التناقضات، لكن المسيحي يتفهم ويسعى إلى تجاوز هذه الاختلافات وتوحيدها.

٢٥ مارس

لا يزال لدي شعور بأنني أرى. بالعين اليمنى، حديثة العمى، أعتقد أنه لا يزال لدي بعض الإحساس في بقعة الشبكية، وأعرف كيف أدير عيني من جانب إلى آخر. غالبًا ما أفعل هذا تلقائيًا نحو المكان الذي يصدر منه الصوت. لذا، إلى حد ما، ما زلت أعرف كيف أنظر. في الواقع، لا يزال لدي شعور بأنني أحملق، وأحرق بإمعانٍ من خلال السواد، في حالة ظهر أو بدا شيء ما.

لست متأكدًا ما إذا كنت أشعرُ بذلك مع العين اليسرى، التي أصبحت عمياء تمامًا منذ ثلاثين عامًا تقريبًا. أحيانًا أحاول تجربة إغلاق إحدى العينين، ومحاولة تخيل ما قد أفعله بالأخرى. عندما تكون كلتا العينين فاقدتين للبصر تمامًا، من

الصعب للغاية معرفة ما إذا كنت توجه انتباهك لهذه العين عوضاً عن تلك. لقد ساعدتني قليلاً حقيقة أنني لا أزال أشعر ببعض الإحساس الداخلي بالضوء في العين اليمنى، بالرغم من أنني لا أستطيع معرفة ما إذا كان هذا الشعور في عقلي أم في شبكية العين، وليس لدي الكثير من المعرفة لترجيح أيهما أكثر منطقية. من وقتٍ لآخر، في العين اليمنى، أو مع ما يبدو أنني أدركه وما أعتقد أنها العين اليمنى، تظهر منطقة دائرية من الضوء الوردي أو الضوء البرتقالي الفاتح على شكل مروحة. تندرج ببطءٍ على امتداد مجال الرؤية، ثم تصبح المنطقة المركزية مظلمة مرةً أخرى، ثم يتلاشى الضوء على حافة مجال الرؤية ويختفي. من المثير للاهتمام مشاهدة هذا. ربما بعينٍ عمياء منذ زمنٍ لا بد وأن الرؤية انقطعت، لكن بعينٍ عمياء حديثاً لا يزال هناك محاولات للرؤية.

ربما تكون العين مطفأة، ولكن الدماغ لا يزال يتلقى بعض الإشارات العصبية.

١ مايو

ما الذي يتوافق بصرياً مع الفرق بين الصوت والصمت؟ لا يمكن أن يكون الفرق بين الرؤية وإغلاق العينين؛ لأنه يمكنك

دائمًا فتح عينيك والنظر مرةً أخرى. لا يزال في قدرتك التقاط عنصر الإحساس مرةً أخرى، ولكن عندما يكون هناك صمت، لا تملك الأذن القدرة على التقاط الصوت مرةً أخرى. حتى عندما تكون عيناك مغمضتين، فأنت تعلم أن ما رأيته لا يزال موجودًا.

هل يرتبط الصوت بالصمت كما يرتبط النهار بالليل؟ بالتأكيد لا؛ لأن الليل والنهار يمكن التنبؤ بهما، وحتى في الليل يمكن للمرء الرؤية وإن كانت محدودة. هل العلاقة بين الصوت والصمت من قبيل العلاقة بين الرؤية والعمى؟ هل العمى للنظر مثل الصمت للصوت؟ من الواضح أن هذا غير صحيح. العمى للنظر مثل الصمم للصوت. العمى حالةٌ داخلية. يعلم الأعمى أن العالم الخارجي لا يزال موجودًا ويمكن رؤيته. يفقد المرء ببساطة القدرة على رؤيته. أما في حالة الصمت، فإن العالم الخارجي، عالم الصوت، لم يعد موجودًا. في حالة الصمت لا يزال المرء قادرًا على الاستماع، ولكن في حالة العمى يصعب القول إنه لا يزال قادرًا على النظر. نادرًا ما تنظر ولا ترى شيئًا، بينما كثيرًا ما تستمع ولا تسمع شيئًا، أو لا تسمع سوى القليل جدًا. كلما نظرت، فإن النطاق الكامل لشبكّة عينك دائمًا ما يكون مشغولًا بكل ما يمكن النظر إليه، ولكن عندما تستمع فإن

النطاق الكامل لسمعك لا يكون مشغولاً بكل ما يمكنك الاستماع إليه. في الظلام الدامس، يصبح البصر عديم الفائدة. لكن في الصمت التام، لن نقول إن قدرة السمع أصبحت عديمة الفائدة، وإنما ليس هناك شيء يمكن الاستماع إليه في الوقت الحالي.

يبدو إذن أنه لا يوجد مواز بصري دقيق للفرق بين الصوت والصمت. الأصوات تأتي وتذهب بطريقة لا تحصل مع المشاهد المرئية. للأصوات ميزة اعتباطية. لا يمتلك المرء الصوت أبداً، لا يمتلكه بالطريقة التي يمتلك بها رؤية الأشياء. للعين الشريرة سُلطة على العالم، لكن لم يسمع أحدٌ من قبل عن أذن شريرة. تمثل القدرة على إغلاق العيون القوة التي يتمتع بها المرء على الأشياء التي يراها، والقدرة على الاستبعاد. بينما السمع دائماً ما يكون مُتقبلاً، سواء للصوت أو الصمت. يمكنك أن تُشيع بنظرك، لكن لا يمكنك أن تشيع بسمعك. يمكنك التظاهر بأنك لا تسمع، تماماً كما تتظاهر أنك لا ترى، لكن لا يُمكنك أن تشيع بأذنك عن الاستماع.

يمكن للصوت والصمت أن يحصلوا دون استعداد، ويحصل الإحساس بهما داخلياً. بينما الأشياء المرئية يتم استشعارها بشكل موضوعي ومادي.

وبالتالي فإن التفريق بين الصوت/ الصمت يعكس أحد الأشكال القويّة لكلّ ما هو متعالٍ ويفوق قدرتنا. إنه يشير إلى الشيء الذي يأتي أو لا يأتي، يبدأ بشكلٍ غامض، وينتهي بشكلٍ غامض، والذي نحن دائماً منفتحون عليه، ولكن يجب أن نتأمّله. لا بُدّ وأن هذا هو السبب في اعتبار محاولة استراق النظر إلى الله إثماً بعكس محاولة الاستماع إليه. الصوت دائماً متعالي.

٣ مايو

ربما تكون تجربة الدخول فجأة إلى منطقةٍ يغطّيها الضباب عند القيادة على طول الطريق السريع موازيةً لتجربة الصوت والصمت. فيما يتعدّى قدرتك على التأثير فيه أو التنبؤ به؛ يختفي العالم المُدرك فجأة، ليظهر مرة أخرى على الجانب الآخر. الفرق هو أن الضباب يعيق الرؤية بينما الصمت ليس عائقاً أمام السمع. الصمت غياب. وبالتالي فإن الصوت يحتوي على غيابٍ مُدمج، في حين أن البصر لا يحتوي شيئاً مشابهاً. الصوت يقودنا دائماً إلى حضرة العدم.

٧ مايو

بالأمس خرجت مع ابنتي الكبرى لتناول طعام الغداء. أثناء الوجبة، بدأت أشعر بأنني بعيدٌ ومهمشٌ بشكلٍ غريب. لم يوجّه

النادل لي أي ملاحظة. كل الحديث كان موجَّهًا لإيموجين، وجدت أنه من الأسهل أن أمُر طلباتي من خلالها إلى النادل. لم يكن عليّ السماح لذلك أن يحدث؛ لأنه جعلني أشعر بأنني أكثر بُعدًا. كما أن حقيقة جلوسي مقابلًا لإيموجين وليس إلى جانبها أشعرتني بأنها لم تكن موجودة بالفعل، وقادتني بشكل أعمق إلى شعورٍ بالعزلة وغيبة الذهن. شعرت أن نوبة أو نوبتين من الذعر بدأت تسيطر على عقلي، وعندما وصلنا إلى المنزل، شعرت بالإرهاق التام.

لم أشعر بالنعاس، ولكن كان لدي رغبة في الاستلقاء تحت البطانية. أردت أن أشعر بالدفء والسيان. شعرت براحةٍ شديدة. تساءلت كيف سيكون شعوري عند الاستلقاء تحت غطاء من الثلج. قرأت أن الأشخاص الذين وقعوا ضحيةً للعواصف الثلجية يجدون أنهم إذا استسلموا لإغراء الاستلقاء والراحة، فإنهم غالبًا ما يشعرون بالراحة تمامًا، لكنهم لا يستطيعون أبدًا. وجدت نفسي أتساءل كيف سيكون الحال إذا حدث هذا لي الآن.

عندما استيقظت بعد بضع ساعاتٍ من النوم، فكرت في أن ما كنت أعاني منه لم يكن كأبةٍ حقيقيةٍ؛ لأنني شعرتُ بالسعادة، على الأقل جسديًا. شعرت بالاسترخاء. هل كان ذلك نوعًا من

الرغبة في الموت؟ هل يموت الناس في نومهم في مثل هذه الظروف؟ هل يمكن للحالة النفسية أن تتنازل ببساطة عن الحياة؟ هل يمكن للروح ببساطة أن تُغادر؟ هل يتحرر المرء لمجرد الرغبة؟

تجارب مثل هذه علّمتني أن أعمق المشاعر تتجاوز كونها مشاعر. تترك المشاعر وراءها خدراً دون أن تُدرك طبيعتها. أدرك الآن، بالنظر إلى الوراء، أنني كنت في قبضة حزن عميق بسبب فقداني وافتقاري لعلاقتي الثرية مع طفلة محبوبة للغاية، لكن في ذلك الوقت كان كل ما كنت أسعى وراءه هو الرغبة في الهروب.

٢٠ مايو

ذهبت إلى مطعم الموظفين لتناول طعام الغداء مع صديق. عندما مررنا عبر الأبواب إلى الردهة، كنت وسط مجموعة من الأشخاص الذين استقبلوني بصرخات: «الآن هذه مفاجأة لك. هل يمكنك معرفة من معنا اليوم؟». صوت آخر اخترق الضوضاء قائلاً: «هل تعرف صوتي يا جون؟». لم أستطع معرفة عدد الأشخاص الموجودين، ربما كانوا أربعة أو خمسة، أو قد يصلون إلى سبعة أو ثمانية أشخاص. من بين الأصوات

المختلفة، تعرّفت على شخصٍ أعرفه وقمتُ بتحيّته باسمه. شخصٌ آخر سألني إذا كنت أعرفه، فالتفتُ نحوه، قلت ضاحكًا: «لا، اعتذر أيّها الرجل العجوز. أعتقد أنه ليس لدي أي فكرة عن هويتك. على حدّ علمي، لم ألتق بك من قبل في حياتي. اسمح لي، سأذهب إلى البار مع صديقي لتناول مشروب». شققتُ طريقي من بينهم. قوبل هذا الردّ بضحكاتٍ اعتقدت أنها كانت نوعًا من المواساة لي.

استمرّ الصوت يناديني وبشكلٍ أكثر إلحاحًا: «لا، لا. هيا جون. أنت تعرفني. لا بد وأنك تعرف صوتي. لقد ذهبنا عدّة مؤتمراتٍ متساوية». مرةً أخرى، بابتسامةٍ، أجبت: «أنا آسف حقًا. لا بد وأن تكون لطمة مروّعة للأناس في داخلك، لكنني اعتذر وأخبرك أنه إذا حصل وأنا التقينا من قبل، فإن تأثيرك عليّ كان ضئيلًا. أنا متأكّد أنه من المحزن للغاية عدم قدرتي على التعرّف عليك، ولكن هذا ما حصل. لم تترك أي أثرٍ في ذاكرتي. الآن، أيّا كانت هويتك، وداعًا». استأنفت طريقي نحو البار. مرةً أخرى سمعت قهقهات وصيحات سخرية في المجموعة. في هذه اللحظة، أمسك بي الشخصُ المعني أو شخصٌ آخر من كتفي قائلاً: «إنه فلان فلان». غيّرت سلوكي، وصافحته بحرارة واسترجعت معه الأيام القديمة، وختمت حديثي معربًا عن سعادتي بلقياه مرةً أخرى.

في مكانٍ هادئٍ بعد ذلك، قلت لرفيقي: «هل تعتقد أنهم قصدوا لعب كل تلك الألعاب السخيفة معي، أم أنها كانت تلقائية فقط؟». «أوه لا» أجاب صديقي: «لقد تم التخطيط لكل ذلك. دخلت من الباب قبلك، وسمعت أحدهم يقول للآخر، دعونا نرى ما إذا كان يمكنه التعرف على صوتك».

تحدث هذه التجربة من وقتٍ لآخر. لست متأكدًا أبدًا ما الذي يجب أن أفعله. يقوم الأشخاص بذلك أحيانًا عبر الهاتف مع بعضهم البعض، لكن ذلك مختلف. كل طرفٍ معه سماعة الهاتف متساوٍ فيما يتعلق بالبصر. لدي طرق مختلفة للتعامل مع هذه المزحة، وأعتقد أن طريقة الازدراء المريحة ناجحة للغاية. لا أريد أن أخرج مشاعر أحدٍ أو أن أقول بطريقة فجأة لا، لا ألعب ألعابًا سخيفة. إذا كنت تريد التحدث معي، عليك أن تخبرني من أنت؛ ذلك يبدو قاسيًا جدًا. ماذا علي أن أفعل؟ هل أقف هناك، وأشعر بمزيد من الحماسة، أقترح اسمًا بعد اسم، وينفذ صبر من يتحدث إلي وهو يقول: «لا. لا. لا. حاول مرة أخرى».

شعرت اليوم في بهو مطعم الموظفين وكأنني في وسط لعبة: «دفعه الرجل الأعمى».

عندما أخذت ليزي إلى غرفة نومها الليلة الماضية كانت في مزاج ضاحكٍ إلى حدٍّ ما. عندما وضعتها في سرير الأطفال قالت بصوت مغاير:

«لا يمكنك أن ترى! لا يمكنك أن ترى!».

«لماذا لا أستطيع أن أرى؟».

«لأنك رجلٌ أعمى».

سألته: «ما هو الرجل الأعمى؟».

أجابت ضاحكةً: «إنه شخصٌ طويلٌ وقويٌّ وينحول إلى رجل الموز^(١)». تفوّمت بهذا التعبير الأخير بصيحةٍ مبتهجة.

هل كانت تستخفّ وتلعب؟ هل تعرف ما هو العمى أم لا؟ هل تربط العمى بسماتي كأب؟ عادةً ما أظاهر بأنني رجل الموز عندما أحملها على كتفي أسفل الدرج. أم أنها فقط تخبرني بأنني عجوزٌ مغفلٌ وأن كلينا يعرف جيّدًا ما هو الرجل الأعمى؟

(1) Banana Man

استيقاظ الأعمى

صيف ١٩٨٥

١٧ يونيو

قبل عدّة ليالٍ حضرت الاجتماع السنوي لجمعية المكفوفين. كانت هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها في لقاء يحضّره مكفوفون آخرون. في الواقع، بخلاف المحادثات بين الحين والآخر مع جون لوريمر^(١)، خبير كتابة البرايل الأعمى المتميز والذي يعمل في هيئة التدريس في كليتنا، لم يكن لدي أي اتصال تقريبًا مع مكفوفين آخرين، على الرغم من مرور حوالي خمس سنواتٍ منذ أن فقدت بصري.

كان من المثير للفضول والغريب أن أجد نفسي مع مجموعة من المجتمع حيث العادات الصغيرة التي تُميّز استجابات المكفوفين مقبولةً تمامًا. بدأ الاجتماع بإعلان الحاضرين

(1) John Lorimer

وتقديمهم لأنفسهم. يحدث هذا أحياناً في مجموعات المبصرين عندما يكون هناك نقاشٌ على وشك أن يُستهلّ، لكنني لم أسمع عن مثل هذه البداية في اجتماع عمل. بعد اجتماعنا، وعلى هامش لقاءاتنا الاجتماعية، كان هناك لغط هائل. كان الناس ببساطة يصرخون بأسماء أولئك الذين يريدون التحدث معهم، وردّاً على ذلك، تقوم ببساطة بشقّ طريقك عبر الحشد باتجاه من كان يناديك.

أخبرني شيخان أو ثلاثة من المجموعة أن مُدَّة التكيّف مع فقدان البصر قد تطول؛ متناسبةً بشكلٍ طردي مع العُمْر. بالنسبة لشخصٍ في عمري، يجب أن أعتبر أن خمسَ سنواتٍ فترةً قصيرة جداً. لقد أكّدوا لي أن الأمر قد يستغرق مني عشرة أو خمسة عشر عامًا لأشعر بالتكيّف الكامل.

٢١ يونيو

صادف وأن سألتني مارلين ما إذا كنت قد رأيت زميلاً معيناً خلال النهار. علمت لحظتها أنني تحدثت معه، ولكن شعرت أنني لا أعرف بالضبط ما إذا كنت التقيته بالفعل ذلك الوقت أم لا. هل كان حديثي معه وجهاً لوجه أم على الهاتف؟

إذا كنت استخدمت هاتف المكتب وليس سماعة الرأس

لإجراء مكالمة هاتفية، فإن صوت المتصل يُمَرّ بوضوح في الغرفة، بينما أكون جالسًا على مقعدي، هذا يشبه بالضبط وجود الشخص معي. أنا وزميلي لدينا هاتف مرتبط بين غرفتي، وغالبًا ما نتحدث لبضع دقائق حول مشكلة ما كل يوم. عندما كنت شخصًا مبصرًا لا أتذكر أنه كان لدي مثل هذا التردد الغريب حول ما إذا كنت التقيت أحدهم بالفعل أم لا. لا بُدَّ وأن ذلك يعود لكون ذكريات الشخص المبصر حول ما قيل ترتبط دائمًا بما كان يُشاهده في ذلك الوقت؛ لذلك ترتبط الكلمات إِمَّا بتعابير المتحدث وهيئته أو بالتحديق في حركة المرور عبر النافذة وأنت تُجري المكالمة الهاتفية. إذا تم تجريد معالم الخلفية هذه، فسيكون الفرق بين الحالة وجهًا لوجه والمحادثة الهاتفية أقل. بالطبع، حتى بالنسبة للمكفوفين، لا تزال هناك اختلافات كبيرة، لكن حقيقة أنني شعرت بحالة عدم اليقين هذه تُظهر أن الاختلاف أصبح هُنا إلى حدٍّ ما. إذا كان المُبصر شارد الذهن قليلًا، في نهاية يومٍ حافل، قد يتساءل للحظة عن السياق الذي التقى فيه بشخصٍ ما لفترة وجيزة، لكن من السهل أن تجد الأعمى وفي كثيرٍ من الأحيان في حالة عدم اليقين هذه. الشخص المبصر الأكثر شروءًا لن يخلط بين التحدث على الهاتف والتواجد في حضرة أحدهم. قد يتساءل فقط ما إذا حدث ذلك أمس أو اليوم.

هذه اللحظة الصغيرة من عدم اليقين تخبرنا الكثير عن العمى.

بعد توقفي للملاحظات عند سؤال مارلين، أوضحت لها أنني كنت أحاول تذكر ما إذا كنا معاً أم لا، تنهّدت وقالت: «يا عزيزي! كم هو غريب! حتى بعد كل هذه السنوات ما زلت أجد صعوبة في إدراك كيف تبدو تجربتك في العالم».

٢٣ يونيو

يمكنك أن ترى الكثير من الأشياء في وقتٍ واحد، في الواقع، فإن الحقل البصري يتكون من المئات، وربما الآلاف، من المقاطع الصغيرة التي يتم تجميعها في مشهدٍ عمومي واحد. اهتمامك قد ينصبّ على جزءٍ محدّدٍ ومعيّن لا تتنافس عليه بقية الأجزاء الموجودة جنباً إلى جنب حوله في المشهد. بينما في الصوت، يمكن لجزءٍ واحدٍ في المجال الصوتي طمس بقية الأجزاء. أقرب نظير بصري موازٍ هو تجربة التعرّض المفاجئ لضوءٍ خاطف. يطمس الضوء الساطع بقية الأشياء حوله ويبتلعها. يحدث ذلك بسهولة أكبر مع الصوت. إنها سمةٌ من سمات الأصوات العادية، وليس فقط الاستثنائية، على الرغم من أن الأصوات الاستثنائية تقضي بالتأكيد على كل الأصوات الأخرى.

عندما يقوم شخص ما بتشغيل صندوق الموسيقى في المقهى، فإن الصوت الصادر منه يطمس أصوات أصدقائي حريفًا. يبدو الأمر كما لو أنني وحدي؛ يختفي أصدقائي فجأة أو بالأحرى تختفي أصواتهم، ويبقى صندوق الموسيقى فقط. يلغي ضجيج الموسيقى كل ما تبقى من الواقع. يبدو الأمر كما لو كنت ترسم، وواصلت التلوين والدّهْن بإضافة المزيد والمزيد من الألوان المائية حتى اختفت كل الفروق والعلامح، وتبقى لطخة رمادية متساوية.

يجب أن يكون هذا هو السبب في أنني أشعر بالوحدة في الحفلات الصاخبة، وخاصة المرافق. لا بُدَّ وأن ينقر أحدهم على كتفي لجذب انتباهي؛ يشبه الأمر أن تضع سماعات على الرأس ولا تستطيع نزعها.

٣ يوليو

سألني مارلين عمّا فعلته خلال النهار، للحظة لم أتذكر أين كنت في الصباح. كنت أتحدّث مع اثنين من زملائي، ولكن أين يا ترى؟ مرّت في ذهني صورة كلية نيومان حيث قضيت الصباح هناك.

لم تكن هذه تجربة شخص مبصر، وإنما أقرب لتجربة

شخصي شارد الذهن ينسى للحظات ما قام به خلال النهار. علمت أنني كنت في مكان ما، وقمت بأشياء معينة مع أشخاص معينين، ولكن أين؟ لم أتمكن من ترتيب المحادثات التي أجريتها في سياقها المناسب. اختفت السمات والخلفية التي يمكن على أساسها تحديد المكان. عادةً ما يتم تخزين ذكريات الأشخاص الذين تحدثت إليهم خلال اليوم في إطارات تتضمن الخلفية. تتذكر التحدث إلى شخص كان جالسًا على كرسي بذراعين أمام خزانة الكتب، أو متكئًا على حافة نافذة يمكن من خلالها رؤية الحديقة وما إلى ذلك. علمت أنني تحدثت مع أشخاص في سياق غير عادي؛ لأنني لم أتمكن من ربط محادثاتي بالأحاسيس المعتادة والتي يمكن أن أشعر بها وأنا جالس على كرسي مكتبي أو ملامس لطاولة المكتب بمرفقي.

كان ذلك شعورًا غريبًا بالفراغ، ومربكًا للغاية. إنه يذكرني بحادثة حصلت ذلك اليوم؛ عندما لم أستطع، وللحظة، أن أتذكر ما إذا كنت في حضرة مايكل عندما أجريت محادثة معه. ما يقوله شخص ما يرتبط عادةً بمظهر وجهه، وبشكله وما يرتديه. الجسم بدوره يرتبط بخلفية بصرية محددة.

لذلك كنت في كلية نيومان. لكن ماذا يعني ذلك بالنسبة لي؟ ماذا يعني الوجود المادي للمبنى الخرساني للكلية؟ لقد

قمت بالتدريس من قبل مع هؤلاء الأشخاص فيما قالوا لي إنه: «كلية نيومان». ربّما أن ذلك حصلَ في أي مكانٍ آخر. لقد صعدنا ونزلنا السُّلم وقطعنا الممرات كافةً. جلسنا فيما وصف بأنه مكتب المدير. كل هذا، مع ذلك، ربّما حصلَ في أي مكانٍ آخر. تجربة المؤسسات والمعاهد للأعمى هي تجربةٌ مجردة إلى حدٍّ ما.

٤ يوليو

لقد مرّت الآن عدة أشهر منذ أن بدأت أحسّ وأستشير بالمعرفة الحقيقية التي تتأتّى باللمس. في الأسابيع الأخيرة، بدأت في تجربة ممتعة تعكس المعرفة الحقيقية لتجربة اللمس. في ذلك اليوم كنت في منزل صديق تجمع زوجته نماذج ومنحوتات مجسّمة لليوم. وُضِعَ في يدي بومة حجرية صغيرة يبلغ ارتفاعها حوالي خمس بوصات. كانت جميلة وخشنة اللمس. وزنها معقول في كفّي. بومة منحوتة بالكامل في أفريقيا. أعجبت ببساطة التفاصيل، بدفء ونعومة الخشب، والطريقة التي يبدو عليها كامل المُجسّم في كفّي. أظنُّ أنني أطوّر فنّ التحديق بيدي. أحب أن أنفخخص الأشياء في يدي، وأستوعب ملامح الجمال فيها. في أحد الأيام، في معرض متعدد الثقافات، أمسكت في يدي ما يشبه مسابح الخرز، كانت

ناعمة ومصقولة، وتفحصت جرة ماء من أمريكا الجنوبية، كانت مصنوعة من الخزف، عند إغلاق أو فتح غطاء الجرة يصدر صوت احتكاك جميل ومميز، وعند النقر على البطن المستديرة للجرة الجوفاء تصدر آلاف الأصدااء الدقيقة والأصوات الرنانة. استمتعت بالتفريق بين قوام ونسيج المواد المختلفة. تستخدم إحدى صديقاتي المدرسات كيسًا مخمليًا ثقيلًا لإخفاء الأشياء عن أطفالها. أحببت ملمس القماش عند تمرير أصابعي عليه. ثمة تباين واضح بين ملمس القماش وملمس السوار المعدني الصلب الموضوع في الكيس.

استغرقني الأمر ما يقرب من خمس سنوات لأستطيع تقدير تجارب من هذا القبيل وهذا يبعث على الدهشة. الوزن والملمس، الشكل ودرجة الحرارة، الأصوات التي تصنعها الأشياء، هذا كل ما أبحث عنه الآن.

١٤ يوليو

أثناء الإفطار في ذلك اليوم، ناديت مارلين، التي كانت منشغلة بمليون شيء آخر: «هل حضرتِ الشاي بعد، يا عزيزتي؟».

«نعم»، أجابتي من المطبخ: «إنه على الطاولة أمامك».

تدخلت ليزي: «لماذا سألت أُمِّي عن الشاي؟».

قال توماس: «لأنه كان عليه أن يسأل أُمِّي».

أضافت ليزي: «لأنك لا تستطيع أن ترى وأستطيع أنا أن أرى».

اعتبرت أن هذا كان مثالًا جيدًا لقدرة ليزي المتزايدة على تفسير سلوكي الغريب.

بينما كنت أقف في الشرفة الأمامية مع توماس، يبدو أنه كان ينظر على السيارة المتوقفة على الشارع، سأل توماس: «لماذا لا نوقف السيارة في المنزل؟».

أجبت: «سيكون علينا أن نرفعها ونصعد بها السلالم».

سأل: «لماذا؟».

«هل حاولت رفعها من قبل؟».

«لا».

قلت: «حسنًا، إنها ثقيلة جدًا على أية حال». تابعت: «قد نحاول ذلك. يمكنك أن ترفع من ناحية وسأرفع أنا من الناحية الأخرى». قال بنبهة جادة وغير واثقة: «حسنًا، سيكون الأمر صعبًا. أنت أعمى ولست قويًا جدًا».

اقترحت: «يمكننا الحصول على مساعدة ليزي».

قال متأملًا: «إنها ليست قوية جدًا أيضًا».

سألته: «ماذا عن أمك؟».

«حسنًا...» بدا غير متأكد.

«دعنا نواجه الأمر» قلت بخفة: «العائلة بأكملها ليست قوية جدًا».

بدا وأنة لا يرغب بمتابعة هذا الحوار، وغيّرنا الموضوع.

١٥ يوليو

ذهبت يوم الجمعة إلى محطة نيو ستريت للقاء صديق. كنت أسير عبر الميدان عندما اقترب مني رجلٌ إيرلندي ثرثار ورافقني ثم ساعدني، وضعني في مكانٍ ظاهرٍ يمكن لضيفتي أن تراني وهي تعبر ضمن القادمين. سألتني إذا كنت أمانع الإجابة على بعض الأسئلة الشخصية. أخبرته عدم ممانعتي، وسألني إذا كان صحيحًا أنني أعمى. أكدت له ذلك، وبدون مزيد من اللغط، قال: «سوف يشفيك يسوع». أجبته بعبارات دينية مماثلة، أكدت له أن لا داعي للقلق، فلقد شَفاني يسوع بالفعل، منحني حضوره وإرشاده، وأنه على الرغم من أن بصري الخارجي

لطالما كان يذوي، إلا أنني آمل أن بصيرتي الداخلية تزداد قوة يوماً بعد يوم. بعد ذلك، انتقل سياق الحديث إلى حياته، اكتشفت أنه كان من أنصار الخمسينية^(١)، وتحدثنا عن ذلك لبعض الوقت.

تم الإعلان عن وصول قطاري، وأخبرني صديقي أن لديه ابنة صغيرة أصيبت في حادث طريق وأنها في المستشفى، وكان عليه أن يذهب لرؤيتها، لكن لم يكن لديه مال ليهدئها هدية. سألني مساعدته في شراء عتقود عنبٍ لها؟ أعطيته المبلغ المطلوب وافترقنا بعد الثناء على الرب والدعاء.

١٦ يوليو

أخبرتني مارلين أن صديقةً حساسة سألتها ما إذا كان العمى يساعدني على التركيز أكثر، وما إذا كان المسؤول عن الإبداع الذي تعتقد أنني أظهرته خلال الأشهر الستة الماضية أو نحو ذلك.

(١) الخمسينية Pentecostalism هي حركة مسيحية بروتستانتية ظهرت في أميركا في أواخر القرن التاسع عشر، تؤكد على ضرورة التجربة الشخصية والمباشرة مع الله. وترى أن جميع المسيحيين بحاجة لأن يعيشوا اختباراً فريداً لكي يصبحوا مسيحيين فعلاً، ويسمى هذا الاختبار بمعمودية الروح القدس.

قد يكون ذلك صحيحًا بشكلٍ أو بآخر. يشبه العمى
المكنسة الكهربائية الضخمة التي تحطُّ فجأةً على حياتك،
وتمتص كل شيء تقريبًا. ذكرياتك السابقة، اهتماماتك، إدراكك
للوقت وكيف ستقضيهِ، المكان نفسه يختفى، وحتى العالم من
حولك، كل شيء يتم امتصاصه. يُفَرِّغُ وعيك، ويُترك لك إعادة
بنائه وترميمه، بما في ذلك ضرورة خلق إحساسٍ جديدٍ بالوقت،
وفهمٍ جديدٍ لحيزِ الجسد في الفضاء وما إلى ذلك. في هذه
الحالة، من المحتمل أن يكون هناك مراجعة جذرية للأولويات.
أما بالنسبة لما يقال عنه أنه إبداع خاص بي خلال هذه الأشهر،
فمن المهم أن نتذكر أنه من عام ١٩٦٨ حتى حوالي عام ١٩٨٣
كنت مشغولًا تمامًا بواجباتي التدريسية والإشرافية مع الطلاب،
ومع اللجان الجامعية. كما أنَّ حقيقة أنه منذ عام ١٩٨٣
تقريبًا، لم أَسعَ لإعادة الانتخاب، وتخلّيت عن معظم لجان
جامعتي بما في ذلك المجالس التنفيذية والأكاديمية والقضائية،
ولجنة الأغراض التربوية والعديد من اللجان الصغرى وكل
ذلك لا يقل أهميةً عن إصابتي بالعمى. ربّما، لو تمَّ إعفائي من
هذه الواجبات والمهام وأنا مبصر، لكنت بذات درجة الإنتاجية
والإبداع في البحث والنشر التي بلغتُها في الأشهر القليلة
الماضية.

من الصحيح أيضًا أنني أمضيت السنوات الثلاث أو الأربع الأولى بعد أن فقدت بصري في التكيف مع عملي والتدريس بالجامعة. لم أشعر بالثقة حتى بداية العام الدراسي ١٩٨٤/١٩٨٥. قضيت وقتًا طويلًا في تدوين الملاحظات على الكاسيت لأتمكن من توفير المراجع لعملي، كل ذلك يمكن الآن تحويله إلى كتابة أصلية.

مع أخذ كل هذه العوامل في الاعتبار، ما زلت أعتقد أن العمى يطهر العالم من حورك. على المرء أن يعيد تشكيل حياته أو أن يقبل بخسارتها. كنت محظوظًا لأن لدي مثل هذه النواة الاجتماعية القوية في حياتي. كان لدي عمل، و حياة أسرية آمنة، ومؤسسة تقبلي وتساعدني، والعديد من الأصدقاء.

١٩ يوليو

يمكنني رصد تحرك الأشياء حولي من خلال الأصوات التي تصدرها. تهذر مكائن السيارات، تنطير الأقدام وتقطع، ولأوراق الأشجار حفيفها الخاص، لكن الطبيعة الصامتة لا تتحرك. إذن، بالنسبة إلي، الغيوم لا تتحرك، العالم خارج نافذة السيارة أو نافذة القطار لا يتحرك. لا يصدر الريف أي ضجيج أثناء عبور القطار فيه. التلال والحقول صامتة.

إذا كانت حركة الأشياء من حولي تتجلى عبر صوتها، فإن حركة جسدي تتجلى من خلال حقيقة شعوري بالاهتزاز أو شعوري بتأثير حركة السيارة أثناء الانحناء بسرعة عالية. كلما تسارعنا كلما عدتُ إلى الوراء في مقعدي، وكلما تباطأت السرعة كلما اندفعت إلى الأمام.

هذا يعني بالضرورة أن المعرفة التي لدي لحركات جسدي وحركات الأشياء الأخرى ليست متماثلة. إيعاز الحركة يحصل من خلال الصوت الخارجي والإحساس الداخلي. ليس هذا هو الحال بالنسبة للمبصر، الذي يستطيع أن يقول ما إذا كانت الأشياء الأخرى تتحرك وما إذا كان هو نفسه يتحرك بفضل ملكة النظر وحاسة البصر. أنت تعرف متى يبدأ القطار بالتحرك بالنظر من النافذة. بإمكانك، كشخص مبصر، رؤية العلاقة المتغيرة بين جسمك والعالم. تشير الطرق المختلفة التي يستخدمها الأعمى لاستشعار الحركة إلى أن العلاقة الطبيعية بين الجسد والعالم قد انقطعت.

٢١ يوليو

عندما نكون في الخارج، يرى الشخص المبصر عالماً في متناول اليد. إنه يعلم أنه من خلال أداء قدرٍ معيّن من الجهد (أي

المشي)، مستحوّل هذه الطاقة المبذولة إلى مدى حقيقيٍّ ومحسوس. المقدار المحسوب من المشي سيتحوّل إلى نقطة وصولٍ وتقريب حقيقي إلى الهدف؛ لذلك فإن مشي المبصر له هدف؛ هدفه هو الوصول إلى نقطة معينة مُتصوّرة بالفعل. يتضح هذا من حقيقة أن المبصرين يشعرون بالإحباط عندما لا تبدو الأشياء التي يسировون باتجاهها، مثل نقطةٍ معيّنة في التلّ، قريبة بما يكفي بعد بذل الكثير من الجهد.

مشكلة المشي للمكفوفين هي أنه ليس لديهم عالم في متناول اليد ويمكن الوصول إليه، ولكن فقط منطقة يمكن البلوغ إليها والشعور بها لمجرد ملامسة القدمين على الأرض. الأعمى لا يعرف ما إذا كان هناك منعطفٌ على الطريق، أو ما إذا كان هناك مجموعة من التلال في طريقه. وبالتالي، فإن الأعمى يفتقر إلى الحافز لتكوين هدفٍ ملموس من شأنه أن يحوّل شيئاً ما تم إدراكه إلى شيءٍ محقّق بالفعل.

النتيجة هي أن الأعمى، عندما يمشي، يصبح واعياً بشكل أساسي بجسده. تحاصره حركاتٌ صعودٍ وهبوط وخطواتٌ تتوالى واحدة تلو الأخرى. هناك، بالطبع، متعةُ الشعور بالريح تلامس وجه المرء، متعة سماع أصوات الطيور، واستنشاق مختلف الروائح، ولكن كل هذا يمكن أن يكون ثابتاً. إذا كان

الأعمى يسير في طريق مألوف واستطاع استشعار كل هذه المؤثرات، فهذا أفضل بالتأكيد. بفضل الذاكرة، يمكن للأعمى معرفة أن قدرًا معينًا من الجهد سيوصله إلى نقطة معينة، على سبيل المثال لو جلسنا على أحطاب الأشجار المتساقطة في ذلك المكان، حيث يوجد جسر يمكننا الاعتماد عليه والاستماع إلى خرير النهر. نظرًا لأن الطريق مألوف، يمكن للأعمى تقدير الجهد الذي سيستغرقه للوصول إلى هذه النقطة أو تلك. الطريق الجديد، بلا أي معلومات، يصبح بلا معنى إلى حد ما بالنسبة للأعمى.

عندما أسير في شوارع المدينة، على امتداد طريق غريب، برفقة صديق، أميل إلى طرح أسئلة متكررة مثل: «هل يمكنك رؤيته بعد؟ هل علينا تعدي هذا المربع السكني؟ كم من الوقت يتطلب الوصول إلى هناك؟». يبدو أنني بحاجة إلى ضبط جهدي وحركتي للوصول إلى أهداف معينة في نزهة ستصبح لولا ذلك نزهة مرهقة. هناك القليل من التقدم ألاحظه الآن. الأشياء التي تمر بجانبني لم تكن بعيدة منذ لحظة من السهل على الشخص الأعمى أن يشعر بأن الكثير من العمل يُبذل، ولكن القليل من التقدم يتم إحرازه.

لا يمكنك الشعور بأنك تعبر منطقة ما ما لم يتخلل الطريق

أنواع مختلفة من الأرصفة، وروائح فريدة مثل: رائحة الخبز، أو أصوات موسيقي مرتبطة بشوارع معينة؛ بخلاف ذلك يصعب الشعور بأنك عبرت طريقك.

٨ أغسطس

قبل بضع دقائق، نمثُ على كرسي الجلوس الخاص بي بعد ظهر يوم السبت في المكتب. حلمتُ أن زميلي مايكل طرّق على بابي ليخبرني أنه انتهى من عمله وينوي العودة إلى منزله. أغلق الباب وغادر. حدث شيءٌ لا يمكنُ تصديقه بعد ذلك. غُمرت غرفتي بالضوء. حدّقت في الجدران حولي؛ حيث صفوف الكتب، وحافظات ملفات، وصناديق عليها علامات، ملوّنة بألوان زاهية، ومرتبّة ببساطة مذهلة، ومُصنّفة بدقّة بحسب الشكل واللون. لم أصدّق عيني. كانت الغرفة كلها متوهّجة بالأشياء. لم أجرؤ على الرّمش خشيةً اختفاء الألوان من حولي. وقفت على قدمي وخشيت أن أستيقظ، أو أن أدرك أنني في حلمٍ لمجرّد تغيير مكاني. ترنّحت ناحية الباب، شعرتُ بمتعة عجيبة عندما مددت يدي وأمسكت بمقبض الباب، كم كان رائعاً أن أكون قادراً على القيام بذلك. عندما وصلت إلى الباب، نظرت إلى الغرفة، ورأيتها من منظورٍ مختلف. لقد كانت مكتبة

كل الأشياء، منعشة وساطعة وطازجة كما لو أنها للتو وجدت. في الممر تعثرت وأنا أصبح: «مايك! مايك!»، لكن صوتي لا يخرج من حنجرتي. كما لو أنني أختنق. أدركت أنه على الرغم من أنني كنت أحاول رفع صوتي وندائي، إلا أن ما يخرج من حنجرتي لا يتجاوز كونه همساً. كان الجو قاتمًا ومغمومًا في الممر، لكنني ما زلت أرى. أسرعُ باتجاه المصعد، كنت أحرك يدي جنبًا إلى جنب كما لو كنت ألوح بعصاي. لا أعتقد أنني قد رفعت العصا من خطافها بجانب الباب. قلت في نفسي: «ليست هناك حاجة لفعل ذلك الآن. أستطيع أن أرى الآن. ولكن ما أصعب التخلص من هذه العادة المتمثلة في تحريك يدي من جنب إلى آخر». كنت أنساءل ما الذي حصل لعيني حتى ترى كل هذه الأشياء.

اتجهت إلى البهو حيث كان المصعد. وجدت مايكل، مع زوجته وعائلته، يدخلون للتو إلى المصعد. لا لقد دخلوا بالفعل، وأغلقت الأبواب. أسرعت إليهم وأبواب المصعد مغلقة. شعرت لحظتها كما لو كنت على وشك الإغماء. طرقت على باب المصعد ونافذته الصغيرة وهو ينزل. صحت مرة أخرى أناديهم؛ لكن صوتي لم يكن أكثر من همسٍ مكتومٍ أجش. اختفى المصعد، وقفت هناك وبدأت الرؤية تتلاشى. بدأ

الفارق بين لون أبواب المصعد المعدنية الزرقاء والدعامات
البنية على كلا الجانبين يتلاشى، وبدأت الألوان كلها تذوب
وتختفي. جاء الضباب وحلّ الظلام وكأنه طوفان. عدتُ إلى
وعبي. وكنت هناك، في مقعدي، وأدركت مصدومًا أنه كان
حلمًا. داخل ذلك الحلم، كنتُ واعيًا لعماي، كنتُ شخصًا
أعمى يستعيد البصر ويفقده مرة أخرى. الميزة الغريبة هي أن
استعادة البصر كان جزءًا من القصة التي حلمت بها، بينما فقدان
البصر لم يكن جزءًا من القصة. في الحلم لم أحلم أنني أفقد
بصري. ما حدث ببساطة هو أنني استيقظت. وقفتُ بجانب
أبواب المصعد المغلقة، لم أحلم أنني أصبتُ بالعمى. كل ما
حدث أن الرؤية تضاءلت واختفت لمجرد استعادة وعبي.
توقف الحلم لأنني استيقظت. الخوف، في الحلم، كان من
التحرّك خشية فقدان البصر، هو ذاته الخوف من التحرك عن
كرسي وانقطاع الحلم، وبالتالي الاستيقاظ مبكرًا.

كان التزامن بين تجربة الاستيقاظ وعودة العمى يثير
استغرابي. وقفتُ بجانب أبواب المصعد، واللوحة المضئنة
الصغيرة تشير إلى نزول مايكل وعائلته في المصعد. شعرت
بشعورٍ مختلطٍ من الذعر واليأس، أدركتُ أنني كنتُ أستيقظ
وأفقد بصري. فتحت عيني وأظلم عقلي. في كل مرة أعود فيها
للوعى أفقد بصري مرة أخرى.

لا أتذكر أي حلم ترك في داخلي إحساسًا حادًا بصدمة الواقع مثل هذا الحلم. هذا يرجع جزئيًا إلى الاستمرارية بين الحلم والظروف الفعلية التي غفوت فيها ونمت. كل شيء بدا طبيعيًا جدًا، ومعقولًا جدًا، وكانت هناك استمرارية سلسة للأحداث. حقيقة كل ذلك تغلبت عليّ تمامًا، وتركت ذهني مخدرًا عند عودتي من واقع الحلم إلى الواقع الفعلي. لم يكن الأمر مجرد الإدراك مرة أخرى أنني أعمى، ولكن الإحساس الغريب بالانتقال من حقيقة إلى أخرى، ما أشعرني أن عقلي قد خرج عن مساره. كانت تلك ساعة الحقيقة، كل شيء يسبح حولي. استبدل شعوري برؤية بالأشياء من حولي إلى الشعور بجسدي وملابسي وأنا أجلس على كرسيّ بذراعين، ألمس الحافة الناعمة للمكتب الذي كنت جالسًا عنده، وكل ما أعرفه لا يتجاوز مداه أطراف أصابعي. كل شيء آخر اختفى مرة أخرى. شعرت بالخداع، غير متأكد ما إذا كان هذا مجرد فاصل في الحلم، ولو جلست ساكنًا جدًا في مكاني، فقد يتلاشى من جديد.

١١ أغسطس

احتفالاً بالذكرى السنوية الخامسة للعملية الأخيرة التي أجريتها في عيني، أريد أن أحدّد المراحل التي مرت بها هذه الرحلة.

أولاً: كانت هناك فترة أمل استمرت سنة أو ثمانية عشر شهراً. انتهت بتدهور بصري خلال صيف عام ١٩٨١، على الرغم من أنه حتى أواخر صيف عام ١٩٨٢، عندما كنت لا أزال أرى بعض الأضواء والألوان والأشكال، ظلّ وميضُ الأمل ينبض في قلبي من حينٍ لآخر.

ثانياً: كانت هناك فترة التغلب على المشاكل. بدأت هذه المرحلة في صيف عام ١٩٨١، عندما أصبح العمل البصري مستحيلاً، واستمرت حتى صيف عام ١٩٨٤. ولم يكن حتى عيد الفصح عام ١٩٨٥، عندما بدأت أشعر أنني لست بحاجة إلى المزيد من المعدات. كان دافعي الرئيسي لإنشاء نظام عملي مكتبي يناسبني خلال عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٣. خلال تلك الفترة، مثل العمى تحدياً.

بدأت المرحلة الثالثة في وقتٍ ما في عام ١٩٨٣، وربما في أواخر العام واستمرت لمدة عام تقريباً. كانت الفترة التي مررت فيها باليأس. تلك هي السنوات التي تخلّلت نومي أحلامٌ مروّعة، كنت محروماً حتى في حياة اليقظة؛ مدرّكاً أنني أسقط أعمق وأعمق في العمى بشكل لا يقاوم.

بدأت الفترة الرابعة والحالية منذ خريف عام ١٩٨٤، أي منذ فترة التعافي من زيارتي إلى أستراليا، حيث شعرت أن

العمى غمرني تمامًا. بدأت في كتابة كتابي عن التعليم الديني للكبار في أكتوبر ١٩٨٤ وانتهت منه في مارس ١٩٨٥.

لم تُعد أوجاع العمى تلاحقني في معظم الوقت هذه الفترة. ثمة تغيير غريب في حالة أو نوع النشاط في عقلي. يبدو أنه قد انقلب على نفسه، وأوجد محفزات داخلية ملائمة. نظرًا لحرمانه من محفزات كثيرة في العالم الخارجي، فقد كان عليه أن يكتفي ويعيد ترتيب، وفرز وظائفه وألوياته. أشعر الآن بأنني أكثر صفاءً وحماسةً ومغامرةً فكريةً أكثر من أي وقت مضى في حياتي. أجد نفسي أكثر تواصلًا، وأتذكر أكثر، أستطيع تكوين روابط أكثر في ذهني بين الأشياء المختلفة التي قرأتها وتعلّمتها على مرّ السنين. أحيانًا أعود إلى المنزل في المساء وأشعر أن ذهني يكاد ينفجر بأفكار وآفاق جديدة.

ما زلت أجد حاجة ماسة لهذا النوع من القوت اليومي. مرور يوم واحد بدون دراسة أو تعلم لشيء جديد، يمكن أن يعجّل بإحساسٍ جديدٍ من الإلحاح والمعاناة. ما زلت أشعر وكأنني شخص على جهاز غسيل الكلى، يسعى وبشكل متزايد على البقاء على قيد الحياة.

أطفال مفقودون

خريف ١٩٨٥

١ سبتمبر

خلال حفلة عيد ميلاد توماس الخامس، جاء طفلٌ وجلس على ركبتني. في البداية، اعتقدت أنها كانت ليزي، ولكن مع مرور الوقت، أصبحت غير متأكِّدٍ أكثر فأكثر. وصلتُ إلى النقطة التي كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنني التأكيد من خلالها هي طرح السؤال: «ما اسمك؟»، لكنني ترددت عن هذا في حال كانت ليزي حقًا. ستعرف بعد ذلك أنني لم أتعرف عليها. كان هذا بالأحرى موقفًا محيرًا وحتى موهجًا.

عندما يفتح الطفل هدية عيد ميلاد، فإن الجميع يشارك الإعجاب بها. إنه لأمر سخيف بالنسبة لي أن أشارك في صرخات الإعجاب هذه؛ لأن الجميع سيعرف أنني كنت أنظاھر. حاولت أن أجلس توماس على ركبتني حتى أتمكن من

الحصول على فكرة عن ماهية الشيء، لكن المشكلة هي أن يدي تعترض طريقه، وبدون أن ألمس لا أعرف. على أي حال، نادرًا ما يمكنك بعد لحظة أو اثنتين من اللمس أن تشهق من المفاجأة والبهجة. المعرفة عن طريق اللمس تستغرق وقتًا. على أي حال، لن يبقى الطفل على ركبتيك، لكنه سيستمر في الجري للحصول على المزيد من الهدايا ولإظهارها للمعجبين الآخرين. من المستحيل أن لا تشعر بإحساس مُشعر بالبعد في مثل هذا الوقت.

بعد أن ذهب جميع الأطفال، جاء توماس مسرعًا مع مجموعة جديدة من الألغاز الرياضية على شكل أوراق لعب. أراد مني أن ألعب معه. حاولت أن أوضح له أنني لا أستطيع مساعدته كثيرًا، لكنه أخرج من جيبه لعبة أخرى. كانت عبارة عن لعبة بلاستيكية شفافة، وهي إحدى تلك الألغاز حيث يتعين عليك دحرجة كرات فضية صغيرة فيها حتى تستقر في ثقب صغيرة. بشعور المُتعب، حاولت أن أوضح أن هذه كانت أكثر صعوبة بالنسبة لي. غير مبالي، أخرج لعبة لوحية أخرى. فتحناها. أدركت أن جميع العدادات فيها كانت متطابقة تمامًا. لا بد وأنها كانت بألوان مختلفة لكنها جميعها تبدو متساوية، اقترحت أن تساعد أمه لاحقًا. حاولت قدر الإمكان التحمس لكل هذه

الهدايا، لكنه كان عملاً شاقاً. نمت في تلك الليلة مرهقاً تماماً. في الصباح اتخذت مبادرة جديدة. عندما استيقظ توماس في حوالي الساعة السابعة صباحاً، أخبرته أن يذهب ويحضر كل الهدايا التي حصل عليها في عيد ميلاده، ويضعها جميعاً على السرير، وسأمرّ معه على كلّ واحدة منها. كان سعيداً وأعجبه ذلك كثيراً. وضع الهدايا على السرير، واحدة تلو الأخرى، في هدوء، تحسّست الهدايا وكونت فكرة عنها. كان لدي الوقت لاستكشاف كل عنصرٍ بعناية، واكتشاف كل ما يمكنني فعله حول ذلك، وما إذا كان هناك أي طريقةٍ يمكنني المشاركة بها. بدون أي ضغط اجتماعي للتعبير عن الإعجاب المبكر، استمعتُ بذلك كثيراً، إلى حدّ ما، دخلت معه أجواء عيد ميلاده.

٦ سبتمبر

مرتان أو ثلاث مرات هذا الأسبوع سرت مع توماس إلى مدرسته. ربما ينبغي أن أقول إنه هو من سار معي؛ لأنه أصبح جيداً في إرشادي. يسير بالقرب من الطريق ممسكاً بيدي، بينما أستخدم العصا، وألّوح بها أمامي. إنه كبير بما يكفي الآن ويعرف جيّداً ممر المشاة، وعلى أي حال، ببقائي قريباً من

الجدران والأسوار، يمكنني إبقاؤه داخل ممر المشاة. لقد تعلم كيف يجذب يدي قليلاً نحوه عندما يرى أنني على وشك ملامسة سياج أو بوابة. ومع ذلك، فلا يمكن الثقة به كلياً بشأن هذا الأمر؛ إن لم أكن متيقظاً طوال الوقت، فربما أسير في المكان الخطأ لانشغاله بالنظر إلى شيء آخر.

لقد توصلت أيضاً إلى طريقة مرضية جداً لتوديعه عند بوابة المدرسة. بينما هو يركض في اتجاه ملعب المدرسة، يودّعني قائلاً: «وداعاً». أرّد عليه: «وداعاً»، تتبادل هذه الوداعات وتردّها حتى تصبح أصواتنا أكثر خفوتاً شيئاً فشيئاً وتختفي في ضوضاء ساحة المدرسة. بينما كنت أستدير وأرحل، بعد أن لوحّت له بأقصى ما يمكنني، سمعت وداعاً صغيراً أخيراً خافتاً: «إلى اللقاء». هذه اللعبة تتجنب الاختفاء المفاجئ والمثير للقلق وتلك هي تجربة الأعمى المعتادة عند توديعه شخص ما. توفر نداءات الصدى مرحلة وسيطة للاختفاء التدريجي، وهذا يكاد يكون بمثابة رؤية شخص يلوّح للآخر حتى يغيب عن ناظره.

ليزي مهمة أيضاً بمرافقتي وإرشادي، ثمة منافسة حسنة بينها وبين أخيها في ذلك. غالباً ما يكون معي توماس من ناحية، وليزي من الناحية الأخرى. أستمتع بهذا كثيراً، لكنه يجعل من

الصعب استخدام العصا. أنا بخير بشرط أن لا يقرر أحدهما السير في اتجاه الآخر. ليزي فخورة جدًا بمهاراتها، وتناشد مارلين: «انظري! أنا أقود أبي. أنا أرشد أبي. أنا أريه الطريق».

٧ سبتمبر

لطالما كانت لعبة اللودو الخاصة بالمكفوفين ميزة ثمينة. لعبت بسعادة مع الأطفال طوال اليوم حتى الرابعة بعد الظهر. بعد اللودو؛ لعبنا: «ريفيرسي»^(١) على لوح مصمم أيضًا للمكفوفين، ولكنه جيد أيضًا للأشخاص المبصرين، ثم استمعنا أنا وتوماس إلى بعض أشرطة ذا جون شو^(٢)، شعرت بتأنيج مرضية تمامًا. لعبنا بعد ذلك لعبة ورق تسمى: «جمبل سيل»^(٣) وعددًا من ألعاب الطاولة الأخرى.

حتى عندما لا نلعب لعبة مخصصة للمكفوفين، لا يبدو أنني أجد الأمر مزعجًا كما كنت أجده من قبل. يبدو أنني أكثر

(١) لعبة ريفيرسي Reversi هي لعبة ألواح إستراتيجية يشارك فيها لاعبان يلعبان على لوح مقسم إلى ٨ × ٨ مربعات.

(٢) ذا جون شو The Goon Show هو برنامج كوميدى إذاعي بريطاني، تم إنتاجه وبثه في الأصل بواسطة BBC Home Ser-vice من ١٩٥١ إلى ١٩٦٠.

(3) Jumble Sales

سعادة لمجرد الجلوس والمشاركة، وإخباري بما يجب القيام به، ورمي النرد، والاستمرار في التعليق الحماسي قدر الإمكان، كل ذلك يجده الأطفال نوعًا مناسبًا تمامًا من المشاركة. الحقيقة هي أنه غالبًا ما يكون لدي القليل من المعلومات أو ليس لدي أي معلومات عن قواعد اللعبة، بل أحيانًا لست متأكدًا حتى من اللعبة التي نلعبها.

٨ سبتمبر

يبلغ عمر جابريل أقل من شهر، أجد نفسي مستمتعًا برفقته كثيرًا. أحب رائحته، والطريقة السريعة المميّزة التي يتنفس بها في ملابسه الصغيرة عندما أنادي اسمه. أحب شعوري برأسه يلتفت لمجرد دخول مارلين الغرفة، الطريقة التي يعود بها ويلتفت إليّ مرةً أخرى. أحب شعوري به نائمًا ويتنفس بين ذراعي، التغير في صوت ونمط تنفسه، الإمساك بيده الصغيرتين، ووضع يدي على رأسه الدافئ. أحب أن أشعر ما إذا كان شعره يزيد وينمو، وأحب الإمساك بأنفه الصغير. أحب إمساك إحدى قدميه الصغيرتين، الشعور بجسده وأنا أحمله على كتف واحدة. كل هذه الأشياء لم يُفسدها ضعف بصري كما كان الحال مع توماس أو ليزي. غير أنني لا زلت أشعر

بشيء حزين عندما يقول أحدهم: «إنه ينقسم لك»، أو «يال له من طفل ذكيّ ونبيه!» خاصةً وأن مثل هذه الأفكار لا تخطر على بالي كثيرًا، أشعرُ بمتعةٍ حقيقيةٍ وفوريةٍ مع هذا الطفل الصغير. جابريل اسمٌ على مُستوى.

٣ أكتوبر

حلمت الليلة الماضية أنني كنتُ وعائلتي نتسوق في سوبر ماركت أو متجر كبير تم بناؤه فوق منحدر. ضربت موجةً هائلةً المتجر، وفترقت بيننا جميعًا. عدت مسرعًا إلى المتجر الذي غمرته المياه، أبحث عن الأطفال. كان هناك حطامٌ في كل مكان، بالات من القماش والبضائع مغمورة بالماء، وجثث متفرقة. كانت مارلين وجابريل وإيموجين بأمان في الطرف العلوي من المتجر، بينما كانا توماس وإليزابيث في عدادٍ المفقودين. لقد كانا في الأسفل، تحت المستوى الذي وصلت إليه المياه. بحثتُ عنهما في كل مكان ولم أجد شيئًا. تزايد اليأس في داخلي. عدتُ وأخبرتُ مارلين بأنه لا يوجد أي دليل عنهم. كان الحزن يغمرنا واستمرّ الجميعُ يبحث في كل مكان، لكن بدا الأمر ميؤوسًا منه. لقد اختفيا ببساطة. نصبنا لوحةً صغيرةً تخليدًا لذكراهم. كان هناك الكثير من النقاش حول ما يجب أن نقوله. هل نقول ببساطة إن البحر أخذهما؟

وجدتُ نفسي بعد ذلك على حافة جرفٍ، ولا زلت أبحث
عنهما. كان الجرفُ وعراً وشديداً الانحدار، يتكون من طبقاتٍ
رفيعة أو صفائح صخرية رقيقة. يبدو أنها أصبحت أكثر رقة
بفعل الموجة، وبينما كنت أتسلق على الحافة، معلقاً فوق بحرٍ
غاضب، انزلت قطع ضخمة من الصخر الطيني من تحت
قدمي وتحطمت. تثبت لموطئ قدم لي، متسائلاً ما إذا كانت
حافة المنحدر بأكملها على وشك السقوط والانهار. أثناء
محاولاتي للتشبث، انزلتُ من فوقى ألواحٍ ضخمة من
الصخور، وانهار معها المزيد من الأنقاض والحطام. كان الناس
من حولي يتسلقون إلى الأعلى كذلك. أخيراً وبطريقة ما،
تمكنت من التشبث إلى حيث يبدو وجه المنحدر أقل تأثراً
بالموجة والعاصفة وأكثر صلابة؛ لذا تمكنت من الفرار، لكن
لم يكن هناك أي إشارة إلى توماس أو ليزي.

بدا هذا الحلم طويلاً للغاية. استيقظت منه تدريجياً. في
الواقع، لست متأكداً تماماً من النقطة التي انتهى فيها الحلم وبدأ
الخيال الكابوسي. لم يكن هناك خط انقسام واضح بين الحلم
وَالواقع، لقد غمر الحلم إحساسي باليقظة بشعورٍ من الرهبة.

في وقتٍ سابق من فصل الصيف، جرفت السيول والصخور

مجموعة من أطفال المدارس في كورنوال^(١). ترك هذا الحادث أثراً عميقاً في داخلي، كما ترك حلمٌ أخبرني عنه أحد زملائي مؤخراً أثراً مشابهاً؛ حيث غرق أطفالٌ أيضاً وسط الصخور. اعتقد أن الحلم في مجمله يعبر عن الخسارة في العلاقات الأسرية التي يسببها العمى. غرق توماس وليزي، اللذان لا يزالان يتعلمان ويفهمان العمى، ما جعلهما تحت مستوى سطح الماء. ولدت إيموجين قبل صدمة فقدان البصر وولد جابريل بعد ذلك. يقترح الحلم أيضاً أن شظايا حياتي القديمة، حياتي الواعية، حياتي المُبصرة، تنزلق وتهار في كل مكان حولي ليتلعبها عالم العمى الذي لا يرحم.

١٣ أكتوبر

ذهبنا لاحتفال رسمي لأحد الوزراء. حضرت فرقة موسيقية اسمها: «الأوز البري»^(٢) من جلاسكو للمشاركة. على الأقلّ مرتين، غنى كورال يتكون من أكثر من عشرة مغنون شباب على السلالم أغاني التحرير الأفريقية. وقفت بالقرب منهم وكان توماس يتحرك ويدندن مع الإيقاع، ويصفق بيديه. كانت

(1) Cornwall

(2) Wild Geese

الموسيقى ثرية جدًا. شعرت بالبهجة والسرور. صاح توماس في أذني وسط ضجيج التصفيق والغناء «عن ماذا كانت هذه الأغاني؟». «إنهم يغنون للحرية» أجبت. ضحك مبتهجًا وكذلك فعلت. في وقتٍ لاحقٍ من المساء قال لي شخصٌ ما: «جون، قد ترغب في معرفة أن كل هؤلاء الشباب تبدو هيتهم بهتة ومشعة، وجوههم مبتسمة، يرتدون ألوانَ زاهية! بعضها باللون الأحمر والبرتقال، وآخرون يرتدون كما المهرجين كاروهات مربعة ملونة، الجميع في غاية السعادة!». كنت سعيدًا لحصولي على هذه المعلومات؛ ذلك أنني تصوّرتهم يرتدون أقمشة مقلّمة مع بلوزات بيضاء مزينة. لا أفترض أنني سأكون قادرًا على تجنب تكوين بعض الصور العقلية، وبما أن هذا يجب أن يكون دائمًا واقعيًا قدر الإمكان، أسعدُ دائمًا بالحصول على مزيد من المعلومات.

ما أثر عليّ هو الصوت أكثر من أي شيء آخر. لا أعتقد أن سعادتي بسماع الغناء يمكن أن تزيد لمجرد قدرتي على الإبصار، أو من خلال وصف ما كنت سأراه. لا أعتقد أن شعوري بالغبطة كان ينقصه العنصر البصري الغائب. شعرت بشيءٍ من الضيق لاعتقاد البعض أن هناك ما ينقص أو يُقلّل استمتاعي بالمشهد بمجمله.

كلّما تعمّق المرء أكثر فأكثر في العمى، فإن الأشياء التي تم اعتبارها ذات يوم أمراً مفروغاً منه، والتي أثارت الحزن لاختفائها، والتي حاول المرء بشتى الطرق تعويضها، في لحظة ما وبطريقة ما تقلُّ أهميّتها، لم يعد شكل الناس أو ما تبدو عليه المدن ذات أهميّة. لا يمكن للمرء أن يتحقّق من دقة تلك التقارير المنقولة، فهي تفتقد المعنى الشخصي وتبتعد عما يمكن الاتصال به. تصبح غير ذات صلة في سلوك المرء. يعيش المرء لحظتها في اهتمامات وقيم الآخرين، ويقيم في عالم آخر.

أعتقد أنني بدأت في استيعاب ما يبدو عليه العمى.

٢٨ أكتوبر

دُعيت أنا ومارلين إلى حفل زفاف صديق. كان ذلك في كنيسة قروية تم اختيارها لرونقها وشكلها الجميل. بينما كنا نغادر المبنى، قالت لي والدّة العريس: «يا للأسف أنك لا تستطيع رؤية الكنيسة! إنها حقاً جميلة جداً. إنها كنيسة صغيرة حلوة. إنه لأمر مؤسف أنك لا تستطيع رؤيتها». ابتسمت مجاملاً وخرجنا. كانت الأجراس تدق. اقترب منا شخص آخر، مُثنيًا على جمال الحفل. مرّة أخرى، قالت والدّة العريس: «لكن من

المؤسف أن جون لم يستطع رؤية الكنيسة!». بعد التقاط الصور على خلفية الكنيسة الصغيرة الجميلة، وجدت نفسي مرةً أخرى مع والدته العريس، هذه المرة مع مارلين. للمرة الثالثة، كُتِرَت ذات الملاحظات: «يا للأسف، لم يستطع جون رؤية الكنيسة الجميلة». ضحكنا أنا ومارلين وقمنا بتغيير الموضوع.

هذا يجعلني أتحدث عن جانبٍ نفسيٍّ في المبصرين. شعرت مضيقنا اللطيفة، التي اختارت الكنيسة لأنها جميلة، بالإحباط قليلاً لأنها لم تكن قادرة على أن تكون مضيقاً جيدةً. لم تُحقق الهدف المنشود بالنسبة لي على الأقل. اختير الموقع للمتعة البصرية في المقام الأول. لم أحصل على تلك المتعة؛ لذلك، كان الأمر مؤسفاً. المؤسف، لأكون دقيقاً هنا، لم يكن أنني لم أتمكن من رؤية الكنيسة فقط، ولكن كل المجهود الذي بذلته لأكون في ذلك المكان لم يحقق النتيجة المطلوبة. كان من المؤسف القيام بكل هذا العمل ووضع كل تلك الخطط من أجل لا شيء.

هذا يدفعني لحديثٍ آخر؛ وهو أنني غير قابلٍ للتنميط أو ولا أقبل وضعي في القالب الذي يلائم الأشخاص المبصرين. لا يُمتعني ما يمتع المبصرين. ولا يُعجبني ما يعجبهم، وكل ذلك يبعث على الأسف.

عندما أكون في مثل هكذا مكان، لا أشعر بالحزن أو القلق؛ لأن هناك أشياء لا أستطيع رؤيتها. انتباهي ومشاعري مشغولان بما يؤثر فيهما فقط ويناسبهما فقط.

في هذه الحالة، كانت الأجراس. كان بإمكانني الوقوف هناك، والاستماع إلى تلك الأجراس، لفترة طويلة. كان الهواء مليئًا بالاهتزازات. بدا وكأنّ رأسي يرنّ. بدت الأرض ترتجف، وكان الهواء ثقيلًا وناضًا بتردد الصدى. حاولت أن أحسب عدد الأنماط المختلفة التي ترنّ، ولكن دون جدوى، لأحدّد عدد الأجراس التي يجب أن تكون في البرج. اعتقدت أنني أصبحت خبيرًا بما يكفي في هذا الشيء الجميل. حاولت أن أصفّ أنماط الصوت لنفسِي، أن أقارنها في عقلي بأجراس أخرى سمعتها مؤخرًا. مرارًا وتكرارًا، كانت الدقات الهابطة تدوي، على خلفية من الثرثرة والحديث، تقطع الهواء الخريفي البارد، تعبّر عن الأشياء بطريقة غريبة وجادة. غمرتني الفرحة، وكررت مرارًا وتكرارًا في قلبي: «نعم، أستمع إليك أيتها الأجراس، أستمع إليك».

ربما لم أكن لاتصّرف بهذه الطريقة لو كنت أعرف المكان من قبل. عندما أعود إلى مكان مألوف، مثل: كنيسة كينجز كولج

في كامبريدج، غالبًا ما أشعر بالخسارة الرهيبة. ومع ذلك، في مكانٍ جديد، لا أبالي كثيرًا بما قد يبدو عليه. أعتبر أن المكان غير متوفر لي، وأركز على تلك الأجزاء التي يمكن أن تصل إلي. في الواقع، يزعجني إعطائي معلومات عن مظهر أي شيء، ما لم أطلب ذلك على وجه التحديد. في كثير من الأحيان، أسأل، لمجرد شعوري بالفضول. قد تكون هناك تفاصيل معينة أريد أن أعرفها. أؤمن أن لا قيمة للجهل. في تلك المناسبات، أطلب من صديقي مبصر شيئًا من التفاصيل. المبادرة، ومع ذلك، يجب أن تكون لي.

لا أعرف ما إذا كان المبصرون قد لاحظوا الأجراس. في أفضل الأحوال، لا بد وأن ذلك مجرد عنصر إضافي من الأجواء، يضاف إلى أوراق الخريف والبرج النورماني^(١) حيث يجتمع الجميع بملابسهم الجميلة. بالنسبة لي، كان الهواء الذي كنت أتنفسه على شكل جرس.

(١) البرج النورماني Norman tower، يستخدم المصطلح لوصف العمارة التي طورها النورمان في مختلف الأراضي التي خضعت لسيطرتهم أو نفوذهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، حيث أدخل النورمان أعدادًا كبيرة من القلاع والتحصينات وفي الوقت نفسه الأديرة والكنائس والكاتدرائيات، بأسلوب يتسم بالأقواس المدورة المعتادة.

جلست على طاولة غرفة الطعام في ذلك اليوم وشعرت بالحرارة تسقط على وجهي. تتبعت مصدرها بتحريك وجهي ويدي، وأخيراً حددت المصباح الكهربائي الذي كان يتدلى من السقف فوقي. لا أستطيع أن أتذكر أنني مررت بهذه التجربة من قبل. منذ ذلك الحين وأنا متبته لمثل هذه الظاهرة، وجدت أنه يمكنني في كثير من الأحيان معرفة ما إذا كان الضوء في الغرفة مضاءً أم لا من خلال الوقوف تحته ووجهي مرفوع. أصبحت أكثر حساسيةً لأشعة الشمس المتساقطة على وجهي. في الواقع يبدو أن بشرتي بأكملها أصبحت أكثر حساسية لتغيرات الضغط، ودرجة الحرارة، والرياح، والشمس.

في ذلك اليوم حضرت اجتماعًا مع حوالي عشرين زميلًا. بدت المتحدثه وكأنها شخص طيب القلب بشكل مميز، حساسة للغاية لاحتياجات الشخص الكفيف. ذكرتني في حديثها من خلال توضيح بعض الأشياء. بينما كانت تتحدث عن شيء ما، كانت تقول: «الآن لن تعرف هذا يا جون، لكنه كذا وكذا»، أو «جون، قد ترغب في معرفة أن هذا اللون كذا...»، أو «من أجل

التوضيح، جون، أنا أمسك بكذا...»، أو «إنه يحزنني كثيرًا أن أقول إنه لا يمكنك رؤية هذا العلم الجميل، جون، لكنه كذا وكذا». كنت أوميء برأسي بأدبٍ جم إلى كل هذا، محاولاً أن أبدو ذكيًا ومقدّرًا.

لا شك أن الأشخاص الذين يقدرُونَنِي يأسفون أنهم لا يستطيعون إشراكي في الأشياء التي يحبونها. ومع ذلك، يجب مواجهة الحقائق؛ نظرًا لأنني لست قابلاً أو قادرًا على مشاركتهم، يبدو أنه من غير المجدي لفت الانتباه إليّ بهذه الطريقة، بالثناء والحديث عن الحزن. كل هذا له تأثير يشعرني بأنني غريب. مثلما أنا مهتم بما يُقال، يأتي تذكير يطعنني في الجنب، مرارًا وتكرارًا: أنت خارج هذا؛ أنت لست واحدًا منا. هل من الممكن أن يكون هذا مقصودًا؟ هل من الممكن أن يكون هذا دفاعًا لشخص مبصر، واختبارًا لقوته البصريّة مقابل قوتي؟ ذلك درسٌ عن كيفية النجاح في تثبيط عزيمة الأعمى؟

٢٢ ديسمبر

هل كان للعمى مقصد؟ هل كان من المفترض أن أصاب بالعمى؟ كثيرًا ما يسألني الناس أسئلة مثل هذه.

حصلَ العمى الذي أعانيه كنتيجة لآلاف الحوادث العرضية

الصغيرة. لم يكن «مسارًا»، ولم أكن أسير نحو العمى بطريقة مُخطّطة. إذا نظرنا إلى الوراء، أستطيع أن أرى سلسلة الأحداث، ويبدو أنها تشبه إلى حدّ ما المسار، ولكن أي شيء لا يتبع مسارًا يمكن رسم مسارات له بمجرد عبوره. عندما تنظر إلى الأمام، لا يوجد طريق وإنما عدد لا حصر له من الاحتمالات.

تعني كلمة: «العناية الإلهية» «التطلع إلى الأمام»، وتشير تقليديًا إلى فكرة أن الله يقودك على طول الطريق. أعتقد أننا يجب أن ننظر إلى هذا المبدأ كدليل يُستنبط من الماضي، يجب أن ننظر إلى الوراء؛ لأنه فقط عندما ننظر إلى الوراء، يصبح للحدث العَرَضِي معنى. يتبلور المعنى بعد الحدث. هذا هو السبب في أن السؤال: «لماذا حدث هذا؟» هو بالأحرى سؤال مضلل. لقد حدث ذلك لأنني ولدت في القرن العشرين، وليس في القرن التاسع عشر. إذا كنت قد ولدت قبل مئة عام، فلا شك أنني كنت سأفقد بصري في سن مبكرة؛ ولو كنت قد ولدت بعد قرن من الآن، فلا شك من أنني سأتمكّن من علاج بصري. بعبارة أخرى، يمكنني أن أضع ألف احتمال آخر يمكن أن يبرّر ويوضح كيف وقع ذلك الحدث في حياة هذا الفرد. ولكن إذا كان المرء يسأل عن: «لماذا؟» عن السبب العام، كما لو أن العمى نفسه كان قدرِي وأنا لا أوّمن بذلك.

كل حَدَثٍ من الأحداث سبق الحدث الكبير هو حدث
عرضي، ولم يكن للتسلسل بأكمله ليحدث لولا اجتماع كل
هذه الأحداث العرضية، بشكلٍ أو بآخر.

الإيمانُ عملٌ إبداعي. من خلال الإيمان نحول الأحداث
العرضية في حياتنا إلى إشاراتٍ لمصيرنا. السعادةُ حَدَثٌ
عرضي، ولكن المعنى يتضح عندما نعيدُ تصوّر الصدفة وتولدُ
الصور الجديدة.

ومع ذلك، هذا ليس إنجازًا، أو على الأقل لم يحصل
كنتيجةٍ لمجهود. للصور طاقة خاصة، وتصبح الحياة ذات
مغزى حين تجتمع هذه الصور، وتصنع المحتوى العرضي
للحياة. السعادة ليست أهم شيءٍ في الحياة، بل المعنى. السعادة
هي نتيجةٌ لسلسلةٍ من الأحداث التي تبعث على غبطتنا. العمى
لا يسعدني. لم أختره، ولم ينزله أحدٌ على عاتقي. ومع ذلك
كحدثٍ عرضي يمكن أن يصبح ذا مغزى.

الهدية

شتاء ١٩٨٥ / ربيع ١٩٨٦

٢٨ ديسمبر

ليلة الجمعة الماضية، بينما كنت أضعه في الفراش، شرع
توماس في مناقشة طويلة ومفضلة حول العمى الذي أعانيه.
كانت فكرته الافتتاحية: «هل ستكون أعمى دائماً؟».

«نعم دائماً».

«متى حدث ذلك؟ هل كان ذلك عندما كنتُ طفلاً صغيراً
أو رضيعاً؟».

«لا. كان ذلك قبل ولادتك، قبل ولادتك مباشرة».

«كيف حصل ذلك؟ هل كانت لديك عينٌ جيدة يمكنك
الرؤية بها وعينٌ سيئة لا يمكنك الرؤية بها، ثم ساءت عينك
الجيدة؟ أم كانت كلتا عينيك سليمتين أم ماذا؟».

«كان لديّ عين جيدة يمكنني الرؤية بها، ولكنها ساءت تدريجيًا».

«ألم يستطع الأطباء إيقاف ذلك؟».

«حاول الأطباء ذلك».

«ماذا كانت المشكلة فيها؟ لماذا ساءت؟».

ثم شرحت له عن انفصال الشبكية. أخبرته عن شبكية العين وما هي وكيف تعمل. وصفت كيف يمكن أن تنفصل الشبكية عن مؤخرة العين أو حتى تتمزق وما أثر ذلك.

«لماذا تتمزق؟ ما الذي يجعلها تنفصل من مكانها؟ ألا يمكنهم إعادتها مرةً أخرى؟».

وصفت له العديد من العمليات التي أجريتها، وأخبرته ببعض التقنيات المستخدمة في محاولة استبدال أجزاء من الشبكية ومنع المزيد من الانفصال. وصفت كيف ساءت الأمور تدريجيًا، وكيف ظهرت مضاعفات أخرى.

«ألا يمكنهم فعل المزيد في النهاية؟ ماذا قالوا؟».

قلت له: «حسنًا، لقد قالوا، نحن آسفون جدًا يا سيد هال، نأسف أنه لا يوجد الكثير مما يمكننا القيام به الآن».

قال: «كان ذلك حظًا سيئًا».

وافقته، ثم قال: «لماذا لم يساعدك الله؟».

«الله يساعدني بعدة طرق».

«كيف؟».

«حسنًا، إنه يمدّني بالقوة والشجاعة».

«لكنه لم يساعدك في استعادة عينيك».

«لا، لكنه يساعدني في الكثير من الأشياء الأخرى، وقد ساعدني في الكثير من الأشياء».

في هذه المرحلة شعرت أن لديه ما يكفي ليفكر فيه، وأنا كذلك؛ ذهبت لتناول العشاء، وذهب للنوم. يجب وضع هذه المناقشة في سياق مفهوم توماس اللاهوتي الحالي، لاهوت القوة السماوية، بناءً على ما يمكن أن يفعله الأبطال الخارقون مثل: هي مان، وسوبرمان. يُنظر إلى الله على أنه هي مان وسوبرمان، مدمجان في كيانٍ واحدٍ، ولكنه أقوى من كليهما. كان فيلم سوبرمان قد عُرض على التلفزيون في اليوم السابق فقط، وشاهده الأطفال باهتمام كبير. سوبرمان هو المنقذ والمخلص والمحزّر الذي يظهر قوة مذهلة وقدرة على تدبير

الأمور نيابة عن أصدقائه وزملائه في الوطن. على النقيض من ذلك، تبدو نتيجة وجود الله حليفًا للمرء مخيبةً للآمال.

ومع ذلك، فقد أعجبت بطبيعة استجوابه واهتمامه بتفاصيل الجراحة وطب العيون. لقد أدهشني تعليقه البالغ الغريب بأنه كان حظًا سيئًا.

٢٩ ديسمبر

أعتبر أيام عيد الميلاد صعبة؛ لأنها وقت الأشياء المحبوبة والهدايا. ليس من السهل على الأعمى أن يشارك في كشف وفتح أغلفة الهدايا. كما يستغرق الأعمى وقتًا أطول لتعلم حب مثل هذه الهدايا.

ما هي الأشياء المحبوبة في حياتي؟ كنت أحب الكتب. أحب التعامل مع مختاراتي الصغيرة من كتب القرن الثامن عشر، أحب ملاحظة الحروف العتيقة، وإلقاء نظرة خاطفة على النقوش الخشبية أو الصور المحفورة، والتأمل في الكتابة اليدوية القديمة التي غالبًا ما توجد داخل الأغلفة. عندما أحصل على كتاب جديد هذه الأيام، فأنا بالتأكيد أحب أن أشعر به. أحب أن أحصل على قدرٍ معينٍ من المعلومات من أي كتاب، وسأكون على الأرجح قادرًا على تحديد ذلك الكتاب بعينه في

المرّة القادمة التي ألمسه فيها على أرفقي. أستمتع دائماً برائحة أي كتاب جديد وبتصفّحه. لا أعتقد، بأيّ حالٍ من الأحوال، أنني أستطيع أن أقول بصدقٍ أن الكتاب أصبح شيئاً محبوباً.

هل انتقل حبّ الكتب إلى حبّ الأشرطة؟ بالكاد! لا أحد يحب الكاسيت كما يحب الناس الكتب. يفتقر الكاسيت إلى التفرد والمباشرة. للكاسيت شخصية محدودة أو معدومة حتى تضعه على جهاز التسجيل. ثم يتحدث إليك، لكن أي كتاب جديد يتحدث إليك بمجرد أن تلتقطه. حبّ الكتاب لا يتطلب وساطةً من آلة.

كنت أحب أغلفة تسجيلات الكراموفون^(١). اعتدت أن أعجب بالعمل الفني على الغلاف، بالطريقة التي يقترح بها جو الموسيقى بذكاء من خلال الرسم التوضيحي. اليوم، الغلاف هو مجرد غطاء، مجرد حماية للقرص وشيء يمكن وضع بطاقة برايل عليه. بصرف النظر عن هذا، لا يمكن تمييز أغلفة التسجيلات بعضها عن بعض.

وماذا عن البشر؟ حتى البشر يصعب التمييز بينهم؟ ألم أتساءل ما إذا كانت ليزي على ركبتي؟ ألم أفشل في التعرف

(١) gramophone الكراموفون أو الحاكي.

على مارلين عندما نادى في الشارع قبل أيام؟ كيف يُمكن اعتبار الشخص شيئًا محبوبًا في حياتي؟ ولعل هذا من أسباب الملل عند الأعمى أو على الأقل عند هذا الشخص الأعمى. هل عليّ أن أتخذ خطوات أكثر عملية لملء حياتي بأشياء يمكن أن أحبها، أشياء يكمن حبُّها في الشعور بها؟

من نواحٍ عديدة، يعيش الأعمى في عالم مُجرّد من الأشياء بشكلٍ غريب. يحصلُ الشخص المبصر الذي يسير في وسط المدينة على انطباعاتٍ عن مئات الأشياء، منسقةً في نوافذ المتاجر وأرففها لتثير فضوله. بينما يسير الشخص الأعمى في ذات الطريق بتصورٍ محدودٍ أو منعدمٍ لأيّ من هذه الأشياء الجذابة. ليس هناك أشياء كثيرة تأخذُه من داخله إلى خضمّ الحياة.

٣ مارس

استيقظت هذا الصباح وأنا أشعر بالانتعاش لأنني قضيت ليلةً مفعمة بالأحلام. كنت داخل سلسلة طويلة من المغامرات المثيرة، وكلها بألوان زاهية باهرة. استيقظت وأنا أشعر بنوعٍ من الصفاء والتجديد. لقد تجدد ذهني تمامًا، كما لو أنني كنت في عطلة، كنت في أماكن مفتوحة، أشعرتني بحريّة العيش في عالمٍ بصري.

كان الحلم الذي لا يُنسى على شكل مسلسل. كانت إحدى تلك التجارب غير العادية حيث يستيقظ المرء عدّة مرات، وكل مرّة يستمرّ الحلم وكأنّه سلسلة من الحلقات. كنا في البحر، والجزء الرئيسي الوحيد الذي أتذكره بوضوح، يظهر طاقمنا وهو يُبحر في سفينة عبر محيطٍ هائج. كنا داخل المنصة الزجاجية، والأمواج العاتية تتكسر على السقف الزجاجي، لتسقط المياه فيما يشبه الكؤّة. كنا خائفين من أن تغرق السفينة إذا انكسرت هذه النافذة العلوية. كانت كمية الماء هائلة بما يكفي لجعل المكان يهتز ويرتجف. كنا نمدّ أذرعنا لتثبيت الهيكل ومنع انهياره بقوة الماء. لم يسقط السقف ووصلنا بنجاح عبر العاصفة إلى الميناء. استيقظت بشعورٍ مبهجٍ من الانتعاش، سعيدًا بخوض كل هذه التجارب الرائعة.

يعيش المبصرون في العالم. بينما الأعمى يعيش في وعيه. ولا مفر من هذا الوعي، أو ربّما ثمة فرار مسموح به فقط في الأحلام. ذلك هو الفرار السعيد.

٢١ مارس

صباح البارحة كنت جاثيًا على الأرض لمساعدة ليزي في ارتداء ملابسها. عندما انتهت، أوقفتها أمامي وقلت: «الآن!

دعونا نلقي نظرة عليك». أمسكت بوجهها برفق بين يدي بينما كانت تقف هناك، وابتسمت لها ابتسامة كبيرة.

بقينا هكذا للحظة ثم قالت: «أبي، كيف يمكنك أن تبتسم بيني وبينك عندما أبتسم وعندما تبتسم أنت لأنك أعمى؟».

ضحكت وقلت: «ماذا تقصدين يا عزيزتي؟ كيف يمكنني ماذا؟».

بتردد شديد، تعثرت في كل كلمة، ثم قالت «كيف يمكنك أن تبتسم - لا - كيف يمكنني أن أبتسم بيني وبينك - لا - بيني وبينك، ابتسامة؛ لأنك أعمى؟».

«تقصدين كيف لي أن أعرف متى أبتسم لك؟».

قالت: «نعم، وأنت أعمى».

قلت: «هذا صحيح يا عزيزتي، المكفوفون غالبًا لا يعرفون متى يتسمون للناس، وغالبًا لا أعرف متى أبتسم لك، أليس كذلك؟».

وافقتني.

«لكنني علمت اليوم أنك كنت تبتسمين، عزيزتي؛ لأنك كنت تقفين هناك، وكنت أبتسم إليك، وأعتقد أنك ربما كنت تبتسمين في وجهي. أليس كذلك؟».

أجابت مسرورة «بلى!».

إذن، هذه الطفلة الصغيرة، بعد أن احتفلت للتو بعيد ميلادها الرابع، قادرة على التعبير عن الانكسار الذي يسببه العمى في لغة الابتسامات. لاحظتُ التمييز الدقيق الذي ذكرته ضمناً بين الابتسام لشخص ما والابتسام بين مجموعة من الناس. لا أستطيع أن أصف مشاعري بعد أن فكّرت ملياً في حقيقة أنها قامت بتجارب كثيرة للابتسام في وجهي، لكن الابتسامة المتبادلة بيني وبينها لم تكن نادرة فحسب، بل كانت لغزاً. لقد تحمّلت خسارةً فادحةً وحصلت على مكسبٍ رائع في نفس الوقت.

٢٠ أبريل

كان توماس وليزي جالسين على ركبتي. كنت أخبرهما قصة. بدأ توماس يذق عيني اليمنى بإصبعه. سأل: «إذا فعلت هكذا، هل سيعود بصرك؟».

قلت: «لا، لا شيء سيجعل بصري يعود».

قال: «أبدًا؟ حتى عندما تموت، هل سيعود؟ هل سيجعله الله يعود إليك بعد ذلك؟».

«حسنًا، أتوقع أنه، بطريقة ما، سأكون عندها مع الله،
وسأعرف كل شيء، أليس كذلك؟».

ثم انضمت ليزي وهي تهتف: «إنه ليس لطيفًا جدًا، أليس
كذلك؟». كرّرت الجملة مرةً أخرى بإصرار: «إنه ليس لطيفًا
جدًا، أليس كذلك؟».

سألتها: «ماذا؟».

«كونك أعمى». صرخت: «دائمًا!».

قلت إن الأمر لم يكن لطيفًا للغاية، لكن هناك أشياء أسوأ.
أصرّت بانفعال: «لكنه ليس لطيفًا جدًا!!».

كرّرت مرةً أخرى فكرة أن هناك أشياء أسوأ، لكن يبدو أنها
لم تسمعي.

بانفعالٍ قالت: «إنها مثل النزول إلى الأسفل والأسفل إلى
أسفل إلى أسفل عميقًا جدًا جدًا جدًا جدًا حيث لا يمكنك
الخروج أبدًا، كما في القلعة».

كانت تشير إلى رحلة قمنابها إلى أنقاض قلعة لودلو^(١)

(١) قلعة لودلو Ludlow Castle تقع في ويلز في المملكة المتحدة. بُنيت
القلعة في القرون الوسطى وتقع في بلدة لودلو في مقاطعة شروبشاير.

حيث أدهشها عمق البئر المظلمة. كنّا قد أسقطنا الحجارة في البئر وأنصتنا إليها تسقط. انسحبت ليزي بعيدًا عن الحافة، وقالت وهي ترتعد: «لا أحب تلك القلعة. لا أحب ذلك المكان. لا أحب تلك الأقبية، والتي تنزل إلى الأسفل والأسفل. لا أريد أبدًا العودة إلى قلعة كهذه مرّة أخرى».

أعتقد أنها الآن قد نسيّت البئر التي جعلتها تذكر القلعة، لكنني تأثرت كثيرًا بنظرتها الثاقبة في العمى، وإدراكها الغريزي لفضاعة تراجع الضوء، وتجربة السقوط إلى الأسفل أكثر فأكثر. أعجبت من نفورها ورفضها لوجود خسارة لا يمكن تعويضها، والإحساس بأنك محاصر هناك وإلى الأبد.

٢١ أبريل

في الأسابيع الفائتة، خطر في ذهني فكرة أن العمى يمكن أن يكون هدية. لا أستطيع أن أتذكر تمامًا من أين خطرت لي هذه الفكرة. ربّما كان ذلك من خلال الاستماع إلى برنامج عن التأمل حيث كان التعبير المستخدم هو: «هدية الصمت».

أقاوم هذه الفكرة؛ لأنه إذا كان العمى هدية، فعليّ أن أقبلها. لقد قلت لنفسني إنني سأتعلم العيش مع العمى، لكنني لن أقبل ذلك أبدًا.

ومع ذلك، أجد الفكرة تعود إلي باستمرار، وتثير فضولي.
هل يمكن أن يكون هناك طريقة ما يكون فيها العمى هدية مظلمة
ومتناقضة؟ هل يمكن أن يقدم العمى أسلوب حياة أو نوع من
التطهير أو حُسن التدبير؟ هل هو حقًا نوع من التطهير المؤلم
المشابه للموت؟ هل أتوقع أنني سأدخل مرحلة جديدة أكثر
تركيزًا من الحياة بسبب هذه الهبة؟

قام الفيلسوف فيليز بريتانو^(١) بالكثير من أعماله الإبداعية
بعد أن فقد بصره، وأرجع ذلك إلى إصابته بالعمى. هل عليّ أن
أعتبر أنني لست شخصًا معاقًا بعيب، ولكنني ممكنٌ بمقدرة
وطاقة؟

إذا كان العمى هدية، فهو ليس هديةً أتمنى أن يحصل عليها
أي أحد، وليست هدية أريد أن أحصل عليها. إنها شيء أودّ أن
أعيده، وأجد أنه لا يمكنني قبوله. الهدية التي ليس لك الخيار
في تلقيها من عدمه، هي نوعٌ غريب من الهدايا. أظن أنني لا
أدين بأي امتنان لشيء يُوهب إلي ولا يسعني إلا قبوله.

٣ مايو

في ليلة السبت، شاهدت أنا ومايكل عرضًا للمسرحية

(1) Feliz Brentano

الموسيقية كيروسيل لروجرز وهامرشتاين^(١)، قدمه التلاميذ في مدرسة ثانوية كاثوليكية مستقلة في إدمونتون، ألبرتا. خلال الفاصل الزمني، قرأ مايكل لي ملصقًا تم عرضه على إحدى لوحات الإعلانات، يقول: «ربما الشيء الذي يجب أن نتعلمه من المسيحية هو: أنه في مقابل هذه الهدية ليس لدينا ما نقدّمه».

وجدت هذه الفكرة غريبة. الشعار موجّه إلى الأشخاص الذين يعتقدون أنه يتعيّن عليهم سداد شيءٍ مقابل تلقي الهدية. كان القصد إخبارهم أن هذا لن يكون ضروريًا. فقط لأنها هدية؛ لا ينبغي أن يكون هناك شكّ أو سؤال أو سداد.

في حالتي، كان التأثير عكس ذلك. لم يخطر ببالي أبدًا أنني بقبول الهدية، يجب عليّ أن أردّها بشيءٍ ما. كنت أعتبر أنه من المسلّم به عدم توقّع الحصول على هديةٍ في المقابل. جعلني الملصق أتساءل ما إذا كان هذا الافتراض مُبرّرًا. بالطبع، لا تتطلب الهدية دفع قيمة مقابلها، لكن استلام الهدية يضع المرء في علاقةٍ مع مانحها، ما يجعل تبادل الهدايا مهذبًا وملائمًا.

ولكن ما هي الهدية التي يمكن أن تكون مناسبة لردّ هدية

(1) Carousel by Rodgers and Hammerstein

العمى؟ ماذا يمكنني أن أعطي، ماذا أريد أن أعطي، والذي يمكن أن يضاهي الظلمة المضجرة والطبيعة المدمرة للعمى؟ باعتبار أن الهدية هي العمى، ربما لا أكون دقيقًا تمامًا. العمى هو التغليفة أو الوسيط. الهدية تكمن في العمق، على الجانب الآخر من العمى.

١٠ مايو

إذا كان العمى هدية، فالموت هدية. ماذا يمكن أن نعطي في مقابل موتنا؟ أيًا يكن ذلك الذي نستطيع أن نعطيه في انتظار تلك الهدية النهائية؛ والتي لن تُبقي لنا شيئًا لنعطيه.

ولكن إذا كان العمى هدية والموت هدية فماذا نخاف؟ إذا كانت الحياة هي الموت، فإن الموت هو الحياة. إذا كان الظلام هو النور، فإن النور هو الظلام. الحياة الواعية واللاواعية شيء واحد. ليس لدينا شيء، ومع ذلك لدينا كل شيء.

أمسِكْ بطَرْفِ الخيطِ

صيف ١٩٨٦

١٤ مايو

أثناء الإفطار صباح أمس سألت ليزي فجأة: «لديك عينان، فلماذا لا تستطيع أن ترى؟».

«عيناى لا تعملان».

«عليك إذن أن تصلي إلى الله».

أجبتها بتردد: «حسنًا، قد يكون لدى الله أفكاره الخاصة حول كل هذا. إنه ليس هناك لرعايتنا فقط، كما تعلمين. الله لديه مشاكله الخاصة».

ردّد توماس: «نعم»، ثم أضاف «الله لديه مشاكله الخاصة».

أضفت: «نحن هنا لمساعدته، إنه ليس موجودًا لمساعدتنا فقط».

في السرير هذا الصباح احتضنتني بحنان وهمست بهدوء:
«هل يمكنك أن ترى قليلاً فقط؟».

قلت: «لا، ولا حتى قليلاً».

قالت: «أوه».

١٧ يونيو

أدرك الآن أنه ليس عليك أن تكون مُبَصِّرًا لتعليم الطفل القراءة، على الرغم من أن هذه المشكلة سيّبت لي الكثير من الضيق والإرهاق في السنوات الأولى من العمى، عندما كان توماس صغيرًا.

منذ حوالي أسبوع، أصبحت آخذ ليزي معي إلى غرفة دراستي قبل الإفطار. لديها عدة مجموعات من البطاقات التعليمية التي تتعلّم عليها، وعدد من الكتب التي ستمكّن من قراءتها؛ عندما تتمكن من التعرف على جميع البطاقات. تجلس دائمًا في حضني، بينما أمزّر لها كل بطاقة، واحدة تلو الأخرى. إذا تمكنت أن تخبرني ما هي البطاقة، أضعها على الطاولة. إن لم تكن متأكدة، أطلب منها أن تهجأها لي. غالبًا ما يمكنها القيام بذلك، ويمكنها على الأقل إخباري بعدد الأحرف التي

تحتوي عليها الكلمة. عادةً ما يمكنها أن تخبرني بما يكفي وأن أعرف على الكلمة. إذا كان هناك أي شك، أو إذا تعثرنا، أحضِرُ مجموعةً من الأحرف الأبجدية المنحوتة على الخشب وأمررها بيننا حتى تتعرّف على الحرف الأول للكلمة، ثم الذي يليه وهكذا. من الأسهل بالنسبة لها أن تطلب من أحد أفراد الأسرة الأكبر سنًا المساعدة في التعرف على الكلمة، وكثيرًا ما تفعل ذلك. نرتّب الكلمات في أنماطٍ مختلفةٍ لتشكيل جُمْلٍ سخيّة. تحب ليزي ذلك، ونضحك كثيرًا كلّ مرة. أطلب منها أن تأخذ إصبعي وتشير إلى كل كلمةٍ موضوعة على الطاولة، ثم تقرأها لي مرةً أخرى بينما أستبدلها في الصندوق. كلّ يوم، تَقِلّ وتنقص الكلمات التي وجدت صعوبةً في استخدامها، والتي جمعتها في كومةٍ خاصّة. مع مرور الأيام، أصبحت عدد المرات التي نطلب فيها مساعدةً من شخص آخر أقل. أخيرًا، نُخرج كتابًا، وبحماسٍ كبيرٍ نبدأ في قراءته. أحد الأشياء الجيدة في هذه الطريقة، هو أن الطفل يقوم وحده بعملية التعرف والتفكير. كما يجب عليها أن تساعدني، وبذلك تَقِلّ أهميتي ودوري كشخص بالغٍ مطلعٍ إلى الحدّ الأدنى. بالإضافة إلى أنني أصبحت الرفيق والمشجّع، الشخص الذي يلعب معها.

حلمتُ حلمين منفصلين. تضمّن كل واحدٍ منهما استعادةً للبصر، ووجودًا لإحدى بناتي.

حلمت أنني كنت في مكتبي. كانت إيموجين تساعدني، وتكتب على طاولة بعيدة. بدأ الأمر بحقيقة أنني كنت أرى الضوء. زاد الضوء، وتحول إلى نوعٍ من الضباب المتوهج، الذي استحال إلى تفاصيل مغتشية، ثم إلى تفاصيل أكثر وضوحًا. ظهرت الألوان تدريجيًا، واستطعت أن أبصر. كان بإمكانني رؤية وجه إيموجين، على الجانب الآخر من المكتب الكبير، حيث كانت تعمل على الآلة الكاتبة. كنت مذهولًا وجلست هناك لبعض الوقت دون أن أنبس بينت شفة أو أتحرّك. نهضت بعد ذلك وأخبرتها بما حدث. لم تتفاجأ، لكنها واصلت العمل، قائلةً كم هو لطيف أن تستعيد بصرك. ذهبت إلى غرفة مجاورة، وفتحت بعض خزائن الملفات، وأخرجت بعض المجلات، وألقيت نظرة على الصور للتأكد من أنني أستطيع رؤيتها حقًا. كان الأمر رائعًا، حقيقة أنني أستطيع أن أرى. وهكذا انتهى الحلم.

تبعه الحلم الثاني على الفور. كنت ألعب مع ليزي وهي

على ركبتي. فجأة وفي دھول، أدركت أنني المبح حدود رأسها، ثم تفاصيل وجهها، ثم رأيته بشكل واضح وكامل. أول ما لاحظته كان عينيها. كانت بنية وكبيرة. لم تكن تنظر إلي، لكنها كانت ترشق النظر بعينيها هنا وهناك. لاحظت مندهشاً الحركات الصغيرة التي تقوم بها العينان باستمرار. بدا لي أمر لا يصدق. ثم لاحظت أن هذا كان يحدث فقط في إحدى عينيها. كانت العين الأخرى ثابتة. في تلك اللحظة، لفت انتباهها. حدثت في عيناها السليمة والتي كانت تتسع بانبهار؛ لأنها أدركت أنني كنت أنظر إليها. حضناً وتشبثاً ببعض. ثم قلت لها: «ماذا حدث لعينك الأخرى، ليزي؟».

أجابت: «لا أستطيع أن أرى بتلك العين، يا أبي».

«لم أكن أعرف. متى حدث ذلك؟ لم اسمع بذلك من قبل. لماذا لم تخبريني؟».

قالت: «أمي عرفت. أمي تعرف. ستخبرك أمي».

ذهبت إلى مارلين، سألتها: «ماذا حدث لعين ليزي الأخرى؟».

قالت: «أوه، لقد حدث هذا منذ وقت طويل».

في الحلم، تغلب عليّ شعور القلق الشديد لمجرد ملاحظة
عين ليزي الأخرى. لذلك استيقظت.

استيقظت ببطء شديد، وأنا أحاول استيعاب أنه كان حلمًا،
ثم تذكرت أيضًا، أنني حلمت قبله حلمًا كانت فيه إيموجين.

٤ يوليو

في مؤتمر عُقد مؤخرًا كنت أنتظر في البهو لاستقبال
المتحدث الزائر البارز وزوجته. سمعت خشخشة حصي
الطريق بمجرد وصول السيارات المرافقة، همس لي أحدهم أن
السيارة الرسمية كانت تتبعهم. اصطف اثنان أو ثلاثة منا لتشكيل
احتفاء ترحيبي، وبعد لحظة كان ضيفنا يصافحني. تابع
المضيف: «وهذه هي السيدة...». مددت يدي مرة أخرى،
وهذه المرة وعند رفع يدي، لمست شيئًا مشوكًا نوعًا ما. ضحك
الجميع، وشعرت بالإحراج حين أخبرت أنني لمست ذقن
زائرننا وهو ينحني. كان ينحني لمساعدة زوجته. بدت أقصر منه
بكثير. ارتبكت، حاولت مرة أخرى. «لا»، قالت بصوت دافئ
وودود: «أنا هنا!»؛ صحت مستوى ذراعي إلى المتصف
تقريبًا، كانت تجلس على كرسي متحرك. لم يكن الوداع أفضل
بكثير. ارتبكت قليلاً حول مكان وجود ضيفنا. معتقدًا بأنني

كنت أصافحه بيدي، شكرته على قدومه، فقط لأجد أنني في الحقيقة أودع أحد زملائي المقربين، الذي أمسك بيدي ناحية إلى زائرنا. افترقنا كما التقينا، بانبساطٍ وسوء فهم متبادل.

٢٦ يوليو

حلمت الليلة الماضية أنني كنت أتحدث في مؤتمر كبير، في قاعة المدينة. لفترة من الوقت، كنت على المسرح. كان هناك عددٌ من زملائي. كانت تفاصيل القاعة واضحة. تم تجهيز الممرات الواسعة بطاولات لمجموعات المناقشة. قضيت بعض الوقت جالسًا على كراسي المسرح، وبعضه الآخر على المنصة. كان عليّ أن أكون حريصًا جدًا في الصعود والنزول على الدرج، وفي تحديد موقع الكرسي. تلقيت مساعدة الزملاء عند انتقالي من نقطة إلى أخرى في القاعة، لا يبدو أنني كنت أحمل عصاي.

عند النظر إلى الممرات التي أجد فيها نفسي بصفتي أعمى مؤخرًا في الأحلام، من الضروري التمييز بين الصورة البصرية في الحلم، وكيف يرسمني الحلم. الحلم هو الذي يراني، وما يراه الحلم (بدرجات متفاوتة من الغموض) هو أنني أعمى.

حقيقة أن الحلم يراني (أعمى)، وأن كل شيء في الحلم

يراه الحالم، وذلك لا يعني عدم الاعتراف بأنني الذي يظهر كجزء من محتوى الحلم، أعمى. لست أنا من يرى القاعة، بل الحالم. أرى أنني أجد صعوبة في الصعود والتزول على الدرج. لا أرى الخطوات لكن الحلم يراها ويرى أنني لا أراها. الحالم النائم، المبصر، يرى بأن الشخص المستيقظ والذي يحلم به كان أعمى. هذا لا يعني أن عقلي الباطن لا يعترف بعماي؛ لأن المرء يحلم دائماً بما يعرفه، أو ما يشعر به، أو يتصوره. تختلف وجهة نظر الحلم عن وجهة نظر الشخص الواعي؛ لأن الحلم يعبر عن معرفته بانطباعات رمزية، وشبيهة بالصور، ومقتطفات من الذكريات. عندما أقف على المنصة في الحياة الواقعية، أعلم أن هناك صفوفًا من الكراسي بها ممرات وأشخاص. هذه المعرفة مجردة؛ بمعنى أن هذه الأفكار موجودة في شكل جُمَل. لا أتخيل ذلك بشكل خاص، إلا إذا أشار أحدهم أن هناك، على سبيل المثال، ستائر حمراء كبيرة معلقة على جانبي المسرح، وفي هذه الحالة تتسللُ بشكلٍ خاطفٍ الصورة بشكل لا يُقاوم إلى العقل الواعي. ومع ذلك، فإن تسلسل الجُمَل في الحلم، والمدّ السريع للأفكار المُعبّر عنها في اللغة، والذي يملأ وقت اليقظة إلى حدٍّ ما، يُثبت كسلسلة من الصور، والأحداث، والمشاعر التي يتم فيها تجربة ما هو معروف بشكلٍ مباشر،

وليس من خلال تجريدات اللغة. ربما تشاهد مقطع فيديو يُظهر
مؤتمراً للمكفوفين، لكن هل يمكنك أن تعرف، من خلال النظر
إلى الفيلم وحده، ما إذا كان المُصوّر أيضاً أعمى؟

لا أرى كيف يمكن للحالم أن يَكْفَ عن الرؤية ويكتفي
بمجرد المعرفة. ربما يكون من المهم أنني لا أتذكر أنني حلمت
بوجوه الناس لفترة طويلة.

في حلم المؤتمر بقاعة المدينة، كنت أشعر بالناس، بألوان
بدلاتهم وملابسهم. كان لدي انطباع عام عن وجودهم هناك،
بأجسادهم، بصرياً، ولكن بدون وجوههم، على الرغم من أنني
كنت أعرف من هم. كيف يعرف الحالم من هم هؤلاء الناس؟
لم يكن الحلم سمعياً بشكل خاص؛ لذلك لم يكن التعرف
عليهم عن طريق الصوت. يمتلك الحالم طرقاً للتعرف على
الأشخاص دون معرفة شكل وجوههم. هل سيأتي اليوم الذي
يكشف فيه الحالم طرقاً لمعرفة أن الناس متفردون في المكان،
هنا وهناك، دون تمثيلهم جسدياً، ككُتَلٍ ملونة وحاضرة؟

٢٧ يوليو

منذ أبريل، كنت أعيش بفكرة أن العمى يجب أن يُنظر إليه
على أنه هدية، بطريقة غريبة. منذ ذلك الحين، لاحظت العديد

من الأمثلة على هذه الفكرة في الأسطورة والفولكلور والدين.
حفل عمريت^(١) هو طقس القبول في خالصة^(٢) السيخ،
جماعة السيخ العاكفة. وعاء عمريت مليء بالمياه الحلوة.
يشرب المبتدئ بعضاً منه، ويرش بعضه على شعره ولحيته،
ومن ثم يدهن به وجهه. يشاهد الحفل خمسة من أعضاء
الخالصة، كل منهم مسلح بسيف احتفالي طويل. الحفل إحياء
لذكرى حادثة عام ١٦٩٩ عندما تأسست الخالصة، حيث عرّضَ
أول خمسة من التلاميذ المخلصين أنفسهم للتضحية على يد
جورو جوبيند سينغ^(٣)، ولم يتذوقوا حلاوة ماء عمريت إلا من
خلال تلك المحنة الرهيبة.

هذا المزيج من السيف والحلاوة في حفل واحد هو سِمَة
مميّزة لفكرة الهدية الرهيبة. تعبّر العديد من الأديان عن هذا،
ويطرق مختلفه. كما عثرت مؤخراً على كتاب لشيلدون
فانوكين^(٤) بعنوان: «رحمة شديدة»، وكان يعبر بشكل أو بآخر
عن ذات الشيمة.

(1) Amrit ceremony

(٢) خالصة Khalsa، وتعني النقاء.

(3) Guru Gobind Singh

(4) Sheldon Vanauken

في البداية، وجدت مباني دير إيونا^(١) مربةكة للغاية. أحبطتني متاهات (كما بدت لي) من الممرات والسلالم والأعمدة والشرفات لدرجة أنني بالكاد استجمعت إرادتي لمغادرة غرفة النوم. وجدت أنه من المستحيل فهم مخطط المكان؛ لأنه في كل مرة أُخرج فيها قَدَمًا من باب الغرفة، يمدُّ أناسٌ طيبون يدَ العون والمساعدة لدرجة أنها لم تُنح لي الفرصة لبذل أي مجهود.

بعد يومين أو ثلاثة أيام من ذلك، غيّرت تكتيكاتي، وخرجت في وقتٍ متأخر من الليل والجميع نيام، أو خلال وقت هادئ من اليوم عندما يكون الجميع قد خرجوا. ثم استكشفت بنفسني.

تعلمت الطرق المؤدية إلى قاعة الطعام والمكتبة. في كل مرة خرجت فيها، كنت أملأ بعض الأماكن الفارغة على الخريطة التي كنت أتصورها في ذهني. ذات ليلة اكتشفت بابًا خشبيًا

(١) دير إيونا Iona Abbey، هو دير يقع في جزيرة إيونا، قبالة جزيرة مل على الساحل الغربي لإسكتلندا، وهو أحد أقدم المراكز الدينية المسيحية في أوروبا الغربية.

كبيرًا جدًا. بفتحها، أدركت على الفور أنني كنت في مساحة شاسعة. من المبكر أن أكون قد خرجت، لكن برودة الهواء وحركته توحى بوجود مساحة هائلة أمامي. يجب أن لا أضيع. وصلت بعد ذلك إلى أعلى الدرج الحجري. في كل مرة أنزل فيها بضع خطوات، أعيد تصوّر طريق العودة إلى الباب في ذهني، وأناكد أنني أستطيع الخروج مرة أخرى. بدا السّلم وكأنه لا ينتهي، على الرغم من أنني أظن أنه لم يكن أكثر من عشرين أو ثلاثين درّجة. في الأسفل، كانت الأرضية حجرية وشاسعة. اكتفيت بما استكشفت في تلك الليلة.

كنت أعود كل ليلة لاستكشاف المزيد. من عمودٍ إلى آخر، كنت أحسب خطواتي، وأتذكر الزوايا، وأعود دائمًا إلى أسفل الدرج.

بعد عدّة ليالٍ، اكتشفت المذبح الرئيسي. كنت قد أخبرت به من قبل، وتعرفت عليه بسهولة من الوصف. كان كتلة واحدة من الرخام. وجدت زاوية واحدة، ومزّرت أصابعي على طول الحافة، لم أستطع الوصول إلى الزاوية الأخرى. مررت يدي على المقدمة واندعشت لحجمها. كانت هناك أحرف صلبة وبارزة منحوتة، لكنني لم أبذل أي جهد لقراءتها. أعلى المذبح

كان ناعماً كالحرير، لكن إلى أي مدى يمتد إلى الخلف؟ مددت ذراعي من فوق لكنني لم أستطع الوصول إلى الخلف. كان ذلك لا يصدق. لا بد وأن ينتهي في مكان ما. دفعت نفسي إلى الأعلى، ورجلي تندلي من الأمام، وتمكنت من الوصول إلى الخلف. فعلت ذلك مرارًا وتكرارًا، وقست المساحة بجسدي، حتى بدأت أخيرًا في تكوين فكرة عن أبعاده. كانت أكبر مني وأكبر بكثير. كانت هناك عدة أماكن على السطح المصقول تم تمييزها بمسافات بادئة طويلة غير منتظمة، وليست شقوق، بل عيوب من نوع ما. هل يمكن وأنه سقط؟ شعرت هذه العلامات وكأنها نتيجة لضربة ما. كان التباين بين الثلمات الخشنة وبقية المساحة الضخمة المصقولة غير عادي. لا بد وأن ذلك عمل الصنّاع، دقّوا هذا الشيء، وصقلوه إلى طبقة ملساء تقريبًا، ومغبرة قليلًا، والتي أصبحت زلقة عندما لعقتها. كانت هناك أيضًا بعض السحجات، شيء أكثر بدائية، يبدو أنها من الصخرة الأساسية.

حاشية

لقد حاولت أن أقول الحقيقة حول ما يجب أن يبقى تجربة رائعة لأي إنسان يعبر فيها. هل اقتربت من فهم العمى؟ لا يزال

هناك الكثير لا أعرفه، لكن القناعة تعمقت في داخلي بأن العمى عالم متناقض؛ لأنه مستقلّ وغير مستقلّ. إنه مستقل بمعنى أنه عالم أصيل ويدور في فلكه الخاص به. على نحو متزايد، لا أفكر في نفسي على أنني شخص أعمى، لكنني مفتقر إلى شيء ما، وأنظر إلى نفسي ببساطة بصفتي رائي بكامل الجسد. الشخص الأعمى هو ببساطة شخص تكمن الوظيفة المتخصصة للبصر على كامل جسده، ليس هناك عضو محدد يتخصص في ذلك. أن تكون رائيًا بكامل الجسد، أن تكون في إحدى الحالات البشرية الأشد تركيزًا. إنها حالة، مثل حالة الشباب والشيخوخة، أو الذكر والأنثى، إنها إحدى الأنظمة البشرية. من الصعب، بسبب الأنظمة القبلية البشرية وضيق الأفق، بالنسبة لنا التواصل عبر حدود الدول. النظام البشري الواحد يجد صعوبة في فهم الآخر. ترتب الأنظمة نفسها في تراتبية اعتمادًا على السلطة والمكانة، بعضها في القمة، والبعض الآخر في القاع، والبعض في الوسط، والبعض الآخر مستبعد. حاول هذا الكتاب أن يصف تجربة شخص عبر الحدود، لكنه يريد المحافظة على الشراكة.

كما أن العمى غير مستقلّ. في مكان ما على طول الخط، في نهاية الطريق، هناك شخص بعينين سلیمتين. شئنا أم أينا

الأعمى ضعيف. العمى عالمٌ صغير، أصيلٌ ومتكامل، ومع ذلك فهو محاطٌ بعالمٍ أكبر، عالم المبصرين ومحتجز داخله. كيف يفهم الصغير الكبير بدون الشعور بالغيرة، وكيف يفهم الكبير الصغير بدون شفقة؟

الخاتمة

مارلين هال، أكتوبر ٢٠١٦

كيف كانت الحياة مع رجل أعمى؟ كيف نعتقد أن الحياة كانت ستختلف لو لم يفقد جون بصره؟ أليس محظوظة نوعاً ما لأنه لم يرك تنقذين في العمر؟

لقد مرّ أكثر من عام على وفاة جون. في السوبر ماركت، مررت بجانب تويجلتس^(١) والريسكي المفضل لديه وشعرت بحرقّة تصعد في صدري، بعد أن أسقطتهم من قائمة التسوق الخاصة بي. دفعت جهاز الكمبيوتر والماسح الضوئي الخاص به إلى حافة المكتب الذي أستخدمه الآن لي. أحياناً ألتقط واحدة أو أكثر من الأشياء التي يحبها مبعثرة على حافة النوافذ أو على رفّ الموقد، وأتذكّر كيف كان يداعب أسطحها ويعانقها؛ الخشب المصقول، أو الزجاج المحفور، أو الحجر، أو الأحفورة. على الرفوف من حولي، كل شيء بطريقة برايل مرتّب بعناية، الأقراص المضغوطة والأسطوانات التي تغذي

(١) تويجلتس Twiglets نوع من الأكلات الخفيفة المصنوعة من القمح.

شغفه بالموسيقى، بجانب الصناديق السوداء التي تخزن مئات الساعات من تسجيلات الكاسيت لملاحظاته الصوتية عن الكتب المقروءة، والكتب المُراد كتابتها، والمحاضرات، والرسائل، والتأملات. بالإضافة إلى سجلٍ رقميٍّ هائل والذي حلَّ محل التقنية القديمة في السنوات الأخيرة. صوته في كل مكان، وبالكاد أتحمّله.

يصف السؤال الذي قرأته للتو نقطة تحوّل في حياتي تشبه وقوعي في الحب. هذا الكتاب ليس من السهل قراءته بالنسبة لي. لكنه رحلة لم أكن أتوقع تحولاتها وطرقاتها الغريبة. اجتمعنا أنا وجون في عام ١٩٧٥. في أغسطس ١٩٨٠، وُلد طفلنا الأول، توم، بعد أسبوعين بالضبط من العملية الأخيرة في عينه. عمل استشاريان على عينه في ذلك اليوم، لكن شبكية العين تضررت بشدّة من الجراحة السابقة، وكانت الندبات عميقة، لدرجة أنّهما قالّا: «لم يتبقَّ شيءٌ يمكن العمل عليه». في غضون أسابيع قليلة، انتقل جون من كونه أكاديميًا عاملاً، يصل بسهولة إلى الكتب، وملاحظات المحاضرات، وجميع الأشياء المعتادة، إلى كونه أعمى. بعد ذلك بعامين، اختفى تمامًا إحساسه بالضوء. وجد نفسه في وضعٍ غير معتاد، حتى بالنسبة للمكفوفين المسجلين، أصبح في ظلام تامٍّ ودائم.

ولدت إيموجين عام ١٩٧٣، وكانت طفلةً جون المبصر. كان توم طفلَ الصَّوَرِ المغبَّشة، ليزي وجبرائيل وجوش، ولدوا جميعًا بعد عام ١٩٨١، كانوا أطفال جون الأعمى. وسط الصدمة والإحباطات العديدة لفقدان بصره في تلك السنوات الأولى، لم يجلب له المآ شخصيًا أكثر من رغبته أن يصبح الأب الذي يريد. كانت السنوات الأولى لإيموجين مفعمةً وغنيَّةً بمشاعر الأب المثالي، وهذا ما جعله يشعر بالفرق؛ حيث جُرِّد من بعض تلك المشاعر عند قدوم توم وليزي. لم يستطع التحديق في طفلنا الجديد بدهشةٍ وابتهاج، لم يلاحظ آلاف التغيرات الصغيرة في السلوك والشخصية، ولم يستمتع بثقة لخطواتهم الأولى، مع العلم أنه كان يستطيع أن يتدخل على الفور لمنعهم من التعرُّض للأذى. أصبح المَرَحُ البسيط واللعب اليومي مع أطفالنا شيئًا يجب التفكير فيه والعمل عليه.

في الكتاب، يصف جون يوم عيد ميلاد، أفترض إما ٨٣ أو ٨٤، لم ينسَ أي مَنَّا على الإطلاق. وسط دوامة الأصدقاء، والأطفال الصغار المتحمسين، ووسط التشويش والفوضى والضوضاء، جلس جون في صمتٍ شبه تام. تعاظم شعور الغربة والألم الداخلي لدرجة جعلتني أحثّه على الذهاب إلى المكتب - كان الحرم الجامعي على بُعد عشر دقائق فقط سيرًا

على الأقدام - على الرغم من أنه سيكون مهجورًا تمامًا، وربما باردًا. لم أقل ذلك لأي شعورٍ بالضغينة. كان هناك الكثير من الناس حوله، يحاولون مساعدته لتعدي الموقف، لكن الأطفال كانوا مُتعبين بالفعل. كلانا يعرف أنه عليه أن يجد مكانًا آمنًا، حيث يمكنه التعامل مع ما يحيط به بشروطه الخاصة، عوضًا عن محاولة الدخول، بشكل غير ملائم، في حياة المبصرين. كانت هذه المرة الأولى من بين مراتٍ أخرى مشابهة. بعد ذلك بوقتٍ طويل، أدركت أنه بحِثِّي له على الابتعاد يصبح قادرًا على العودة، ويستعيد نفسه ويستعيدني.

لكن نوعية تلك الأيام الأولى الكابوسية اليائسة من العمى، والتي وُصِفَتْ في هذا الكتاب لم تُدْمِ عبر السنين ولم تُلقِ بظلالٍ قاتمة على بقيّة حياتنا. لقد تخبّطنا وتأقلمنا كما يفعل الآباء، وكنا سعداء للغاية في معظم الأوقات. كان لدى جون طاقة استثنائية، كان منفتحًا يتمتع بحسٍّ كبيرٍ من المرح وفي نفس الوقت متوقّدًا بانتباه المعلم الماهر، وقد عبّر وأظهر هذه الصفات بقوةٍ في علاقاته مع المقرّبين منه. في الغالب لم نُعِرْ فقدانَه البصر اهتمامًا كبيرًا؛ لقد انغمسنا كثيرًا في الحياة، والتفكير، والمشكلات، والمتعة. في أوقاتٍ أخرى شعرنا بالفخر إلى حدٍّ ما لطريقة تكيّفه المبتكرة. إذا ابتعدت لبضع

دقائق عندما نكون في الخارج، أو في حديقة، أو على الشاطئ، كان يربط خيطًا حول كاحل الطفل الرضيع حتى لا يزحف بعيدًا، كان خائفًا جدًا من فقدان أحد الأطفال! كما كان من أشد المعجبين بكرة القدم وقام بتجربة كرات الجلجلة لمساعدة الأطفال على تطوير مهاراتهم المبكرة. (يتذكر توم أنه سجل هدفًا رائعًا في شبابه خلال ركلات الترجيح في عطلة عائلية في فرنسا). كتب بطريقة برايل ببراعة على الكتب المصورة ملاحظات قصيرة على كل صفحة حتى يتمكن من قراءتها بصوت عالٍ. كان يتهج عندما يقوم بهذه الاستراتيجيات، لكنه كان لا يزال يحسد أصدقاءه المكفوفين الأكثر ثقة، خاصة أولئك الذين لم يرههم من قبل، وصف أحدهم لعبه للكريكت وكرة القدم في الشارع مع الأطفال الآخرين منذ صغره، وآخر تحدث عن ركوبه الدراجة حول قريته برفقة شقيقه، دون اهتمام أو شعور بخسارة العالم الخارجي. بالنسبة لجون، الذي فقد بصره في الخامسة والأربعين، كانت هذه مهارات لا يمكن تصورها.

كان تأثير فقدان بصره على حياتنا اليومية هائلًا. كان الرجل الذي وقعت في غرامه شخصًا عمليًا يستمتع بالأعمال المنزلية مثل الطهي والديكور وتنسيق الحدائق. كنا نعمل بدوام كامل

ونعتبر أن مشاركة هذه الأشياء أمرٌ مفروغ منه. يمكن للأشخاص المكفوفين أن يصبحوا خبراء في أي مهارة بشرية يمكن تخيلها، ولكن من واقع خبرتي، فإن الأمر يستغرق وقتًا طويلاً لإعادة تعلم مهارة والتخصص فيها وتلك بالضرورة نتيجة حتمية للمعاناة من إعاقة كبيرة. استثمر جون معظم وقته في عمله، ليس فقط لأن ذلك يُفرحه ويُسعده، ولكن لأنه شعر أن النجاح في وظيفته كان أفضل ما يفرّغ فيه طاقاته. كان ذلك يعني أن معظم المهام اليومية لإدارة المنزل تقع على عاتقي؛ ففكر في مجموعة أكياس التسوق المكثسة بعشوائية على الحائط والتي لن يقلق بشأن محتوياتها أبدًا. وكم مرة أكد له الأطفال بشكل غير دقيق أنهم سيضعون ألعابهم بعيدًا أو سيأكلون تلك الخضار التي رُميت في سلة المهملات.

كان جون يتألم عند الإشارة إلى أنه تحدّث عن نفسه فقط (عندما وصف تجربته)، وليس عن غيره من المكفوفين، وأشعرُ بالشيء نفسه تجاه تجربتي كرفيقة. أشعر أحيانًا أن الناس على وشك السؤال، لكنهم لا يحبّون ذلك تمامًا، ألم تضحي بالكثير مما أردت فعله بسبب إصابة جون بالعمى؟ إنني على دراية بالحياة غير العادية التي يعيشها مقدمو الرعاية مع أحبائهم في كل مكان، وعادةً بمغالبه تتجاوز قدرتنا، لكن في الواقع لم أفكر

مطلقًا في نفسي كمقدّمة رعاية. تسبّبت الصدفة الغريبة للعملية الجراحية في عين جون الأخيرة وولادة طفلنا الأول في حدوث ترنّج مفاجئ وانعطافة في حياتنا، جعل خياراتٍ معيّنة في الحياة أسهل. كان من المستحيل بالنسبة لي التفكير في العودة إلى العمل. لم أفكّر في ذلك قط. كنت في أواخر العشرينات من عمري، وقضيت اثني عشر عامًا في الغالب مشغولةً بالعائلة والأطفال بالإضافة إلى التدريس بدوامٍ جزئي، باعتباره عملي الوحيد المدفوع الأجر. لقد كان وقتًا مُرضيًا. استمتعت بالأطفال الصغار وكنت مشغولةً في تكوين صداقاتٍ نوعية وعميقة في تلك المجموعة العريضة من الأشخاص المنغمسين بالمثل في تربية أبنائهم. في وقتٍ لاحق، أمضيت عشرين عامًا أو نحو ذلك في التعليم الابتدائي وقرب نهاية حياة جون أصبحت مديرةً لمدرسة في جنوب برمنغهام، وهو أمرٌ أشعرنا بالفخر إلى حدٍّ ما. شعرت مع جون بشراكة متكافئة، كان يهتم بي واهتمّ به. لم تؤدّ الإعاقة إلى أي خلل في ميزان القوى من كلا الجانبين.

ربما كان أكبر تأثير لفقدانه البصر هو الخروج والتجول. لقد كان شخصًا فضوليًا بشكلٍ كبيرٍ محبًا للتفاصيل، ومتطلبًا للحقائق الفكرية التي كادت أن ترهقني أحيانًا. اعتبرنا سابقًا أنه

من المسلّم به الإشادة بالملاحظات المتبادلة للأشياء الجديدة التي غالبًا ما تشكل الخلفية الساحرة للعلاقات الإنسانية («انظر إلى ذلك»، «رائع، هذا رائع» وما إلى ذلك). أصبح كل هذا يتم من خلالي ويجب أن توسط فيه أنا، رفيقته المبصرة. ما هي تفاصيل المبنى؟ حجمه، حقبته، ملامحه المعمارية، موقعه؟ بمرور الوقت أصبح اهتمامنا بالعناصر المرئية أقل، واهتمامنا في دورها وأهميتها أكثر، اهتمامنا في مؤشرات الأشياء مثل المعنى والغرض والشخصية. كان على الكلمات أن تنقل المعلومات اللانهائية التي تتدفق عادةً عن طريق البصر وهذا جهدٌ كبير على الشخص الكفيف وكذلك رفيقه. قد يكون المشي معه في أحد شوارع المدينة، أو قضاء عطلة، أو مشاهدة مسرحية مدرسية أمرًا صعبًا. غالبًا ما كنت أشعر بأنني فشلت في تحقيق المطلوب ليس فقط للمناظر الطبيعية أو في نقل الحدث الذي أحاول وصفه، ولكن لفهم جون أيضًا. لكنه كان يتسامح مع الأوصاف الخرقاء من رفاقه المبصرين وسرعان ما ينقل المحادثة إلى مواضيع ليست ذات أهمية. روح الدعابة وخفة الروح كانت حاضرةً معه وهذا يعني أن تواجدنا سوياً كان دائماً ممتعاً، كنا نُمسك ببعضنا أثناء سيرنا، أو في يوم شتوي، كنت أضع يدي في جيبي.

على الطرق المألوفة، كان بإمكان جون المشي بأريحية دون مساعدة عصاه (لم يكن لديه كلب؛ لأنه كان يعاني حساسية من الكلاب)، لكنه غالبًا ما كان يفضل المشي مع رفيق مبصر.

قد تجدُ طالبةً جديدةً نفسها متوترةً عندما يأخذ بمرفقها فجأةً ويطويها تحت مرفقه، حتى يتمكن من التحرك دون عناء من غرفة المحاضرة إلى البار. إذا شعرت بالدهشة في البداية، فإنها سرعان ما تجد نفسها منغمسةً في محادثة عميقة أو مزاح مرح. تلقيت العديد من الرسائل المؤثرة بعد وفاة جون تصف مثل هذه المواقف. وبالنسبة لأطفالنا كان هناك تقاسم للمسؤولية وهم يسرون مع والدهم. لقد تعلموا في وقتٍ مبكر جدًا التعرف على الحافلة المناسبة، وقراءة اللوحات في المطارات، وتحديد الجداول الزمنية.

لم يحدّد العمى جون. قد يكون من الصعب تخيل ذلك، بعد أن قرأت عن سنوات فيها من اليأس الكثير في هذا الكتاب، لكنه في النهاية كان يمزح ويعتبر العمى: «مجرد هواية». في السنوات اللاحقة كان يكتب من حينٍ لآخر عن الآثار المترتبة والمستمرة، كان يوافق أحيانًا على إلقاء محاضرات عن العمى لكنه في الغالب لم يفعل ذلك؛ بسبب ضيق الوقت. كان لديه

صديق أو صديقان حميمان وكفيّان أيضًا. ومع ذلك، فقد عاش الغالبية العظمى من حياته مع أولئك من عالم المبصرين بكل انشغالاته التي لا هوادة فيها.

كان لدى جون قدرةً غير عادية على العمل. كان مدرسًا يتمتع بخبرة تزيد عن خمسة وخمسين عامًا، وأكاديميًا ناجحًا، ومفكرًا رائدًا في التعليم الديني، وأخيرًا لاهوتيًا محترمًا، لكنه حمل تعليمه بكل خفةٍ ودائمًا ما كان يضع نفسه كمتعلّم وليس كخبير. سأل أحد الزملاء، قبل وقتٍ قصير من وفاة جون: «لماذا يبدو أن لدى جون كل الوقت في العالم، ويتهي دائمًا في الوقت المحدّد، وقد قرأ أكثر من أي شخصٍ آخر، وكتب أكثر، ولا يبدو أنه متزعجٌ مما عليه القيام به، يا لها من بصيرةٍ مميزةٍ لديه؟».

الجواب مباشرٌ إلى حدٍّ ما: العيش بدون بصر جعلَ جون يقوم بأشياء أقلّ وبشكلٍ أفضل. لم يعد قادرًا على القيام بمهامٍ متعدّدة. لم يعد الإسراع في المهام أو «حصد الوقت»، على حد تعبيره، ممكنًا في جسدي يرى باللمس. التمعّن أخذ مكانه عوضًا عن السرعة. كتبت إيموجين بعد وفاته عن ترتيبه وتنظيمه «على عكس الأشخاص المبصرين، لم يُصَبّ بالذعر من حجم الفوضى، ولكنه كان يجثو على يديه وركبتيه ويلتقط أول شيء

يأتي في يديه، ما هذا؟ أين مكانه؟ كان ذلك درسٌ مهمٌ في الحياة. لا تشغل بالك بالصورة الأكبر، وإنما قسّم التحدي إلى قطع صغيرة الحجم».

هذه القدرة على التركيز كانت محسوسة بطرقٍ أخرى. لو كنتَ مع جون ستشعر أن كل انتباهه مركّزٌ عليك، هذا ما وصفه د. هـ. لورانس^(١) بأنه: «الرجل في كماله، يحضر بالكامل». غالبًا ما كان الناس يثقون به بسهولة لمجرد الاجتماع به. كان يستمع باهتمام، ويرجع ذلك جزئيًا لعدم رؤيته للغة الجسد، كان عليه أن يعمل بجدية أكبر للإنصات والاستماع. لم تكن تشتت انتباهه صينية المقهى اللذيذة التي مرّت من أمامه أو كومة الفوضى المكثّسة في الزاوية.

كان الأصدقاء رائعين، مخلصين، كتومين. كان جون شخصًا يسهل التحدث إليه، عن أي شيء، وأعتقد في الغالب أنه كان يُشبع فضولهم. كانت هناك بعض التعليقات، التي لم تكن عادةً من أي شخص نعرفه جيدًا، تتردّد بين وقتٍ وآخر: كيف تعرف الملابس التي سترتديها؟ هل ما زلت تأمل في استعادة نظرك؟ والفكرة الرائعة بأن جون سيكون سعيدًا لأنه لن يرى نتائج وآثار

(١) ديفيد هيربرت لورانس D. H. Lawrence كاتب وشاعر إنجليزي

(١٨٨٥-١٩٣٠)

الشيخوخة. سيكون من أحبهم كثيرًا مثل الفتيان والفتيات في قصيدة الجرة الإغريقية^(١) لجون كيتس: «يهرولون إلى الأبد، شباب إلى الأبد». كانت الإجابات على هذه الأسئلة، والعديد من الأسئلة المماثلة الأخرى، بسيطة للغاية في العادة. لا تحتاج إلى التفكير كثيرًا في مطابقة القمصان والسرراويل إذا كان هناك شخصٌ مبصر يمكنه المساعدة في ذلك، عندما تتلف العين وتقطع مساراتها العصبية، فمن غير المنطقي أن تمنى العلاج.

في البداية بقيت أنا ومن يحبهم كثيرًا ذكريات بصرية مشوشة، ولكنها متحركة، وجد لاحقًا أنه لا يتذكرنا إلا من خلال التركيز على الصور المألوفة، أخيرًا، بقيت الألوان والأشجار وهيئة جسده وشكله، واختفينا بعيدًا. بحلول الوقت الذي نُشر فيه هذا الكتاب في الأصل عام ١٩٩٠، لم يعد جون يشير إلى أن شيئًا يشبه شيئًا آخر؛ أو ربما أنه تخلى عمدًا عن هذا المفهوم، الذي اعتبره حنيئًا معلقًا على جزءٍ من حياة قديمة أصبح غير أصيل. كان منغمسًا بعمقٍ في عالم شكّلت فئاته وأقسامه الأساسية بشكلٍ مختلفٍ عن عالمي. كان من الصعب تقبل ذلك، لكنني شعرت بضرورة تعلّم أن أكون غير مرئية، وأن أتركه يتعد على طريقته، في هذا الجانب أو غيره، إلى عالمٍ لا

(1) Keats' Grecian urn

أستطيع أن أجاريه. تدريجيًا تعلّمت قبول أنه إذا لم يُعدَّ بهمة شكلي وكيف أبدو، فليكن. إذا استطاع شخصٌ غريبٌ أن يعرف شيئًا عن أطفالنا في لقائهم الأول لم يعرفه عنهم من قبل، فليكن. بالطبع كانت هناك مناسبات متفرّقة عندما أحيت أن أذكره بأنني لا أبدو سيئة الشّكل بالنسبة لعمرى، أو أن أحد الأطفال أو غيرهم بدا رائعًا، وهو يرتدي ملابس حفل التخرج. لقد كان ممتنًا ولطيفًا، لكن في عالمنا لم تعد هذه التعليقات تحمل الكثير من المعنى.

شيءٌ ما فقد، لكن بقي الكثير. ما كان مهمًا هو أن لا نتعلّق بطريقةٍ عديمة الجدوى بما كان مهمًا من قبل. لم نعد قادرين على تبادل الابتسامات المرحّة، والنظرات الفطنة، ولحظات الحقن، أو تحذيقه الحب العميقة. كان لدينا دقةٌ وتعقيد أصواتنا فقط، ولمسات أجسادنا بلطفها ووقاحتها. هذه هي الحواس الأكثر تلميحًا، والتي بقيت. كانت عوالمنا قد تباعدت عن بعضها البعض، وكان عملنا اليومي هو تكوين كيانٍ جديدٍ له وحدته المستقلّة.

لقد تعلّمت التحديق مباشرة للنظرات الغريبة في المطاعم، واستغربت كيف أن بعض الناس ما زال يستحوذ اهتمامهم رؤية

شخصٍ يمشي بعصا. لم أكن أُجيب عندما يسألني شخصٌ ما في حضوره عما يرغب فيه جون، كما يفعل كثيرًا. تبنيت أسلوب اللامبالاة المدروسة عندما كنت أنتظره خارج مرآحيض الرجال. كان مؤتمنًا ماليًا، واجتماعيًا، وفي جميع سياقات الحياة التي تهمنا، لم نشعر أبدًا بأننا متروكون وحدنا، وماذا يهم إذا ذهب للعمل مرتديًا جوارب غريبة؟

السؤال الأعمق الذي قامت عليه علاقتنا والذي تناوله جون أخيرًا في كتاباته كان: «هل يستطيع المكفوفون والمبصرون أن يفهموا بعضهم البعض؟ هل يستطيع الصغار فهم الكبار؟ هل يمكن للأغنياء أن يفهموا الفقراء؟» كان يعتقد أن إنسانيتنا تعتمد على قدرتنا على الاتحاد عبر عوالم مختلفة من التجربة. يشير وصف جون لمعنى أن تكون أعمى إلى إعادة ترتيب أساسية للوعي كله. تُرجم مثل هذه التجربة الفجوات وتدعم الفرص الكبيرة لإنسانيتنا: الإعاقة والجنس^(١) والفقير.

أعظم الهدايا التي شعر جون أنه حصل عليها من فقدان بصره؛ كانت تجربة التهميش وبالتالي شفقه بالعدالة. منح فقدان البصر لرجلٍ أبيضٍ من الطبقة المتوسطة، ومتعلمٍ بشكلٍ

(١) الجنس gender، بمعنى الجندر.

جيد، ويعمل في وظيفة نخبوية، تجربة قاسية للخروج عن العالم المعياري، أو بالأحرى وجد نفسه يتجول على حوافه. في السنوات الإحدى عشرة الأخيرة من حياته، أمضى جون وقتاً طويلاً في العمل والتعليم حول قضايا العدالة والسلام. كان ناشطاً ضد الأسلحة النووية، وخاصةً برنامج ترابنت النووي، وحروب الطائرات بدون طيار. شارك في التطور المبكر للكنيسة الشاملة⁽¹⁾، وهي منظمة مسكونية تسعى إلى حث الكنيسة للقيام بمسؤولياتها فيما يتعلق بالجنس، والإعاقة، والصحة العقلية، والعرق. كان صريحاً، مهاجماً لكل من الكتاب المقدس وتقليد الكنيسة حول الإعاقة، وأعاد العمل على العمى والإعاقة في علم اللاهوت. ودعا الكنيسة للوقوف مع المهمشين.

اعتقد جون أن التحدي الرئيسي لإنسانيتنا هو التحلي بالشجاعة والاعتراف بالاختلافات على حقيقتها، وعدم محاولة التقليل منها. هذا ما أعطاني إياه جون. الشجاعة للعيش معه، في عوالم كانت مختلفة بشكل عميق في بعض النواحي، ولكن نمت منها الكثير والكثير.

(1) Inclusive Church

بعد ثلاثة أشهر من عيد ميلاده الثمانين، مات جون. حدثت النهاية بشكلٍ سريع. كنا قد عُدتنا لتونا من عطلة لمدة أسبوع مع إيموجين وعائلتها. كان جون في حالة معنوية عالية وحريصًا على العودة إلى العمل. استمتع بأمسية هادئة، واستمع إلى الموسيقى في مكتبه وفي حوالي الساعة ١٠:٣٠ صعد إلى الفراش. بعد حوالي خمس دقائق سمعت صرخة مزوعة وسقوط. هرعت إلى أسفل الدرج حيث كان فاقداً للوعي.

بعد ذلك، في الطوارئ، تحدثنا عما حدث. لم يسقط أبدًا عندما كان وحيدًا في كل سنوات ضعف البصر، ربما مرة أو مرتين فقط عندما كان برفقة شخص مبصر فقد تركيزه. لم يستطع أن يتذكر حقًا كيف سقط، وأعتقد أنه ربما يكون قد أصيب بالدوار للحظة.

نتج عن ذلك ثمانية كسور في ستة أضلاع. وكان التحدي السريري وقتها هو الحفاظ على تنفّسه على الرغم من الألم، وعدم الحركة لتجنّب الالتهاب الرئوي.

كلانا كان يعرف أن حياته في خطر. منذ طفولته المبكرة كان يعاني من ربو خطير وبحلول الوقت الذي التقينا فيه، فقد الكثير من قدرته الرئوية التي تضاءلت بشدة بالفعل. شاهدته مراتٍ عديدة وهو يحاول الثبات بشكل مروع خلال نوبة هلعٍ

مصاحبة للربو، كان يعدّ بهدوءٍ مع تصاعد الكحة وتراجعها. نساءلت كيف يمكن أن يجد الهدوء لمواجهة مشاعر الرهبة من الأماكن المغلقة، والناجمة عن التأثير المزدوج للعمى والربو.

في أغسطس ٢٠١٢ تم تشخيص حالته بأنه مصاب بمرض الانسداد الرئوي المزمن^(١) الذي لا يوجد علاج له. كنا نعلم أنه لن يعيش على الأرجح لسنواتٍ عديدة وأن أي صدمة أو عدوى أو مرض خطير من المحتمل جدًا أن يقتله؛ أو، الأسوأ من ذلك كله، أنه قد ينتهي به الأمر مدفوعًا على كرسي متحرك، ومرتبًا بالأكسجين، ويموت ببطء، غير قادر على العمل أو التدريس.

لم نتطرق إلى التشخيص، ولكن بطريقةٍ ما يمكنك أن تقول إننا كنا مستعدين. في الواقع، حاول جون أحيانًا وفي لحظةٍ هادئةٍ أن يشرح لصديقٍ مقربٍ سأل عن صحته وأخبره، أنه في الواقع مريض جدًا وقد لا يعيش لفترةٍ أطول في هذا العالم. كان الرد على ذلك إنكارًا مهذبًا لنوعٍ ما لأنه ظل حيًا من الناحية الفكرية، مُفعَّمًا بالأفكار وملتزمًا، بصوتٍ قويٍّ جدًا، وضحكةٍ كبيرةٍ، لدرجة أن أحداً لم يصدّق عمره، ناهيك عن حالته الصحية الحقيقية.

(1) Chronic Obstructive Pulmonary Disease

بعد أن بدا أنه استقرّ لمدة يومين، تدهورت حالة جون فجأة في اليوم الثالث. والتهبت رئته، أسرع من قدرة الأطباء على السيطرة، ثم انهارت أنظمتها واحدًا تلو الآخر. حاول أطفالنا العودة إلى المستشفى، لكن في النهاية تمكن اثنان فقط من الوصول إليه. مات بين ذراعي، ممسكًا بليزي وقابضًا على يد جوشوا.



الكتابة عن الشخص الذي أحببته بعد وفاته تجربة غريبة. من بين مجموعة الذكريات الهائلة، عليك أن تقرّر أي الأجزاء يجب ذكرها وأيها يجب تجاوزها، مع العلم أنه لن يكون هناك إجابة صحيحة طوال الوقت. أحاول أن أنقل فقط ما كان عليه جون، الإنسان المتألق، دون أن أجعله يبدو وكأنه قديس، لم يكن بالتأكيد ذلك العنيد المثير للسخط؛ بل الصريح الأسترالي الذي أخفق في فهم ضبط النفس لدى الإنجليز (لدي). ومع ذلك، قبل كل شيء، أتذكر ما جاء مرةً بعد مرة في الرسائل والإهداءات التي تلقيتها في العام الماضي. سواء من أولئك الذين عرفوه طوال العمر أو التقوا به مرةً واحدةً فقط، يشهدون وبشكلٍ مذهل على روح الدعابة، والدفء، والتواضع، والاهتمام بالآخرين.

عند الاستماع إلى كل خطابات العرفان والتحية من الأطفال البالغين الخمسة عن والدهم في جنازته، صيف عام ٢٠١٥، تتدفق مشاعر العطاء والحب والحزن الذي أشرع الباب للفقد؛ لأنه لم يبق أي شيء مهم يُقال. تذكرتوم رحلة عاصفة في عطلة عائلية على متن قارب في يوغوسلافيا، قبل أن تحدث الحرب: «كانت المياه تقذف بنا وتدحرجنا وتتدفق في القارب، والسياح من حولنا يصرخون ويتقيؤون على جانبي المركب. لكن أبي أحب التجربة تمامًا. وضع ذراعه حول كتفي ولم أشعر بالخوف. كنا نصيح ونضحك، ونصرخ: انطلق أسرع، انطلق أسرع!» تحدثت جوش عن الموسيقى وكيف جمعتهم معًا: «للساعات التي لا تُحصى التي قضيتها في الاستماع إليّ وأنا أتدرب على الترومبون، شكرًا لك. وصدقني، لقد أمضيت أيضًا ساعات طويلة أستمع إليك أثناء التدريب على البيانو، أنت ولي [مدرس البيانو] تعزفان دروس البيانو الصباحية، وأنا ألعب بـ(رجل الثلج فرستي^(١)) على الأرض.» تذكرت ليزي قصص النوم التي كان يحكيها: «قصص قصيرة عن كلب طرزان (بوتي بوت الصغير) وأخرى أسطورية مثل: (بيت أبي المرعب)، وهو

(١) رجل الثلج فرستي Frosty the Snowman، فيلم كرتون أنتج العام

حدّث سنوي للأطفال المحليين في عيد الهالوين.» وشكرته
قبل كل شيء على «الشجاعة في التفكير النقدي وعدم القبول
بالراحة والاستقرار على منظورٍ واحدٍ للعالم».

أترك الأمر لجابريل، ابنا الأوسط وهو الآن أب، ليقول لنا
الكلمة الأخيرة. بالنسبة لأولئك الذين عرفوا جون، أو الذين
قابلوه في هذا الكتاب، أعتقد أن هذا يتحدث لنا جميعًا: «سأفكر
في أبي في كل مرّة تمطر فيها».

تمهيد

أَمْسِكْ بِطَرْفِ الْخَيْطِ ^(١)

أوليفر ساكس ^(٢)

هناك العديد من السير الذاتية التي كتبها المكفوفون - روايات وسرديات مؤثرة وملهمة في آنٍ واحدٍ - تُبرز الآثار العاطفية والأخلاقية للعمى في الحياة، ونوعية الإرادة والفكاهة ورباطة الجأش اللازمة لتجاوز المحنة. هذا الكتاب ليس حكاية: ليس له بداية أو وسط أو نهاية واضحة؛ يفتقر إلى الادعاء الأدبي. إنه يتجنب الشكل السردى نفسه وهو، في رأيي، تحفة فنية.

لم يُكتب: «أَمْسِكْ بِطَرْفِ الْخَيْطِ» في جلسة كحكاية أو سردية، ولكن كُتِبَ وسُجِّلَ على فترات - في البداية يوميًا، ثم

(1) Touching the Rock: An Experience of Blindness, 1990
by Vintage

(٢) أوليفر ساكس Oliver Sacks طبيب أعصاب بريطاني، عالم طبيعة ومؤرخ وكاتب (١٩٣٣ - ٢٠١٥)

بشكل دوري - بعد أن فقد البروفيسور هال بصره تمامًا، في الأربعينيات من عمره. ما يقدمه هو ملاحظات مؤثرة في طبيعتها ووضوحها، ملاحظات حول كل جانب من جوانب حياته وعالمه الداخلي الذي تحول وقتها وبشكل مُرعب. يَصِفُ كيف يعبر الشارع. كيف يمكن للمرء أن يضيع بشكل مروّع وكَلِّي عندما يكون أعمى؛ كيف يجد المرء نفسه مُتجاهلاً أو مستصغراً؛ كيف أن ذكريات وصور وجوه الناس، وجه المرء أيضًا، لم تعد مُحدثة لافتقاد الرؤية الفعلية، تصبح متحجرة أولاً، ثم باهتة ثم تختفي تمامًا؛ كيف تتغير العلاقات مع الأسرة؛ كيف تصبح مفاهيم: «المكان»، «الفضاء»، «هنا»، «هناك»، «الحضور»، «المظهر»، بكل درجاتها، مع التقدّم في المرض والعمى، خالية تمامًا من المعنى. لم يكن هناك أبدًا، على حد علمي، كتابٌ فيه قراءة دقيقة ورائعة (ومخيفة) لكيفية التلاشي التدريجي للعين الخارجية، ليس ذلك فحسب، بل التلاشي «للعين الداخلية» أيضًا؛ الخسارة المطردة للذاكرة البصرية، والصور البصرية، والتواؤم البصري، والمفاهيم البصرية (في وقتٍ ما، كان لا يتذكر ما إذا كان الرقم ٣ يُشير إلى الخلف أم إلى الأمام)؛ في رحلته المستمرة والتي استغرقت خمس سنوات وأخذته إلى الحالة التي أسماها: «العمى العميق».

الملاحظات كانت دقيقة، وبنفس القدر عميقة: أمعن النظر في كل شيء، واستكشفه إلى أقصى حدوده، كل تجربة في الكتاب سلكت طريقاً، وأثمرت حصاً كاملاً من المعاني. نظرات هال الثاقبة، وجمال لغته، تجعل هذا الكتاب شعراً؛ عمق تأملاته يحولها إلى فلسفة أو فينومينولوجيا. لو كان فتجنشتاين^(١) أعمى، لكتب مثل هذا الكتاب، معبراً عن أعماق فينومينولوجيا الإدراك المتغيرة على الدوام. وبالفعل، فإن استخدامه للاستكشاف القصيرة والملاحظات المبهرة عنها، يجعل: «أمسك بطرف الخيط» مشابهاً وبشكل غريب للتحقيقات الفلسفية.

كتب هال في مقدمته:

العلاقة بين الحلم واليقظة وطبيعة الوعي بعد ذاته هو أحد الثيمات المتكررة في الكتاب. تشمل الثيمات الأخرى الإدراك المتغير للطبيعة، التحول في فهم ما يعنيه الفرد، ومشكلة تفهم واستيعاب هذه الخسارة الفادحة. ... ثمة أجزاء متناثرة في ثنايا الكتاب ... [و] إذا

(١) لودفيغ فتجنشتاين Wittgenstein، فيلسوف نمساوي إنجليزي، يعد من أبرز فلاسفة اللغة والمنطق (١٨٨٩ - ١٩٥١)

كان هناك تكرار؛ فذلك لأن ذات المشاكل والتجارب صالت وجالت، وجرى تأويلها من جوانب عدة.

وكتب فتجنشتاين في مقدمته:

كان هذا بالطبع مرتبطاً بطبيعة التحقيق ومعناه. وهذا يحتم علينا السفر عبر حقول رحبة من الأفكار المتقاطعة في كل اتجاه. إن ... الملاحظات الواردة في هذا الكتاب هي، كما كانت، اسكتشات لبسّطات الطبيعة، أُجريت في سياق هذا الترحال المستغرق والطويل. اقتربت من نفس النقاط أو تقريباً نفس النقاط من اتجاهات مختلفة، وكونت على أساسها اسكتشات جديدة ... وبالتالي فإن هذا الكتاب هو في الحقيقة مجرد اليوم.

كل هذا ينطبق، بالضبط، على: «أمسك بطرف الخيط». فهو يقدم في نهاية المطاف، صورة أو ألومًا، بأقصى قدر من الشمولية، لمشاهد الطبيعة للعمى العميق ويرسمها من مئة نقطة مختلفة؛ إنه يُظهر لنا، أخيراً، عالم العمى، وبطريقة لا يمكن القيام بها بأسلوب صريح، متابع، ومباشر.

ليس كل شيء مُظلم. مع اختفاء البصر في الداخل والخارج، ثمة أنماط إدراكٍ أخرى تصبح أكثر كثافة وأهميّة،

وخاصة تلك المتعلقة بالسمع واللمس. هنالك مقارنة مستمرة في ثنايا الكتاب، لطبيعة الرؤية والسمع، والتباين الرئيسي بين التجربة البصرية والسمعية. ومع ذلك، يبدو أن المطر أحياناً (والرياح) يوصل بين التجربتين، أحد أجمل المقاطع التي وصفت هذا:

المطر وسيلة لإبراز ملامح الأشياء؛ يُلقِي بغطاء مُلَوّن على الأشياء التي لم تكن مرئية من قبل؛ عوضاً عن عالمٍ متقطع ومُشَتّت، فإن المطر المتساقط المُطَرَّد يخلق ديمومةً للتجربة الصوتية ... عادةً، عندما أفتح الباب الأمامي، هناك أصوات متكسرة ومتفرقة تنتشر عبر العدم. أعلم أنه عندما أقوم بالخطوة التالية سألقى المسار أمامي، وأن حذائي على اليمين سيقابل العشب ... أعلم أن كل هذه الأشياء موجودة، ولكنني أعرفها بالذاكرة ... يقدم المطر وفرّة الموقف بأكمله دفعةً واحدةً، ليس بالتذكّر أو التوقّع، ولكن بالواقع في هذه اللحظة. يعطي المطر إحساساً بالمنظور والعلاقات القائمة بين جزءٍ من العالم وآخر ... أشعر كما لو أن العالم المحجوب حتى المسه قد كشف نفسه لي فجأة.

كطبيب أعصاب مهتم بشدة بتأثيرات العجز والحرمان الجسدي، وقدرة التعويض بالحواس الأخرى، أجد نفسي منجذباً بالتفاصيل والأصالة الواضحة لمثل هذه الأوصاف. على الرغم من وجود العديد من الأعمال المكتوبة عن العمى، لم يستكشف أيٌّ منها، على حد علمي، آثاره الداخلية بالطريقة التي كتب عنها هال.

من المعروف أنه إذا كان هناك تلفٌ في الأجزاء البصرية من الدماغ، القشرة البصرية، فقد يسبب فقداناً ليس فقط للصور البصرية والذاكرة البصرية، ولكن لجميع المفاهيم البصرية، وقد يعطل التفكير البصري، وبالتالي: «الهوية البصرية». قد يصبح الشخص مخلوقاً غير بصريّ تماماً. ولكن إذا توقفت الأجزاء البصرية من الدماغ عن العمل، أو تدهورت، فإن أجزاء أخرى من الدماغ - السَّمعية واللمسية - بحسب وصف هال، تزيد وتكثف من وظيفتها. قد يحدث تحسينٌ مماثل (للبصر، للإدراك البصري والصّور والتمييز والذاكرة) بين الصّم؛ وهنا يوجد دليلٌ جيد على التغيرات الفسيولوجية في الدماغ، وهو ارتفاع الاستجابة ودقّتها في القشرة البصرية، بالإضافة إلى إعادة تخصيص مناطق الدماغ الأخرى، أي القشرة السمعية، لأغراض المعالجة البصرية. قد يعتقد المرء، بحسب مذكرات

هال، أن هناك بالمثل، ليس فقط انخفاضًا (وحتى انقراضًا) وظيفيًا في القشرة البصرية، ولكن زيادة وظيفية في القشرة السمعية واللمسية، وربما إعادة تخصيص القشرة البصرية للمعالجة السمعية المحسنة.

هناك استعارتان مرتبطتان في هذا الكتاب، مما يمنحه قوة مجازية هائلة: تلك الخاصة بالرحلة والنفق. العالم المرئي المتراجع هو الضوء المتلاشي خلفه، بينما يتقدم هو عبر النفق، النفق الشبيه بالموت، الذي لا ينتهي ببصيص ضوء، النفق الذي لا يمكنه أبدًا أن يأمل في الفرار منه. نساfer مع هال أبعد وأبعد في عالم من العمى، أو حيث لا يوجد عالم، حتى يصل أخيرًا إلى نقطة لا يستطيع فيها استدعاء ذكريات الوجوه، والأماكن، وحتى ذكريات الضوء؛ هذا هي انعطافة النفق، ووراءها يقع: «العمى العميق». ومع ذلك، في هذه النقطة الأعمق والأكثر قتامة ويأسًا، يحصل تغيير غامض: لم يعد هنالك إحساس موجع بالخسارة، بالضجر، باليأس، بالحزن، وإنما إحساس جديد بالحياة والإبداع والهوية. كتب هال: «على المرء أن يعيد تشكيل حياته أو أن يقبل بخسارتها»، وهذا على وجه التحديد إعادة خلق، خلق لنظام، وصنع لهوية جديدة تمامًا، والتي وصفها هال في الصفحات الختامية من كتابه المذهل. عند هذه

النقطة يتساءل هال ما إذا كان العمى «هديةً مظلمةً ومتناقضةً» ومدخلًا مرعبًا وغير مرغوب فيه، ولكن يجب قبوله، إلى شكلٍ جديدٍ وعميقٍ من الوجود. يُظهر «العمى العميق» الآن جانبه الآخر، ويصبح هال، على حدّ تعبيره: «رائيًا بكامل الجسد».

كتب في الحاشية: «كونك رائيًا بكامل الجسد»، يعني: «أن تكون في إحدى الحالات البشرية الأشد تركيزًا. إنها حالة، مثل حالة الشباب والشيخوخة، أو الذكر والأنثى، إنها إحدى الأنظمة البشرية.» وفي اكتمال هذه الحالة - تذكرنا إلى حدّ ما باكتمال: «الصمم العميق» الذي وصفه الشاعر ديفيد رايت في كتابه الصمم⁽¹⁾ - التي لا تتشكّل في حمولتها نظام وعمق وهوية جديدة فقط، بل اكتشاف لأعماق المرء وأغواره، لمركز المرء وروحه وجذره وُصلبه: هذا، بالنسبة لهال، هو: «أميسكُ بطرَف الخيط».

(1) Deafness: A Personal Account by David Wrigh, 1991 by

Faber & Faber

مقدمة لـ

«أَمْسِكْ بِطَرْفِ الْخِيْطِ»

جون م هال

ولدت في ٢٢ أبريل ١٩٣٥ في كوريونج^(١)، وهي بلدة تقع في شمال شرق فيكتوريا. كان والدي وزيراً ميثودياً (قائماً بأعمال الكنيسة الميثودية) في مدينة كادجوا^(٢) القريبة. هاجر من إنجلترا عندما كان طفلاً عام ١٩١٥، وبعد عددٍ من الوظائف في المزارع والمصانع، تدرّب وأصبح سائق محركات. قاد محركات الجرّ، والآلات الزراعية، وعمل في محطات التبريد وأنظمة الري، ثم انخرط في صناعة الأخشاب. كان يعمل في معامل نشارة الخشب وكسائق رافعة في العديد من معسكرات قطع الأشجار، معظمها في غابات شرق وجنوب فيكتوريا. روى قصّة هذه السنوات الملوّنة في سيرته الذاتية: «حكاية كورا

(1) Corryong

(2) Cudgewa

جاءك^(١) التي نشرها المجلس المشترك للتعليم المسيحي في
ملبورن، ١٩٨٤.

أثناء عمله في معسكر احتطابٍ بعيدٍ في منطقة بيناك^(٢)
قرب سلسلة جبال داندينونج، التقى بمادج هوتلي، المعلمة
الوحيدة في المدرسة المحلية الصغيرة. كانت مسيحية متحمسة،
وكان لها تأثير كبير في تحول جاك إلى المسيحية والذي حدث
في عام ١٩٢٧. تدرّب على الوزارة (الخدمة) الميثودية في
كوينز كوليدج، ملبورن، وكانت تعيينه الأول في مدينة كادجوا.
نشأت والدتي في مدينة ستاويل الريفية، الواقعة في شمال
غرب فيكتوريا بالقرب من سلاسل جبال جرامبيان الجميلة.
هاجرت عائلة هوتلي من إنجلترا في سبعينيات القرن التاسع
عشر، وكان والد مادج هو المالك والمشغل لأول مرآب في
ستاويل. تدرّبت مادج كمعلمة ابتدائية في ملبورن قبل أن تُعيّن
في بيناك.

كنت الطفل الثاني للزواج، حيث ولدت أختي أليسون في
عام ١٩٣٣. وفي غضون أيام قليلة من ولادتي، ظهرت تقرّحات

(1) Yarns of Cowra Jack

(2) Beenak

في جلدي. كانت هذه بداية الحالة التي ابتليت بها في النصف الأول من حياتي. قد تكون حالة من الحساسية المرتبطة بالربو والمصاحبة لاعتماد خَلْقِي لعدسة العين^(١)، وكل هذه الأعراض جزء من متلازمة لم تُحدّد إلا بعد سنوات عديدة.

مهما كان السبب، فقد كانت النتائج دراماتيكية، وعلى الرغم من أن الطفل يقبل كل شيء باعتباره طبيعيًا دون سؤال، فإن هذا الجانب من طفولتي وشبابي ترك انطباعًا عميقًا لدي. تخلّلت طفولتي ذكريات الضمادات والمراهم، وأكمام القميص الرفيعة والممزقة بسبب الحكّة، وذكرياتي كطفلٍ صغير يدفع نفسه على دراجة ثلاثية العجلات، وطفلٍ لا يقوى على الوقوف وجعل ساقيه مستقيمتين بما يكفي للمشي بشكل مريح، ومعلمين في حيرة يسألونني لماذا أظافري كانت مكسرةً ومصفولة، وذكريات حبّ والدتي واهتمامها. يدها الحازمة، وصبرها اللامتناهي، ومزيج القوة والحميمية الذي نقلته إليّ وترك أثرًا دائمًا.

كادجوا، ليست بعيدةً عن منابع نهر موراي وأعلى قمة في أستراليا، جبل كوسيو سكو^(٢)، منطقة ذات جمال طبيعيٍّ ورائع،

(١) أو مياه بيضاء cataract

(2) Mount Kosciusko

لكن هذا لم يترك أي انطباع لديّ حتى عدت بعد أكثر من عشرين عامًا. نُقِلَ والذي بعد عامين من ولادتي إلى الجانب الآخر من الولاية، إلى ريد كليفس^(١)، وهي بلدة على نهر موراي ليست بعيدة عن ميلدورا. كانت كروم العنب تُروى من مياه نهر موراي. ذكريات طفولتي الأولى تأتي من تلك السنوات. كان الطعام يُبزّد بصناديق الثلج، وما زلت أتذكر الرجل الذي يأتي بكتلة ضخمة من الثلج يكسرها بالفأس لجعلها مناسبة ويلقها بالخيش على عربة الثلج. كنت أنا وأليسون نلتقط قطع الثلج الحادة المتناثرة ونركض نحو الأخاديد المحفورة بين كروم العنب المجاورة للمنزل. لا زلت أتذكر الطبيعة الملحية للثلج المكسور، وطعم العنب الأخضر الحلو، وملس التربة الجافة المُفتّنة.

بموجب الترتيبات الدورية المعتادة للوزارة الميثودية في تلك الأيام، نُقِلَ والذي مرة أخرى بعد ثلاث سنوات وهذه المرة إلى تسمانيا^(٢). كان ذلك في أواخر عام ١٩٣٩ أو أوائل عام ١٩٤٠، وكان على ظهر السفينة التي نقلتنا من البر الرئيسي مدفع مضاد للطائرات. عندما أزال الطاقم الغطاء عن المدفع

(1) Red Cliffs

(2) Tasmania

للتمرين اليومي، راقبتهم مجموعة من الأطفال الصغار، بمن فيهم أنا وشقيقي الأصغر كيث، المولود في ريد كليفس.

خلال هذه السنوات من الحرب العالمية الثانية عشنا في وينيارد^(١) على الساحل الشمالي. كان هناك شعورٌ بالرهبة من أن يقصف اليابانيون ملبورن مسترشدِين بأضواء ساحل تسمانيا الشمالي، أو ربما يحاولون الهبوط قبل الهجوم على البر الرئيسي. حُفِرَ خندقٌ متعرجٌ في ساحة المدرسة، وكل يوم كُنّا نركض إلى الملجأ في الخندق، ونتدرب على ارتداء خوذاتنا المصنوعة من الصفيح وأقنعة الغاز. في المساء، كُنّا نجلس عند السياج الأمامي ونراقب الكشافات الليلية تتحرك في السماء. كُنّا نقضي عطلاتنا كل صيفٍ في بووت هاربر^(٢)، على الساحل، لم يكن بعيدًا. تعلّمت هناك حبّ البحر، واستمتعت برؤية أمواج المدّ والجزر وعجائب الحياة في برك الصخور. بينما كنا نعيش في وينيارد، اكتملت عائلتنا بميلاد جانيس.

عندما انتهت الحرب في المحيط الهادئ، في عام ١٩٤٥، كنت في جناح الأطفال في مستشفى الأمير هنري في ملبورن، بسبب الأكريما الشديدة التي أعاني منها. كان عرضُ الألعاب

(1) Wynyard

(2) Boat harbour

النارية على طول ضفاف نهر يارا مرثياً بوضوح من الطابق العاشر من المستشفى، وأتذكر أيضاً سماع صوت الجنرال ماك آرثر في أجنحة المستشفى والذي أعلن نهاية الحرب. عادت عائلتي إلى فيكتوريا، وعمل والدي بعد ذلك في تشارلتون^(١)، وهي بلدة ريفية صغيرة تشتهر بزراعة القمح وتقع على نهر أفوكا في الجزء الشمالي الغربي من الولاية. كنا نلعب ونتقمص أدوارَ رعاة البقر والهنود بين أكوام ضخمة من أكياس القمح المترامية بجانب خط السكة الحديد وفي المستودعات. كنتُ أعبرُ النهر في طريقي إلى المدرسة، وأسير على جسر للمشاة. في أحدِ الأعوام غمرَ النهر الجسر ولم نستطع العبور من فوقه. كان من المثير للغاية مشاهدة ارتفاع مستوى المياه كل يومٍ، ومن ثم رؤية أنماط الشقوق العميقة المتكوّنة في الطين الجاف تحت أشعة الشمس الشديدة. أحياناً، كانت تهبُ عواصفُ ترابية شديدة، وتصبح السماء حمراء وتنذر بالسوء ونعود جميعاً إلى المنزل من المدرسة. بالكاد كنتُ أكتشف طريقي، أسير على طول السياج الأمامي حتى أصِلَ إلى البوابة، وبصعوبة بالغة أفتح عيني بسبب حُرقة الغبار العنيف.

(1) Charlton

فاتني عامٌ من المدرسة بسبب حالتي الصحية السيئة، وقضيت تلك الفترة في مدرسة المراسلة التي تديرها وزارة التعليم بالولاية. أحببت ذلك، وكنتُ أنتظر بفارغ الصبر الحزمة الأسبوعية من الكتيبات، وبطاقات العمل، والرسائل من معلمي الذين لم أقابلهم من قبل. تبعَ ذلك عَمان في مدرسة تشارلتون الابتدائية العليا، قبل أن نتقل على بُعد ستين ميلاً جنوباً إلى إيجل هوك^(١) بالقرب من مدينة بنديجو^(٢). كنت أقطع أنا وكيث ثلاثة أميال للوصول إلى المدرسة بالترام أو بركوب الدراجة. كانت إيجل هوك وبنديجو تقعان على حقول الذهب الفيكتورية^(٣) القديمة، وكانت الرافعات الطويلة فوق أعمال المنجم جزءاً من الأفق. كانت هناك أدغال مثالية للمغامرة، يتخللها أنفاق ومهاوي المناجم.

ارتبط والدي بدائرة كبيرة تتكون من ثلاث كنائس في المدينة، لكلٍّ منها برنامج كامل من الأنشطة، وثلاث كنائس ريفية صغيرة. كانت الحياة في الكنائس نابضة ومزدهمة. تعلّمتُ في الكنيسة كيفية الدراسة، والمناقشة، وإدارة الاجتماعات

(1) Eaglehawk

(2) Bendigo

(3) Victorian goldfields

العامة، ونشر الصحف. تعلّمنا كيف نشقّ طريقنا حول الأدغال ونغني. في سنّ الرابعة عشرة، قامت مجموعة من الشباب الذين تدربوا على الخدمة الميثودية في كلية والدي القديمة في ملبورن، كوينز، ببعثة تبشيرية في كنيسة بنديجو المركزية، الواقعة على شارع فورست. كانت تلك بداية عشر سنوات مكثفة من المراهقة الدينيّة والعاطفية، السنوات التي خرجت منها لأجد نفسي أدرس علم اللاهوت في كامبريدج بإنجلترا.

ملاحظتي لضعف نظري كانت في وقتٍ سابق، ربما عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، لاحظت وأنا أتناول الإفطار أنه كان صباحًا ضبابيًا للغاية. لم تتفق معي أمي المتفاجئة، ثم تذكرت أنني كنت أشتكي من عدم تمكّني رؤية الستّورة في المدرسة، فأخذتني إلى بنديجو لرؤية أخصائي العيون الأول. تطلّب الأمر ثمانية وثلاثين عامًا حتى يخرجني من رعايته أخصائي العيون الأخير.

شخصت بإعتام عدسة العين وفقدت البصر في إحدى عيني. بعد عدة أشهر، بدأ البصر في العين الثانية يتدهور، وفي غضون بضعة أشهر أصبحت لا أرى سوى ضبابًا أبيض كثيفًا. كنت أقرأ رواية عن الغرب الأمريكي، وفي عجلة من أمري لإنهائها، بل كنت متزعجًا من الانقطاع عنها. أجلت عدوى

الجلد الشنيعة التي غطت وجهي ورقبتي الجراحة وجعلتها مستحيلة، وقضيت عدة أسابيع في المستشفى منتظرًا. أخيرًا، نُقبت عدستا عيني حتى تذوب المياه البيضاء وتتسرب تدريجيًا. لم يعد إجراء عملية: «الوخز بالإبرة» للعدسة موجودًا، لاكتشافهم لاحقًا أن الهلام الزجاجي يميل إلى التقدم إلى الأمام، ما يؤدي إلى انفصال الشبكية. ربما لعبت حالتي دورًا صغيرًا في هذا الاكتشاف. أخيرًا، تم نزع الضمادات وأعطيت النظارات. أعادت هذه العدسات الثقيلة العالم لي، وأتذكر الملامح الواضحة والناضة بالحياة للأشكال والألوان. شهقت مبتهجًا، وضحك أبي وكل الاستشاريون بهجةً بذلك.

بعد ثلاث أو أربع سنوات، مررت بتجربة الظلام المميز، كانت المنطقة المظلمة على شكل قرصٍ وحوله وميض من الضوء، يظهر بوضوح عندما أحرك عيني بسرعة، وهذه أحد الأعراض التي تعلمت ربطها بشفكية العين المنفصلة. قضيتُ سنواتٍ عديدة في مراقبة تقدم هذه الظلال الداكنة، وقياسها بعناية على الحائط لتحديد سرعة تقدمها، ومحاولة شرح شكلها وموقعها الدقيق لأطباء العيون المتشككين، مدركًا أنه عندما يمرّ القرص في النقطة المركزية للرؤية فلن أتمكن من القراءة. ومع ذلك، في المرة الأولى التي حدث فيها هذا، لم أدرك

أهميته، وعلى الرغم من أنني حفظت الأماكن الدقيقة لمجال الرؤية، إلا أنني لست متأكدًا إن كنت أخبرتك والدي. كان هذا في العين اليمنى، ووفقًا لسجلاتي، مر القرص سريعًا فوق مركز الرؤية، وظهر الضوء على الجانب الآخر، واستعدت البصر تمامًا. في ذلك الوقت، لم أكن أعرف شيئًا عن انفصال الشبكية. قال بعض الأطباء إنهم سيتمكنون من اكتشاف العلامات الأخرى لهذا الانفصال المبكر؛ على أي حال، لم يكن لها أي أهمية. كنت في السابعة عشرة من عمري عندما ظهر القرص الأسود في العين اليسرى. كنا نعيش حينها في ملبورن ونُقلت إلى أحد المستشفيات الرائدة. لم أشخص وابتلع القرصُ الأسود الرؤية في عيني اليسرى. لبعض الوقت، كنت أرى من خلال هلام أخضر عميق، ثم نزلت عيني وتلاشى الضوء. لم أكن متزعجًا، كطبيعة الشباب اللامبالين. ما زلت مبصرًا بعيني اليمنى، والتي بدت بطريقة ما وكأنها قد أصلحت نفسها.

بالنسبة للشكل السادس^(١) من دراستي، درست في مدرسة ملبورن الثانوية للبنين. كان الانتقال من مدرسة ثانوية إقليمية صغيرة إلى إحدى المدارس الرائدة في عاصمة الولاية مثيرًا

(١) الشكل أو النمط السادس sixth form؛ الستين الأخيرتين قبل الجامعة.

للغاية، ولأول مرة استمتعت حقًا بالمدرسة. كانت مواد التاريخ والأدب الإنجليزي والجغرافيا، تساعدنا على التفكير في الأسباب والمسببات، وبدأت أفهم طبيعة الأدلة. كنت واعظًا محليًا ميثوديًا مؤهلًا وذا خبرة، وسرعان ما وجدت أصدقاء يشاركونني ذات المسعى. في عام ١٩٥٣ التحقت بجامعة ملبورن وقررت أن أحصل على شهادة الآداب العامة. لم تخطر ببالني فكرة الانضمام إلى إحدى المدارس الرائدة، فقد كان تفكيري منصبًا تجاه الوزارة الميثودية وكنت أبحث عن تعليم من شأنه أن يُعدني للدراسة في كلية كوينز، ومن ثم السير على خطى والدي. كانت الإجازات مزدحمة بتنظيم المعسكرات الصيفية للأطفال والرحلات الشاطئية، سافرت مرتين بين الولايات مع لجان الطلاب وفي كل مرة كنت أعود إلى المنزل مبكرًا ومصابًا بالربو.

قبل نهاية سستي الأولى بقليل، ظهر القرص المظلم المؤلف في عيني اليمنى. هذه المرة شُخصت بشكل سريع وأُجريت لي الجراحة بشكل فوري. قضيت عدة أسابيع في المستشفى، ورأسي مستريح على حلقة مبطنة لتقليل الحركة. علّمت نفسي طريقة برايل، وقرأت سفر المزامير وأجزاء من إنجيل القديس مرقس. انتقلت بعدها لبضعة أيام إلى المنزل

للتعافي، كنت للتو أُجري فحصًا للحصول على نظاراتٍ جديدة عندما حدث هذا الشيء مرةً أخرى. انتقلت إلى المستشفى، واستلقيت على ظهري في الظلام مرةً أخرى، مكثت لفترة أقرأ بطريقة برايل وأتساءل عن المستقبل. الغريب أن ذلك كان له تأثير ضئيل في داخلي. هذه المرة كانت العملية أكثر نجاحًا، كما تمكنت من الحصول على درجتي العلمية بعدها.

بعد أن اكتشفت أن المنحة الحكومية التي تلقيتها يمكن أن تغطي دورةً تدريبيةً للمعلمين، وجدت أن هذا سيكون إضافةً مفيدةً للوزارة، وبالتالي أمضيت عامًا آخر في كلية التربية بالجامعة للحصول على دبلوم التربية (التأهيل الأولي التدريبي للمعلمين) وتخصصت في التربية الدينية. نظرًا لأن هذا التخصص لا يُدرّس في مدارس الدولة، استدعاني القطاع المستقل وعُيِّنتُ في هيئة التدريس بمدرسة النحو التابعة لكولفيلد تشيرش أوف إنجلترا للبنين^(١) في ملبورن.

قضيت ما يقرب من ثلاث سنواتٍ جميلة في هيئة تدريس كولفيلد. درّست اللغة الإنجليزية والتاريخ والدراسات الاجتماعية والتعليم الديني، وقضيت بعض الوقت في تدريب

(1) Caulfield Church of England Boys' Grammar School

الكريكت وكرة القدم الأسترالية للأولاد الأصغر سنًا، وكنت مسؤولاً عن السكن الداخلي للصغار الذي يضم حوالي ثلاثين شابًا تتراوح أعمارهم بين ٨ و ١١ عامًا. كنت أذهب مرتين في الأسبوع بعد المدرسة إلى الجامعة لحضور محاضرات في الفلسفة وعلم نفس التربوي كجزء من متطلبات الحصول على درجة البكالوريوس. في عام ١٩٥٨ بدأت التفكير بجديّة في المستقبل. كانت الوزارة الميثودية لا تزال من أهدافي، ولكن مسألة الدراسة لثلاث سنوات أخرى في ملبورن لم ترق لي. أردت حينها دراسة علم اللاهوت في إحدى الجامعات الرائدة في أوروبا أو أمريكا الشمالية. عُرض عليّ مكانٌ شاغر في كامبريدج من خلال فيتزويليام هاوس (الآن كلية فيتزويليام^(١)). لم تسنح لي فرصة الإقامة في ويسلي هاوس^(٢)، وكانت النصيحة أن أ تقدّم إلى كلية تشيشونت^(٣)، التي كانت كلية لاهوتية أبرشانية^(٤) على الرغم من أن المدير في ذلك الوقت

(1) Fitzwilliam College

(٢) كلية ويسلي هاوس الميثودية Wesley house، إحدى كليات كامبريدج.

(3) Cheshunt College

(٤) الأبرشانيون Congregationalists طائفة من فرقة البروتستانت المسيحية. يعتقدون أن لجميع المسيحيين مدخلاً مباشراً إلى الله عن طريق المسيح، وبناءً على ذلك فهم متساوون.

كان ميثوديًا. في أوائل أغسطس من عام ١٩٥٩ أبحرت على متن سفينة اس ستراثمور^(١).

في لندن قابلت ماري، أخت والدي الصغرى. كانت مختصة اجتماعية للأطفال في منازل دكتور برناردو^(٢) في ديفون، وجاءت من مدينة اكستر لمقابلتي. قضينا وقتًا بديعًا، وزرنا جميع المعالم السياحية الرائعة في لندن، المألوفة بالنسبة لي من لعبة المونوبولي، سافرت بعد ذلك بالقطار إلى كامبريدج.

كانت السنوات الثلاث التي تلت من أهم السنوات التي ساهمت في تكويني. كوّنت صداقات مع زملائي الطلاب من شتى أنحاء العالم، بعضهم لا يزال صديقًا من حينها. اشترت دراجة بخارية وسافرت لجميع أنحاء إنجلترا، حتى أنني اصطحبت الدراجة معي إلى فرنسا وسويسرا. كان البصر في عيني اليمنى ممتازًا، لكن كان عليّ توخي الحذر من الأجسام عن يساري، كما كانت رؤيتي الليلية ضعيفة. تعلّمت حب المناظر والأشياء حول كامبريدج، وركوب القوارب على نهر كام، وتناول الخبز المحمص على نيران الفحم بعد الظهيرة في

(1) SS Strathmore

(٢) منازل دكتور برناردو Doctor Barnardo's homes، وهي منازل

تعمل وتقدم رعاية اجتماعية للأطفال المعوزين.

الشتاء. أحببت المكتبات، والحفلات، والموسيقى. أهم شيء تعلمته كان حب مكتبة الجامعة. كنت أتبع أثر الأفكار والمفاهيم عبر القرون في المكتبة، وأنقل من جناح لآخر، كل ذلك أشبعني وأسعدني. في الدروس التعليمية، ولأول مرة في حياتي، وجدت نفسي وحيدًا مع شخص كانت مهمته سبر أغوار تفكيري.

لمدة عامين قرأت الجزء الثاني من التريبوس^(١) اللاهوتي وبقيت لمدة عام لقراءة الجزء الثالث، وتخصّصت في دراسات العهد الجديد. في سنتي الثالثة، انتخبت رئيسًا لصالة الطلبة. كنت أقضي الإجازات في التنزه برحلات الهيتش هاكينج^(٢) في أنحاء أوروبا والشرق الأوسط. بعد ذلك، مررت بأزمة إيمانية، ووجدت أنني لا أستطيع الدخول في الوزارة الميثودية بضمير حي، وقررت البقاء في إنجلترا واستئناف عملي كمدرس. تزوجت من إحدى الطالبات من كلية تشيشونت وانتقلنا إلى برمنغهام.

(١) تريپوس Tripos، هو أي اختبار يؤقّل الطالب الجامعي للحصول على درجة البكالوريوس في جامعة كامبريدج.

(٢) الهيتش هاكينج hitch-hiking أو رحلات الأتوستوب، وهي طريقة سفر قليلة التكلفة.

في عام ١٩٦٨ كانت الحركات والمظاهرات الطلابية في أوجها، ولم تكن برمنغهام استثناءً. خلال الفصل الدراسي الأول، احتل الطلاب القاعة الكبرى والمجمع الإداري، وكان الحرم الجامعي بأكمله في حالة من الاضطراب. انتخبت ممثلاً للموظفين في مجلس التعليم، ومن ثم انتخبت في مجلس الجامعة والمجلس الاستشاري والمحكمة، وقضيت ست سنوات في منتصف السبعينيات في اللجنة التنفيذية الأكاديمية لمجلس الجامعة.

كانت برمنغهام مدينة رائعة للعمل، وكانت كامبريدج جميلة جدًا، ولندن كبيرة جدًا، لكن في برمنغهام تعلمت أن أعرف وأحب قلب إنجلترا. هنا، لا شيء يمنع تناول الأحداث العامة، كما أن الارتباط بين العام والخاص واضح. إذا كانت هناك اضطرابات صناعية، إذا ارتفع سعر البنزين، إذا كانت هناك مشاكل في شقق المباني، أو في إمدادات المياه، فإن كل ذلك يتم تناوله والحديث عنه في المدارس والأسواق. تعلمت هنا أن أقدر اليهودية، والهندوسية، وعقيدة السيخ، والإسلام. ببرمنغهام كانت واحدة من أكبر المدن الصناعية متعددة الثقافات في أوروبا الغربية، وكان للتعليم الديني دور حيوي يلعبه.

كنت في منصبي الجديد منذ أقل من عامين عندما عاد الظل المظلم المَنسي إلى الظهور مرةً أخرى. أبلغت عن المشكلة لطبيبي العام المتشكك إلى حدٍّ ما، قام بفحصي بعناية، وأكد لي أنه لم يجد أي شيءٍ وأخرجني. بعد عدّة مكالمات هاتفية مُلحّة، وافق على تحديد موعدٍ لي في عيادة العيون. هناك شُخصت المشكلة بسرعة، وخضعت لعملية جراحية في مستشفى برمنغهام وميدلاند للعيون. كان العلاج مفيداً، وكانت النتيجة ناجحةً للغاية. استعدت بصر عيني اليمنى بشكل فعلي، وشاركت في إحدى اجتماعات جمعية ويست ميدلاندز لطبّ العيون. لكن في غضون بضعة أشهر، عادت المشكلة.

كان التشخيص هذه المرة أكثر صعوبة. مرّ أسبوعٌ بعد أسبوع، ورفض الاستشاري رؤيتي، بينما كان الأطباء المقيمون والطلاب يؤكّدون لي أنه لا يوجد ما يبعث على القلق. كنت أضع علامةً على جدار مكتبي كل أسبوع لمراقبة تقدّم القرص الأسود. فقط وبعد خطاب احتجاج، أُرسل بالبريد المسجّل إلى عنوانه الخاص، وافق الاستشاري على تنويمي. بعد فحص طويل أخبرني أن جراحةً فورية ستكون ضرورية. أكّدت له أنني على ثقة تامة بمهارته، لكنه أصرّ على تسليمي لزميله. أُجريت العملية بمهارة كبيرة، على ما أعتقد، ولكن نتج عنها ندوبٌ في

العين وأثارت دائماً. بحلول عام ١٩٧٠، بدأت عقداً من الرؤية المتدهورة.

في عام ١٩٧٣ ولدت ابنتي إيموجين (من زوجتي ماري)، لكن في ربيع عام ١٩٧٩، بعد أكثر من عامين من الانفصال غير الرسمي، انفقت أنا وزوجتي على الطلاق.

اكتملت أبحاثي عن العهد الجديد والتي أجريتها في جامعات لندن وبرمنغهام بحلول عام ١٩٧٠، لكن الإعداد للنشر في عام ١٩٧٤ واجه بعض المشكلات، حيث بقي الكثير من العمل والبحث في اللغات القديمة والأجنبية. على الرغم من أنني كنت أمل أن لا يستمر بصري في التدهور، إلا أنني كنت أعلم أنه سيكون من الحماقة توقع تحسنه أو منع تدهوره. كان بإمكانني إقناع الناس بقراءة الكتب الإنجليزية لي، ولكن من الصعب العثور على أشخاص يقرؤون لي اليونانية والآرامية. لم أكن أبداً جيداً في اللغات على أي حال، وراق لي اشتغالي التدريجي في الفلسفة واللاهوت والعلوم الاجتماعية. درست ماجستير علم اللاهوت التربوي، وشغلني ذلك فكرياً، في حين أن الزيارات المتكررة لإلقاء المحاضرات في بلدان مختلفة جلبت لي مجموعة كبيرة من الزملاء، وفهماً أعمق للعلاقة بين التعليم الديني والثقافة الحديثة.

بدأت باستخدام بالعدسة المكبرة للقراءة في عام ١٩٧٣ أو ما يقرب من ذلك، وفي عام ١٩٧٧ انتهيت من قراءة شارديك لريتشارد آدامز^(١)، وقررت أن تكون هذه آخر رواية أقرأها بعيني. خطرت ببالي هذه اللحظة منذ ثلاثين عامًا، عندما زاد الإعتماد في عدسة عيني، تعجّلت حينها قراءة بقية تلك الرواية عن الغرب الأمريكي.

ومن تلك اللحظة قررت أن أستفيد من بصري المتبقي في قراءة عملي. لم يعد هناك مجال لأي قراءة غير ضرورية. أصبحت العدسات المكبرة أكبر وأثقل. حملتها في يدي، وركبتها على مكتبي، وثبتها في نظارتي. كان مكتبي عبارة عن مجموعة من المصاييح ومساند الكتب. أصبح تسجيل ما قرأته وتدوينه مشكلة متزايدة. كتبت باستخدام أقلام لتباد (خطاط) أكثر سمكًا، وفي النهاية لا يكون في الورقة بأكملها أكثر من اثنتي عشرة كلمة أو نحو ذلك، بالكاد أقرأها بمساعدة عدسات مكبرة. في ١ نوفمبر ١٩٧٩ تزوّجت للمرة الثانية. في غضون أقل من عام وُلد طفلنا الأول، وسُجّلت كفيفًا. في سبتمبر من عام ١٩٨٠ عُدت إلى مكتبي من مستشفى العيون ومستشفى الولادة، مريضًا من الأول زائرًا من الأخير، لأواجه موقفًا

(1) Shardik by Richard Adams, Het Spectrum 1974

غريبًا. كان من المقرر أن أسلم عملاً في أقل من شهر، وكانت جدران غرفتي متروسة بملفاتٍ تمثل سنواتٍ من العمل، لم يكن من الممكن الوصول لأيٍّ منها في تلك اللحظة.

شغلَ التكيف مع هذه المشاكل السنوات ١٩٨٠ إلى ١٩٨٣، ويمكن لتلك السنوات أن تكون موضوع كتابٍ بحدّ ذاته. لا يَصِفُ هذا الكتاب تلك السنوات، ولكنه عوضًا عن ذلك يَصِفُ الأعوام ١٩٨٣ حتى ١٩٨٦. في عام ١٩٨٣، تلاشت آخر أحاسيس للضوء وغمرتني الأقراص المظلمة بسوادها أخيرًا. لقد حاربت بشجاعةٍ، كما بدا لي، لستّة وثلاثين عامًا، لكن دون جدوى. عندها بدأت في الفرق في أعماق المحيط، وتعلمت أخيرًا كيف أمسكُ بطرف الخيط على الجانب الآخر من اليأس.

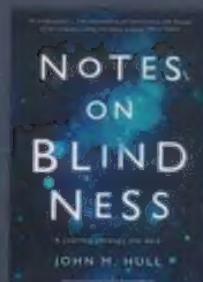
شكر وتقدير

أودُّ أن أعرب عن شكري لكل من آن باكلي وبينى بيكر وكاجا زيسلر اللاتي ساعدنني في إعداد المخطوطة. أودُّ أيضًا أن أشكر أودري ألين وزميلي كريس بوكلي، وكلاهما قدما لي الكثير من المساعدة العملية لهذا العمل، كما فعل العديد من الآخرين. قرأ زميلي مايكل جريميت المخطوطة وشجّعني كثيرًا. ومع ذلك، يجب أن أتقدّم بخالص شكري إلى زوجتي مارلين وأولادي إيموجين وتوماس وإليزابيث وجابريل. إذا كنت كتبتُ عن توم وإليزي الكثير، فذلك لأن إيموجين كانت في السابعة من العمر عندما فقدت بصري، أما جابريل فلم يولد قبل أغسطس من عام ١٩٨٥. وُلِدَ جوشوا أثناء تحضير هذا الكتاب للنشر. تزوّجنا أنا ومارلين قبل أن تبدأ الأحداث الموصوفة في الكتاب بعام. هذا هو سبب إهدائي الكتاب لها ولأولادنا، بكلّ حب.

جون إم هال، ١٩٩٠

مذكرات العمى

رحلة عبر الظلام



"المذكرات كانت دقيقة، وبنفس القدر عميقة: أمعنَ النَّظَرُ في كل شيء، واستكشفه إلى أقصى حدوده، كل تجربة في الكتاب سلكت طريقًا، وأثمرت حصائدًا كاملًا من المعاني. نظرات هال الناقية، وجمال لغته، تجعل هذا الكتاب شعرًا؛ عمق تأملاته يحولها إلى فلسفة أو فينومينولوجيا. لو كان فتجنشتاين أعمى، لكتبَ مثل هذا الكتاب، معبرًا عن أعماق فينومينولوجيا الإدراك المتغيرة على الدوام. وبالفعل، فإن استخدامه للاستكشاف القصيرة والملاحظات المُبهرّة عنها، يجعل «مذكرات العمى» مشابهًا وبشكل غريب للتحقيقات الفلسفية."

أوليفر ساكس

ISBN 978-603-91618-7-5



9 786039 161875

أدب
adab



إثراء
ithra

